رواية

2020
4.1.2020

جيرزي كوزنسكي

الطائر الملون

ترجمة: أشرف القرقني

صفحة

The Painted Bird

Jerzy Kosiński

الطّائر الملوّن

جيرزي كوزنسكي

رواية

ترجمة :أشرف القرقني

الطّائر الملوّن

جيرزي كوزنسكي

الكتاب

الطائر الملون

المؤلف

جرسي كوزنسكي

الطبعة

الأولى : 2019

ردمك:

978-603-91266-5-2

رقم الإيداع:

1440/11410

حقوق الترجمة العربية لأعمال جيرزي كوزنسكي

Being there, Jerzy Kosinski

Trident Media Group©

محفوظة لفائدة

© صفحة سبعة للنشر والتوزيع

E-mail: info@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية

1

خلال الأسابيع الأولى للحرب العالميّة الثّانية، خريفَ سنة 1939، أُرسِل صبيّ ذو ستّ سنوات، مثل آلاف الأطفال الآخرين، من قبل والديه، من مدينة كبيرة في أوروبا الشّرقيّة إلى قرية بعيدة لتكون ملاذا له.

وافق رجل مسافرٌ باتّجاه الشّرق مقابل مبلغ كبير على أن يعثر على أبوين مؤقّتين ليتبنّيا الطّفل. وإذ لم يكن هناك خيار آخر، ائتمنه الوالدان على الفتى.

لقد اعتقدا أنّ إرسال ابنهما بعيدا، هو الطّريقة الأفضل لضمان بقائه حيّا أثناء الحرب. وبسبب أنشطة الأب المناهضة للنّازيّة قبل اندلاعها، كان عليهما هما أيضا أن يبحثا عن مخبإ لتجنّب الأشغال الشّاقّة في ألمانيا أو السّجن في معسكرات الاعتقال. أرادا إنقاذ الطّفل من هذه المخاطر، آملَيْن اجتماعهم مجدّدا في النّهاية.

ولكن خيّبت الأحداثُ آمالَهما. ففي فوضى الحرب والاحتلال التي قضت بعمليّات النّقل المستمرّة للمتساكنين، فقد الوالدان الاتّصال بالرّجل الذي اصطحب طفلهما إلى القرية. وكان عليهما إذن أن يواجها إمكانيّة عدم العثور عليه مجدّدا.

وأثناء ذلك الوقت، توفّيت أمّ الفتى بالتّبنّي خلال الشّهرين التّاليين لوصوله. ليُترك الطّفلُ وحيدا، تائها من قرية إلى أخرى، محتميا بمأوى أحيانا، ومطرودا ومُلاحَقا أحيانا أخرى.

تختلفُ القرى التي اضطرّ لقضاء السّنوات الأربع اللاّحقة فيها عرقيّا عن مسقط رأسه. كان الفلاّحون المحلّيون عشائر معزولة، شُقرا، ذوي بشرة فاتحة وعيون زرقاء أو رماديّة. أمّا الفتى، فقد كانت بشرته بلون الزّيتون، شعره داكن اللّون وعيناه سوداوين. وقد كان يتكلّم لغة الطّبقة المتعلّمة، لغة تكاد لا تكون مفهومة من قبل فلاّحي الشّرق.

كان هؤلاء يعتبرونه غجريّا أو يهوديّا ضالاّ، في حين يعرّضُ الغجر الطّالبون للمأوى أو اليهود، ومكانهم الغيتو أو معسكرات الاعتقال، الأفرادَ والجماعاتِ لأقسى العقوبات على يد الألمان.

لقد أُهملت القرى في تلك المنطقة طيلة قرون كاملة. ولكونها عصيّة على البلوغ ونائية عن أيّ مركز حضريّ، فقد كانت من بين أكثر الأقسام المتخلّفة في أوروبا الشّرقيّة. لم تكن هناك مدارس أو مستشفيات، فقط بضع طرق معبّدة أو جسور. ما من كهرباء. والنّاسُ يعيشون في مستوطنات صغيرة، على طريقة أسلافهم القدامى. يتنازع القرويّون الأنهار والغابات والبحيرات. والقانون الوحيدُ السّائدُ فيما بينهم هو الحقّ التّقليديّ للأقوى والأغنى على حساب الأضعف والأفقر. مقسومين بين الكاثوليكيّة الرّومانيّة والمعتقدات

الأرثوذكسيّة، لا يوحّد بينهم هناك سوى ميولهم الخرافيّة المتطرّفة والأمراض الكثيرة التي تصيب النّاس والحيوانات على حدّ سواء.

إنّهم جهلةٌ وقساة، ولكن دون خيار منهم. فقد كانت التّربة فقيرة والمناخ قاسيا، والأنهار المفرغةُ بشكل كبير من الأسماك تفيض، في كثير من الأحيان، على المراعي والحقول، محوّلة إيّاها إلى مستنقعات. اخترقت الأحراشُ والبِركُ المنطقة، في حين اعتادت الغابات الكثيفة أن تؤوي عصابات المتمرّدين والخارجين عن القانون.

لم يعمّق احتلال الألمان لتلك المنطقة من البلاد إلاّ بؤسها وتخلّفها. كان على الفلاّحين أن يمنحوا جزءا كبيرا من محاصيلهم الضّئيلة للقوّات النّظاميّة من جهة، وللموالين لها من جهة أخرى. ورفضُ القيام بذلك قد يعني اندلاع الغارات التّأديبيّة على القرى، تاركة إيّاها لأنقاضها الدّاخنة.

عشتُ في كوخ مارتا، متوقّعا قدوم والديّ من أجلي، في أيّ يوم وأيّة ساعة. لم ينفع البكاءُ. ومارتا لم تكن تعيرُ أيّ انتباه لنشيجي.

لقد كانت مُسنّةً ومنحنية دائما، كما لو أنّها تريدُ أن تقسم نفسها نصفين، فلا تقدر على ذلك. شعرُها الطّويل، الذي لم يُمشّط أبدا، كان قد تشبّك مُحدِثا ضفائر سميكةً لا حصر لها، ويستحيلُ تسريحها. تسمّيها أقفال الأقزام. وفيها عشّشت القوّات الشّيطانيّة، تفتُلها بعضها في بعض وتتقدّمُ بهَرَم مارتا.

كانت تعرجُ، مُستندة في انحنائها إلى عصا ذات عُقدٍ، متمتمةً لنفسها كلماتٍ بلغة لم أكن أفهمها بوضوح. وجهها الذّابلُ مغطّى بشبكة من التّجاعيد. وبشرتها بنّيّة، في احمرار طفيف، مثل تفّاحة موغلة في الجفاف. جسدها الذّابلُ كذلك يرتعشُ باستمرار، كما لو أنّ ريحا مّا تخضّه من داخله. أصابعُ يديها، النّاتئ عظمُهما، بمفاصلهما

الملتوية بسبب المرض، لم تتوقّف أبدا عن الارتجاف، بينما كان رأسها يومئُ، على عنقها الطّويل الضّامر، في كلّ اتّجاه.

كان بصرها ضعيفا. إذ تحدّقُ بصعوبة في الضّوء من خلال شقّيْن صغيرين راسخين تحت حاجبين كثيفين. أمّا جفناها فقد كانا مثل أخاديد في تربة محروثة عميقا. والدّموع تتساقط باستمرار من زوايا عينيها، مُتدحرجة على وجهها، في قنوات بالية، لتلحق بالخيوط الدّبقة المتدلّية من أنفها وفقاعات اللّعاب المتقاطرة من شفتيها. كانت تبدو مثل فُطر نفّاث أخضر رماديّ قديم عفن، في انتظار آخر هبّة ريح لتفجّر الغبار الأسود الجّافّ من الدّاخل.

في البداية، كنتُ خائفا منها. أغلقُ عينيّ في كلّ مرّة تقتربُ فيها منّي. كلّ ما بإمكاني أن أحسّ به في تلك الفترة هو الرّائحة الكريهة لجسدها. كانت تنام دائما في ملابسها، التي تعتبرها الدّفاع الأمثل ضدّ خطر الأمراض الكثيرة التي يجلبها الهواء الطّلقُ إلى الغرفة.

ومن أجل الحفاظ على الصّحّة، كانت تزعمُ أنّ على المرء ألاّ يغتسل أكثر من مرّتين في السّنة، في عيد الميلاد وعيد الفصح، وأن يفعل ذلك حتّى في هاتين المناسبتين بشكل طفيف ودون أن ينزع ملابسه. لم تكن تستعمل الماء السّاخن إلاّ لتخفّف مسامير قدميها الكثيرة وأورامها والأضافر النّامية في تينك القدمين الخشنتين. ولهذا السّبب كانت تنقعهما فيه مرّة أو مرّتين في الأسبوع.

مرّات كثيرة، كانت تمسّح على شعري بيديها الهرمتين والمرتعشتين اللّتين تشبهان مجارف الحدائق. وتشجّعني على اللّعب في الفناء ومصادقة الحيوانات المنزليّة.

اكتشفتُ في النّهاية أنّها أقلّ خطورة ممّا تبدو عليه. أتذكّر حكاياتها التي اعتادت مربّيتي أن تقرأها لي من كتاب مصوّر. هذه الحيوانات، تملك حياتها الخاصّة، قصص حبّها وخلافاتها. وتخوض حوارات بلغة تخصّها.

احتشد الدّجاجُ في القنّ، متدافعا فيما بينه لإدراك الحبّ الذي ألقيتُه له. كان بعضه يتسكّع زوجين اثنين، بينما ينقر بعضه الآخر الدّجاجات الضّعيفة، متّخذا حمّاما انفراديّا في البرك التي يخلّفها المطر، أو ينفُش ريشه بتأنّق حول بيضه قبل أن يغطّ سريعا في النّوم.

حدثت أشياء غريبة في فناء المزرعة. فقست من البيض فراخ صفراء وسوداء، بدت شبيهة ببيض صغير حيّ، ذي سيقان نحيفة. وذات مرّة، التحقت بالسّرب حمامةٌ وحيدة. وكان من الواضح أنّه غيرُ مرحّب بها. إذْ عندما حطّت وسط وابل من الأجنحة والغبار، فرّت الدّجاجاتُ مذعورة. وعندما أخذت تتحدّاهم، مطلقة هديلا أجشّ ومتقدّمة نحوهم ببطء، وقفت الدّجاجاتُ على حدة. وحدّقت في الحمامة بازدراء. وفي كلّ مرّة كانت تقترب فيها الحمامة منها، كانت تفرّ بعيدا وهي تقرّ.

وفي أحد الأيّام، بينما كانت الحمامة كعادتها تحاول أن تختلط بالدّجاج والفراخ، انفصل شيء مّا أسود من السّحب. وسقط فيما بينها. هرب الدّجاج صارخا باتّجاه الحظيرة والقنّ. سقطت الكرة السّوداء مثل حجر على السّرب. ووحدها الحمامة لم تكن تملك مكانا لتختبئ فيه. قبل أن تتمكّن من فتح جناحيها حتّى، سمّرها طائرٌ قويّ بمنقار معقوف وحادّ في الأرض. ثمّ هجم عليها. كان ريشُ الحمامة

ملطّخا بالدّم. خرجت مارتا مسرعة من كوخها، ملوّحة بعصا في يدها. لكنّ الصقر كان قد أقلع بهدوء، حاملا في منقاره جسم الحمامة المرتخي.

احتفظت مارتا بثعبان في حديقة صخريّة صغيرة، كانت قد سيّجتها بعناية. انفلت الثّعبانُ مُنحنيا من بين أوراق الأشجار، مموّجا لسانه المشقّق مثل راية في مجلّة عسكريّة. بدا غير مبال بالعالم تماما. ولم أعرف أبدا إن كان قد لاحظني آنذاك.

في إحدى المرّات، اختبأ الثّعبان عميقا تحت الطّحالب، في مناطقه الخاصّة. وبقي هناك لفترة طويلة جدّا، دون أكل أو شرب، مُشاركا في مسائل غامضة وغريبة، تفضّل مارتا نفسُها ألاّ تتحدّث في أمرها مطلقا. عندما أطلّ أخيرا، كان رأسه يلمع مثل برقوق مُزيّت. استغرق الثّعبان في السّكون عن الحركة، باستثناء رعشات بطيئة جدّا تتقدّم على امتداد جسمه الملفوف. ثمّ زحف بعد ذلك بهدوء خارج جلده، إذ بدا فجأة أرقّ وأصغر من قبل. لم يعد ليموّج لسانه مجدّدا. ولكنّه بدا منتظرا لجلده الجديد حتّى يتصلّب. لقد قام بالتّخلّص كلّيّا من الجلد القديم شبه الشّفّاف، بينما هجم عليه الذّباب، عديمُ الاحترام. رفعت مارتا الجلد في توقير. وخبّأته في مكان سرّيّ. جلدٌ مثل هذا، كانت له خصائصُ علاجيّة قيّمة. لكنّها قالت إنّني كنت صغيرا جدّا على أن أفهم طبيعتها.

شاهدتُ أنا ومارتا هذا التّحوّل بذهول كبير. قالت لي إنّ الرّوح البشريّة تتخلّصُ من الجسد بطريقة مماثلة. ثمّ تطير بعد ذلك إلى قدمي الرّبّ. وبعد رحلتها الطّويلة، يلتقطها الرّبّ بين يديه الدّافئتين. يحييها من جديد بنفَس منه. ومن ثمّ يحوّلها إلى ملاك سماويّ أو يلقي بها سُفُلا في الجحيم لتلقى عذاب النّار الأبديّ.

هناك سنجاب صغير أحمر اعتاد أن يزور الكوخ. بعد تناوله لوجبة مّا، يشرع في الرّقص مرحا وسط الفناء، ضاربا بذيله، مُطلقا صريرا خافتا، ملتفّا حول نفسه، قافزا، ومرهبا الدّجاجات والحمام.

كان السّنجاب يزورني يوميّا. يجلسُ على كتفي. يقبّلُ أذنيّ، رقبتي ووجنتيّ، مُثيرا شعري بلمسته الخفيفة. وبعد أن ينتهي من اللّعب، كان يختفي عائدا إلى الغابة عبر الحقل.

ذات يوم سمعتُ أصواتا مرتفعة. فعدوتُ نحو المرتفع القريب. مكثتُ مختبئا بين الشّجيرات مرعوبا لرؤية بعض أولاد القرية، وهم يطاردون سنجابي عبر الحقل. كان يجري بشكل محموم، محاولا أن يدرك مأمنه في الغابة. بينما كان الصّبية يلقون الحجارة أمامه ليقطعوا عليه الطّريق. أُنهِك المخلوق الصّغير. وتقلّصت قفزاته وتباطأت. في النّهاية، أمسكه الأولاد. لكنّه استمرّ في القتال بشجاعة محاولا أن يعضّهم. بعد ذلك، انحنى الفتية على الحيوان. وسكبوا سائلا مّا من علبة عليه. وإذ شعرتُ أنّ شيئا فظيعا سوف يحدث آنذاك، حاولتُ قُصارى جهدي أن أفكّر في طريقة لإنقاذ صديقي الصّغير. ولكنْ، كان الأوانُ قد فات.

التقط أحد الأولاد قطعة من الخشب المشتعل من العلبة المتدلّية على كتفه. ولمس الحيوان بها. ثمّ ألقى السّنجاب على الأرض، حيث اشتعلت فيه النّيران على الفور. وحين أطلق صرخة كتمت أنفاسي، كان السّنجابُ يقفز بقوّة كما لو أنّه يحاول الهرب من النّار. غطّته النّيران تماما، باستثناء ذيله الكثّ الذي اهتزّ للحظة. التفّ الجسدُ الصّغيرُ الدّاخنُ ساقطا على الأرض. وسرعان ما سكنت حركته. بينما حدّق فيه الصّبية، وهم يضحكون ويهمزونه بالعصيّ.

الآن وقد مات صديقي، لم يعد لديّ أحد لأنتظره في الصّباح. أخبرتُ مارتا بما كان قد حدث. لكنّها لم تفهمني فيما يبدو. تمتمت شيئا لنفسها. وصّلت للرّبّ. ثمّ ألقت تعويذتها على سكّان البيت لتدرأ عنهم الموت الذي كان، كما تزعم، متربّصا في الأنحاء محاولا الدّخول إلى الكوخ.

مرضت مارتا. وصارت تشتكي من ألم حادّ تحت ضلوعها، حيثُ يرفرفُ القلبُ سجينا إلى الأبد. قالت لي إنّ الرّبّ أو الشّيطان قد أرسل مرضا هناك لتدمير كائن آخر. وبالتّالي، لقد وضع نهاية لإقامتها على الأرض. لم أفهم لماذا لم تخلع مارتا هي الأخرى جلدها، مثل الثّعبان، فتبدأ الحياة من جديد.

عندما اقترحتُ عليها هذا الأمر، انفجرت غضبا. ولعنتني لكوني غجريّا لقيطا ومجدّفا، قريبا للشّيطان. وقالت إنّ المرض يخترقُ شخصا مّا، من حيثُ لا يدري أو يتوقّع. يمكنه أن يكون جالسا خلفك في عربة، أن يقفز على كتفيك بينما تكون منحنيا لالتقاط التّوت في الغابة، أو يزحف خارجا من الماء عندما تعبر النّهر بواسطة قارب. يتسلّل المرضُ إلى الجسد بشكل لا مرئيّ، بواسطة خطّة ماكرة، عبر الهواء، أو الماء، أو عن طريق الاتّصال بحيوان أو شخص آخر، أو حتّى -وحينئذ نظرتْ إليّ نظرة حذرة- من خلال عينين سوداوين، موضوعين قرب أنف كأنف العقاب. مثل هذه العيون المعروفة بعيون الغجر أو السّاحرات، يمكنها أن تجلب مرض الشّلل أو الطّاعون أو الموت. ولهذا السّبب، حرّمت عليّ، منذ تلك اللّحظة، أن أنظر مباشرة في عينيها، أو حتّى في عيون حيوانات البيت. أمرتني كذلك أن أبصق بسرعة ثلاث مرّات، وأرسم شارة

الصّليب على جسدي، في حال نظرتُ، بشكل حادث، في عيون الحيوانات أو عينيها.

كثيرا ما كانت تحتدمُ غضبا، عندما تفسدُ العجينة التي تعدّها. وتلقي عليّ باللّوم، لأنّني لا ريب أطلقتُ تعويذة مّا. وتقول لي إنّ عقابي سيكون يومين كاملين بلا خبز. وإذ كنتُ أحاولُ أن أرضي مارتا وألاّ أنظر في عينيها، فقد مشيتُ حول الكوخ بعينين مغمضتين، متعثّرا بالأثاث، مُوقِعا الدّلاء على الأرض، دائسا على الأمكنة المخصّصة للأزهار، وخابطا كلّ شيء، مثل عثّة أعماها إشعاعٌ مفاجئ. في تلك الفترة، جمعت مارتا بعض الإوزّ. وفرّقتهُ على حطب مشتعل. ثمّ نفخت الدّخان النّاتج عن احتراقه حول الغرفة، ليصاحب التّعاويذ التي أعدّتها لطرد رائحة الشّيطان.

كانت تصرّح في النّهاية أنّ تلك الرّائحة قد رُفعت أخيرا. وهي على حقّ في ذلك، لأنّ العَجْن التّالي يُخرجُ دائما خبزا حسنا.

لم تستسلم مارتا لمرضها وألمها. بل شنّت معركة ماكرة ضدّهما. عندما تشرعُ آلامها في مضايقتها، تلتقطُ قطعة من اللّحم النّيء. تقطّعها بشكل دقيق. ثمّ تضعها في جرّة خزفيّة. تسكبُ بعد ذلك فوقها شيئا من الماء الذي استُجلِب من بئر، قبيل شروق الشّمس تماما. تُدفن الجرّة حينئذ عميقا في إحدى زوايا الكوخ. وذلك ما سيجلب لها الرّاحة من الآلام، لبضعة أيّام -كما كانت تقول- إلى أن يتفكّك اللّحمُ. ولكن، عندما تعاودها الآلام مجدّدا، تقوم بكلّ الإجراءات المضنية مرّة أخرى.

لم تشرب مارتا أيّ سوائل في حضوري. ولم تبتسم أبدا. كانت تعتقدُ أنّها إن فعلت ذلك، قد تمنحني الفرصة لعدّ أسنانها، وأنّ كلّ سنّ أحصيها، قد تطرحُ سنة من حياتها. صحيحٌ أنّها لم تكن تملكُ أسنانا كثيرة. لكنّني أدركتُ أنّه في مثل سنّها، كلّ سنة تصير ثمينة جدّا.

حاولتُ أن آكل وأشرب، دون أن أظهر أسناني. كما أنّني مارستُ النّظر إلى انعكاسي الشّخصيّ على المرآة الزّرقاء المسودّة لماء البئر، مبتسما لنفسي بفم مغلق.

لم يُسمح لي أبدا بالتقاط شعرها المتساقط من الأرضيّة. فقد كان من المعروف أنّه إذا تجسّست عينٌ شرّيرةٌ على شعرة ساقطة واحدة حتّى، تكونُ سببا لمشكلة خطيرة في الحلق.

تجلسُ مارتا في المساءات عند الموقد، مُومِئةً برأسها وهي تتمتمُ الصّلوات. وأجلسُ قربها، مفكّرا في والديّ. أتذكّرُ ألعابي التي صارت الآن، على الأرجح، ملك أطفال آخرين: دمية الدّبّ الكبير، بعينيه الزّجاجيّتين، الطّائرة بمراوحها التي تدور ومسافريها البادية وجوههم من خلال النّوافذ، الدّبّابة الصّغيرة المتحرّكة بيسر وسيّارة الإطفاء بسلالمها الإضافيّة.

فجأة، يصير كوخُ مارتا أكثر دفئا كلّما ازدادت دقّة الصّور وبدت لي أكثر واقعيّة. كان بإمكاني أن أرى أمّي جالسة إلى البيانو. وأسمع كلمات أغانيها. تذكّرتُ خوفي قبل عمليّة جراحيّة عن الزّائدة الدّوديّة، أجريتها عندما كنت في سنّ الرّابعة، طوابق المستشفى اللاّمعة، وقناع الغاز الذي وضعهُ الأطبّاء على وجهي، والذي لم يسمح لي حتّى بالعدّ إلى العشرة.

لكنّ ماضيّ هذا يتحوّل بسرعة إلى وهم، مثل الخرافات العجيبة لمربّيتي القديمة. تساءلتُ إذا كان والداي سيعثران عليّ مجدّدا. هل

يدركان يا ترى أنّه يجب عليهما ألاّ يشربا شيئا أو يبتسما أبدا في حضور الأشخاص ذوي العيون الشرّيرة، الذين سيحصون على الأرجح أسنانهم؟ أتذكّر ابتسامة أبي العريضة المرتاحة. فأشرع في القلق على الفور. لقد كشف أسنانا كثيرة إلى درجة أنّه إذا ما أحصتها عينٌ شرّيرة، فإنّه سيكون على الأرجح ودون شكّ ميّتا بعد فترة وجيزة.

ذات صباح، استيقظتُ. فوجدُت الكوخ باردا. كانت نار المدفأة خامدةً، ومارتا ما تزالُ جالسة في وسط الغرفة، بينما تنانيرها الكثيرة منثنية، وساقاها الحافيتان مرتخيتان داخل سطل مملوء بالماء. حاولتُ التّحدّث إليها. لكنّها لم تجبني. دغدغتُ يدها الباردة اليابسة. فلم تتحرّك مع ذلك أصابعها النّائتة. تدلّت يدها من فوق ذراع الكرسيّ مثل كتّان مبلول من حبل غسيل، في يوم دافئ. عندما رفعتُ رأسها، بدت عيناها الرّطبتان تحدّقان فيّ مباشرة. كنتُ قد رأيتُ مثل تينك العينين مرّة واحدة من قبلُ فقط، عندما ألقى التّيّارُ جثث السّمك الميّت.

فهمتُ أنّ مارتا تنتظر تغيير جلدها. ومثل الثّعبان، ليست في حاجة إلى من يضايقها في مثل هذا الوقت. ورغم أنّي لم أكن واثقا ممّ يجدر بي فعله، إلاّ أنّني حاولت أن أتحلّى بالصّبر.

كانت تلك الأيّام أواخر الخريف، والرّيح تقصم الأغصان الهشّة الصّغيرة. لقد مزّقت آخر الأوراق المتغضّنة، قاذفةً إيّاها نحو السّماء. جثم الدّجاج في أسطحه مثل البوم، ناعسا ومكتئبا، فاتحا بنفور عينا واحدة من حين إلى آخر. كان الجوّ باردا. ولم أكن أعرفُ كيف أشعلُ نارا. كلّ جهودي في مكالمة مارتا فشلت في اقتلاع إجابة واحدة منها. فقد ظلّت جالسةً هناك دون حركة، مُحدّقة بثبات في شيء مّا، لم أستطع رؤيته.

عدتُ للنّوم، إذ لم يكن لديّ أيّ شيء آخر أفعلهُ، واثقا أنّني حين أستيقظُ ستكون مارتا على الأرجح مهرولة حول المطبخ، تدندنُ أناشيدها الجنائزيّة. ولكنّني استيقظتُ في المساء لأجدها ما تزالُ تنقع ساقيها في الماء. كنتُ جائعا وخائفا من الظّلمة.

قرّرتُ أن أشعل مصباح الزّيت. وشرعتُ في البحث عن أعواد الكبريت التي تُخبّئها مارتا بعناية فائقة. أخذتُ المصباح بحذر شديد من فوق الرّفّ. لكنّه انزلق في يدي. وانسكب منه شيء من الكيروسين على الأرضيّة.

امتنعت أعوادُ الثّقاب عن الاشتعال. وعندما انقدح أحدها أخيرا، انكسر. وسقط على الأرض في بركة الكيروسين. في البداية، توقّف اللّهبُ هناك، مطلقا نفخة من دخان أزرق. ومن ثمّ قفز بعنف في وسط الغرفة.

لم يعد المكانُ مظلما. وصرتُ أرى مارتا بوضوح. لم يبدُ عليها أنّها تلاحظ ما كان يحدثُ أو أنّها منزعجة من اللّهب، الذي كان قد انتقل حينئذ إلى الجدار وأعلى أرجل كرسيّها السّعفيّ.

لم يعد المكانُ باردا كذلك. أصبح اللّهيبُ الآن على مقربة من السّطل الذي تنقع فيه مارتا رجليها. لا بدّ أنّها شعرت بالحرارة. لكنّها لم تتحرّك. شعرتُ بالإعجاب بقدرتها على التّحمّل. فبعد أن جلست هناك طيلة اللّيل والنّهار، مازالت لم تتحرّك بعدُ.

أصبحت الغرفة حارّة جدّا. تسلّقت ألسنة اللّهب الجدران مثلما تفعل الكروم. كانت تخفق وتطقطق مثل قرون النّبات الجافّة تحت الأقدام، خاصّة عند النّافذة، حيث تمكّن نسيم خفيف من الدّخول. وقفتُ عند

الباب مُستعدّا للهرب ومنتظرا أن تتحرّك مارتا. لكنّها جلست بصرامة، كما لو أنّها لا تعي شيئا. بدأ اللّهب في لعق يديها، كما قد يفعل كلب حنون. وها هو الآن يترك أمارات أرجوانيّة عليهما. ويتسلّق أعلى باتّجاه شعرها المتلبّد.

لمعت النّيران مثل شجرة عيد الميلاد. ثمّ انفجرت في شكل حريق مرتفع، مُشكّلة قبّعة مدبّبة من النّار فوق رأس مارتا. تحوّلت مارتا إلى مشعل. وأحاطها اللّهبُ بعناية من كلّ الجهات. وهسهس الماء في السّطل عندما سقطت فيه مِزَقٌ من سترتها البالية، ذات فرو الأرانب. استطعتُ أن أرى من تحت اللّهب، بقع بشرتها المتغضّنة والمترهّلة ومواضع مبيضّة من ذراعيها البارز عظمهما.

ناديتُ عليها للمرّة الأخيرة، بينما كنتُ أركضُ إلى الخارج باتّجاه الفناء. كانت الدّجاجاتُ تقيقُ بعنف. وتضربُ أجنحتها داخل القنّ المجاور للمنزل. أمّا البقرة التي اعتادت أن تكون ساكنة، فقد كانت تخورُ وتنطحُ باب الحظيرة برأسها. قرّرتُ حينئذ ألاّ أنتظر إذْنَ مارتا. وشرعتُ بمفردي في إطلاق سراح الدّجاج، الذي اندفع بشكل هستيريّ إلى الخارج، محاولا قصارى جهده أن يطير وهو يضربُ جناحيه بقوّة. نجحت البقرة في المقابل في كسر باب الحظيرة. ووقفت تتأمّلُ شيئا مّا، عن بعد مسافة آمنة من النّار، بينما تواصل اجترار ما في فمها.

صار الآن داخلُ الكوخ فرنا. وأخذت النّارُ تقفزُ عبر النّوافذ والحفر. كان سقفُ القشّ الذي التقط النّيران من الأسفل، يطلق دخانا مخيفا. تعجّبتُ من أمر مارتا. أكانت حقّا غير مبالية بكلّ هذا؟

هل كان سحرها وتعاويذها قد ضمنا لها حقّا الحماية من النار، حوّلت كلّ شيء حولها إلى رماد؟

مازالت لم تخرج من الكوخ حتّى الآن. وقد صارت الحرارةُ لا تطاقُ، ممّا اضطرّني إلى الانتقال إلى أقصى طرف الفناء. أدركت النّار قنّ الدّجاج والحظيرة كذلك. مرّت مجموعة من الجرذان المذعورة مسرعة عبر الفناء. وكانت عينان صفراوان لقطّ يحدّقُ من الحوافّ المعتمة للحقل، تعكسان صورة ألسنة اللّهب.

لم تتوصّل مارتا إلى الخروج. ومع ذلك، مازلتُ مقتنعا أنّ بإمكانها أن تبرز فجأة سالمةً. ولكن عندما انهار أحد الجدران، مجتاحا الدّاخل المتفحّم للكوخ، بدأتُ أشكّ في أنّني سأتمكّن من رؤيتها مجدّدا.

خُيِّل إليّ أنّني رأيتُ لوهلة في سحب الدّخان المرتفعة نحو السّماء شكلا غريبا لمستطيل بحوافّ منحنية. ماذا كان ذلك؟ أيعقل أن تكون روح مارتا وهي بصدد الهروب إلى السّماوات؟ أيعقلُ أن تكون مارتا نفسها، وقد أنعشتها النّيرانُ، وتخلّصت من جلدها القديم المتيبّس، مغادرة الأرض على مكنسة خشبيّة لاهبة، مثل السّاحرة في تلك القصّة التي حكتها لي أمّي؟

وبينما كنتُ أواصلُ التّحديق في عرض اللّهب والشّرر، انتزعني من حلم يقظتي صوتُ النّاس ونباحُ الكلاب. كان الفلاّحون قادمين. لطالما حذّرتني مارتا من سكّان القرية إذ تقول لي إنّهم إذا أمسكوا بي لوحدي، فقد يغرقونني مثل قطّ صغير أجرب أو يقتلونني بواسطة فأس.

شرعتُ في العدو ما أن لاحت أوّل الخيالات البشريّة في دائرة الضّوء. لم يرني أيّ منهم. وقد أخذتُ في الجري بشكل جنونيّ، مُصطدِما بجذوع

أشجارٍ مقطوعة وشجيرات شوكيّة. وقعتُ في النّهاية في فجّ مائيّ. وسمعتُ أصوات النّاس الباهتة وضجيج تحطّم الجدران السّاقطة. ومن ثمَّ نمتُ.

استيقظتُ في الفجر، شبه متجمّد. ثمّت كفنٌ من الضّباب معلّق بين حافّتي الفجّ، مثل شبكة العنكبوت. اندفعتُ متراجعا إلى أعلى التّلّة. ارتفعت خصلاتُ دخان ولهيب متقطّع فوق كومة من اللّهب المتفحّم والرّماد، حيثُ كان ينتصبُ كوخ مارتا.

عمّ السّكونُ المكان. حسبتُ أنّني سألتقي الآن بوالديّ في الفجّ. اعتقدتُ أنّه، بالرّغم من المسافة الشّاسعة التي تفصلهما عنّي، فإنّهما يعرفان دون شكّ كلّ ما قد حدث معي. ألستُ ابنهما؟ فيم يصلح الآباء إذن، إن لم يكن من أجل البقاء مع أبنائهم في وقت الخطر؟

ناديتُ عليهما. فربّما كانا بصدد الاقتراب منّي. ولكن لم يجبني أحد.

كنتُ منهكا، مرتجفا من البرد وجائعا. ليس لديّ أيّ فكرة عمّا يمكن أن أفعله وإلى أين أذهبُ. ولم يصل والداي بعدُ إلى هناك.

ارتجفتُ. وتقيّأتُ. يجب عليّ أن أعثر على أناس. عليّ أن أذهب إلى القرية.

عرجتُ على قدميّ ورجليّ المكدومتين، بحذر، مُتحسِّسا طريقي، فوق عشب الخريف المصفرّ، باتّجاه القرية البعيدة.

2

لم يكن والداي في أيّ مكان. بدأتُ أركضُ عبر الحقل باتّجاه أكواخ الفلاّحين. هناك صليبٌ خشبيّ متعفّن، كان أزرق فيما مضى، ينتصب عند تقاطع الطّرق. تتدلّى من أعلاه صورة قدسيّة، فيها عينان يكادُ المرء لا يراهما، ولكنّهما فيما يبدو ملطّختان بالدّموع، تحدّقان في الحقول الفارغة والتّوهّج الأحمر للشّمس المشرقة. استقرّ طائر رماديّ على إحدى ذراعي الصّليب. وما أن حطّ بصره عليّ حتّى فرد جناحيه. واختفى.

حملت الرّيح رائحة تفحُّم كوخ مارتا فوق الحقول. واندفع من الحطام الذي خفتت حرارته خيطٌ رقيق من الدّخان باتّجاه السّماء الشّتويّة.

دخلتُ القرية متجمّدا ومرعوبا. انتصبت الأكواخ الغائرة نسبيّا في الأرض، بسقوفها السّعفيّة ونوافذها المغلقة، على جانبي الطّريق المليئ بالأوساخ.

لاحظتني الكلابُ المقيّدة إلى الأسيجة. فأخذت تعوي. وتهزّ قيودها. خفتُ أن أتحرّك. فتسمّرتُ في وسط الطّريق، متوقّعا أن ينفلت أحدها في أيّ وقت. خطرت ببالي الفكرةُ المرعبة لكون والديّ ليسا هنا ولن يكونا كذلك على الأرجح. جلستُ على الأرض. وانطلقتُ في البكاء مجدّدا، مناديا أبي وأمّي. وحتّى مربّيتي، ناديتُها.

تحلّق حولي حشدٌ من الرّجال والنّساء، متحدّثين بلهجة لم أكن أفهمها. شعرتُ بالخوف من نظراتهم وحركاتهم المريبة. كثيرون منهم كانوا ممسكين بكلاب تزمجرُ وتهتزُّ مقبلة نحوي.

همزني أحدهم من الخلف بواسطة مجرفة. فقفزتُ جانبا. ووخزني آخرُ بمُسنَّنٍ حادّ. فتنحّيتُ مجدّدا، وأنا أبكي بصوت عال.

أصبح الحشدُ أكثر تحمّسا. أصابني حجرٌ. فسقطتُ، وجهي إزاء الأرض، لا أرغب في معرفة ما سيحدث بعد ذلك. قُصف رأسي بروث بقر جافّ وبطاطا عفنة وأنواء تفّاح وحفنات أوساخ وحجارة صغيرة. غطّيتُ وجهي بيديّ. وصرختُ في الغبار الذي غطّى الطّريق.

انتزعني أحدهم من الأرض. كان فلاّحا طويل القامة، أحمر الشّعر. أمسكني من شعري. وجرّني إليه، بينما يده الأخرى تلوي أذني. قاومتُ يائسا. وقد انفجر الحشدُ ضحكا. دفعني الرّجل. ثمّ ركلني بجزمته الخشبيّة. زمجر جمهور النّاس. واعتصر الرّجال كروشهم، مهتزّين من الضّحك. أمّا الكلابُ، فقد كانت تكافح قيودها مقتربة منّي.

تقدّم فلاّح يمسكُ بكيس من الخيش في يده. وشقّ طريقه وسط الحشد، متّجها إليّ. أمسكني من عنقي. ثمّ مرّر كيسه فوق رأسي. رماني بعد ذلك على الأرض. وحاول أن يرصّ بقيّة جسدي داخل الكيس الأسود النّتن.

نفضتُ قدميّ ويديّ بقوّة. عضضتُ. وخدشتُ. لكنّ ضربة قويّة من خلف رقبتي جعلتني أفقدُ وعيي سريعا.

استيقظتُ متألّما. كنتُ مُكدَّسا في الكيس ومحمولا على كتفيْ شخص مّا، بلغتني حرارة عرقه من خلال القماش الخشن. وكان الكيسُ مربوطا بحبل فوق رأسي. عندما حاولتُ أن أتحرّر منه، وضعني الرّجل أرضا. وقطع أنفاسي بضربات كثيرة، جعلتني أدوخ في مكاني. خفتُ أن أتحرّك. فمكثتُ محنيّا، كما لو أنّني في غيبوبة.

وصلنا إلى مزرعة. فقد شممتُ رائحة الزّبل. وسمعتُ ثغاء ماعز وخوار بقرة. أُلقي بي على أرضيّة كوخ. وأخذ شخص مّا في جلد الكيس بواسطة السّوط. قفزتُ خارجا من الكيس، مُنفجرا عبر عنقه المربوط، كما لو أنّني كنت أحترقُ. وقف الفلاّحُ هناك، والسّوطُ في يده. جلدني به على ساقيّ. فقفزتُ حولي مثل سنجاب، بينما استمرّ هو في جلدي. دخلت مجموعة من النّاس إلى الغرفة: امرأة بمئزر مبقّع ومسحوب إلى أعلى، أطفال صغار كانوا يزحفون مثل الصّراصير من تحت فراش الرّيش ومن خلف الفرن، وعاملان في المزرعة.

التفّوا جميعا حولي. حاول أحدهم أن يلمس شعري. وعندما التفتُّ باتّجاهه، سحب يدهُ بسرعة. تبادلوا فيما بينهم ملاحظات تخصّني. ورغم أنّني لم أفهم أشياء كثيرة ممّا قالوه، إلاّ أنّني سمعتُ كلمة "غجريّ" مرّات عديدة. حاولتُ أن أقول لهم شيئا مّا. لكنّ لغتي وطريقة كلامي لم يدفعاهم إلى شيء آخر سوى القهقهة.

شرع الرّجل الذي أحضرني إلى هناك، في ضرب ساقيّ بعنف مجدّدا. قفزتُ مرارا إلى أعلى، بينما تعالت ضحكات الأطفال والأشخاص الآخرين الذي قدموا معهم.

لاحقا، مُنحتُ قطعة خبز. وسجنتُ في خزانة الحطب. كان جسدي مُحرَّقا من ضربات السّوط. ولم أستطع النّوم مطلقا. والخزانة كانت مظلمة تماما. وسمعتُ صوت الفئران وهي تتحرّك بسرعة بجانبي. عندما لمستْ ساقيّ صرختُ بقوّة. وأفزعتُ الدّجاج النّائم خلف الحائط.

خلال الأيّام القليلة اللاّحقة، قدم الفلاّحون مصحوبين بعائلاتهم إلى الكوخ للتّفرّج فيّ. كان صاحبُ المزرعة يجلدُ ساقيّ المكدومتين حتّى أقفز مثل ضفدع. وكنتُ عاريا تقريبا، باستثناء الكيس الذي أُلبِسته، مثقوبا بشكل مزدوج من الأسفل، من أجل قدميّ. وقع الكيسُ مرّات عديدة. وظللتُ أقفز إلى أعلى وأهبطُ على الأرض. فيهدرُ الرّجالُ ضحكا. وتكبت المرأة ضحكتها، ناظرة إليّ، بينما أحاول تغطية حبلي الصّغير. حدّقتُ في عيون بعضهم مباشرة. فكانوا يحوّلون رؤوسهم سريعا، أو يبصقون ثلاث مرّات على الأرض ويخفضون بصرهم.

ذات يوم، جاءت إلى الكوخ امرأة مُسنّة، يسمّونها أولغا الحكيمة. عاملها صاحبُ المزرعة باحترام واضح. أجالت بصرها في كلّ ركن من جسدي. تفقّدت عينيّ وأسناني. وتحسّست عظامي. ثمّ أمرتني بأن أبول في جرّة. وأخذت تفحصُ بولي.

بعد ذلك، ولفترة طويلة، ظلّت تتأمّل النّدبة الكبيرة فوق بطني، تلك التي خلّفتها عمليّة استئصال الزّائدة الدّوديّة. وفي الآن ذاته، كانت تعرُكُ معدتي بيديها. وما أن أنهت حصّة الفحص تلك، حتّى

أخذت تتساوم زمنا طويلا وبعنف مع الفلاّح، إلى أن ربطت أخيرا حبلا حول عنقي، وقادتني إلى الخارج. لقد تمّ شرائي.

صرتُ أعيشُ في كوخها. وكان عبارة عن ملجأ في الخارج مقسّم إلى غرفتين، مليئتين بأكوام أعشاب مجفّفة وأوراق أشجار وشجيرات وحجارة صغيرة ملوّنة وغريبة الشّكل وضفادع ومناجذ وأوعية من السّحالي والدّيدان الملتوية. وفي وسط الكوخ، كانت هناك مراجل معلّقة فوق نار متّقدة.

شرحتْ لي أولغا كلّ شيء. سوف أهتمّ من الآن فصاعدا بالنّار، أحضرُ رزم الحطب من الغابة. وأنظّف أكشاك الحيوانات. كان الكوخُ مليئا بمساحيق متنوّعة، تعدّها أولغا في مهراس كبير، إذ تطحن مختلف المكوّنات وتخلطها جيّدا. وجب عليّ أن أساعدها في هذا الأمر كذلك.

أخذتني صباحا في جولة لزيارة أكواخ القرية. رسم النّساء والرّجال شارة الصّليب على أجسادهم عندما رأونا. ومع ذلك، فقد ألقوا علينا التّحيّة بأدب. كانت المريضة تنتظر في الدّاخل.

عندما رأينا امرأة تتأوّه، وتتعتصر بطنها، أمرتني أولغا أن أدلّك بطنها الدّافئ والرّطب، وأن أحدّق مباشرة في عينيها، دون توقّف، بينما كانت هي تتمتمُ بعض الكلمات وترسم علامات عديدة، في الهواء، فوق رؤوسنا. شهدنا مرّة أخرى، طفلا ذا ساق متعفّنة، مغطّاة ببشرة رماديّة مجعّدة، ينزّ منها قيحٌ أصفر ممزوج بالدّم. كانت رائحة العفن التي تخرج من ساقه قويّة جدّا إلى درجة أنّ أولغا نفسها اضطرّت لفتح الباب كلّ بضع دقائق، لتفسح المجال لدخول تيّار من الهواء النّقيّ.

قضّيتُ اليوم كلّه محدّقا في ساقه المصابة بالغرغرينا، بينما يجهشُ الفتى بالبكاء تارة، وتارة أخرى يستسلم للنّوم. أمّا عائلته المذعورة، فقد مكثت في الخارج، تصلّي بصوت مرتفع. لفتت أولغا انتباه الطّفل فجأة. ثمّ

أعملت في ساقه قضيبا أحمر ساخنا، كانت قد تركته في النّار ليجهز. وقد أحرق القضيبُ الجرح برمّته. فانتفض الفتى في كلّ الجهات، وهو يصرخُ بوحشيّة. ثمّ فقد وعيه. واستعادهُ لاحقا. امتلأت الغرفة برائحة اللّحم المتفحّم. وكان الجرحُ يئزُّ، كما لو أنّ قطعا من لحم خنزير مقدّد تُشوى في مقلاة. وبعد أن احترق الجرح تماما، غطّته أولغا بشرائح من الخبز الرّطب المعجون بفطريّات العفن وخيوط عنكبوت طازجة.

تملكُ أولغا علاجا لكلّ داء تقريبا. وقد كان إعجابي بها ينمو شيئا فشيئا. يأتي إليها النّاسُ بعدد هائل من الشّكاوى. وباستطاعتها دائما أن تساعدهم. عندما يتألّمُ رجل مّا بسبب أذنيه، تغسلهما أولغا بزيت الكراوية. وتُدخِل في كلّ أذن قطعة من الكتّان الملفوف في شكل بوق، والمنقوع في الشّمع السّاخن. ثمّ تضرمُ النّار في الكتّان من الخارج. يزعقُ المريضُ المقيَّد إلى طاولة من شدّة الألم، بينما النّار تحرق ما تبقّى من القماش داخل أذنه. بعد ذلك، تتخلّصُ على الفور من البقايا – نشارة الخشب كما كانت تسمّيها– من داخل الأذن. ثمّ تطلي المنطقة المحترقة بمرهم، صُنع من عصير بصل معجون وصفراء حويصلة أخذت من ماعز أو أرنب مع قليل من شراب الفودكا الخام.

كان بإمكانها أيضا أن تستأصل الدّمامل والأورام والأكياس الدّهنيّة، وتقتلع الأسنان المتآكلة. تحتفظُ بالدّمامل المستأصَلة في محلول الخلّ حتّى تتشرّبه تماما. ثمّ تستخدمها فيما بعد أدويةً لمرضاها. تستقطرُ بعناية القيح الذي تفرزه الجراحُ، في كؤوس من نوع خاصّ. وتتركه ليتخمّر عدّة أيّام. أمّا بالنّسبة إلى الأسنان المُقتلَعة، فقد كنتُ أطحنها بنفسي في القِدْر الكبير، قبل أن يُجفّف مسحوقها على قطع من اللّحاء فوق الفرن.

أحيانا، يهرعُ في ظلام اللّيل فلاّحٌ خائف طلبا لأولغا، التي تغادر كوخها من أجل أن تشهد مخاض ولادةٍ، وهي تغطّي جسدها بلحاف كبير وترتعدُ من البرد وقلّة النّوم. وعندما كانت تُطلبُ في إحدى القُرى المجاورة، وتغيب لعدّة أيّام، كنتُ أنا من يعتني بالكوخ. أطعمُ الحيوانات. وأبقي النّار مشتعلة.

ورغم أنّ أولغا تتكلّمُ لهجة غريبة، إلاّ أنّنا توصّلنا إلى أن يفهم أحدنا الآخر بشكل جيّد. في الشّتاء، عندما تشتدُّ عاصفةٌ وتُؤسَرُ القرية في طوق من الثّلج الوعر، نجلسُ معا في الكوخ الدّافئ. فتحدّثني أولغا عن كلّ أبناء الرّبّ وجميع الأرواح الشّيطانيّة.

كانت تسمّيني الأسود. ومنها، علمتُ للمرّة الأولى أنّني كنتُ ممسوسا من قبل روح شرّيرة، تجثُم في داخلي، مثل خُلد في جحر عميق، دون أن أعي ذلك حتّى. شخصٌ داكنُ اللّون مثلي وممسوس بروح شرّيرة، يمكنُ التّعرّف إليه بواسطة عينيه السّوداوين المسحورتين، اللّتين لا ترمشان حين تحدّقان في عينين فاتحتين لامعتين. ولهذا السّبب قالت أولغا إنّه كان بإمكاني أن أنظر إلى أشخاص آخرين، فألقي فيهم سحرا خبيثا دون أعلم ذلك.

شرحتْ لي بعد ذلك أنّ العيون المسحورة لا تستطيع أن تنقل السّحر فحسبُ، وإنّما أيضا أن تزيله. كان عليّ أن أنتبه جيّدا لحظة أحدّقُ في النّاس أو الحيوانات أو حتّى الحبوب، حتّى أحافظ على ذهني صافيا من أيّ شيء آخر غير الدّاء الذي كنتُ أساعدها على إزالته منهم. لأنّه عندما تنظر العيون المسحورة إلى طفل سليم، سيشرع على الفور في الهزال. وعندما تنظر إلى عجل، سيقع ميّتا بسبب داء مباغت، وإلى العشب، سيتعفّنُ التّبنُ بعد الحصاد.

هذه الرّوح الشّريرة التي تسكنني تجذبُ بطبيعتها الخاصّة كائنات غامضة أخرى. فتحوم الأطيافُ من حولي. والطّيفُ بطبيعته ساكنٌ، متحفّظ وقليلا ما يتوصّل المرء إلى رؤيته. ومع ذلك فهو مثابر: يمشي خلف النّاس في الحقول والغابات، يختلسُ النّظر إلى الأكواخ، ويمكنه أن يتحوّل إلى قطّ خبيث أو كلب مسعور، يئنُّ كلّما تملّكه الغضبُ. أمّا في اللّيل، فهو يتحوّلُ إلى قطران ساخن.

تنجذبُ الأشباحُ إلى الرّوح الشّرّيرة. وهي أشخاصٌ ماتوا منذ زمن بعيد. وقُضي عليهم باللّعنة الأبديّة. لا يعودون إلى الحياة إلاّ عند اكتمال القمر. يملكون قدرات خارقة. ولهم عيونٌ ملتفتةٌ دائما، وفي كآبة، نحو الشّرق.

مصّاصو الدّماء، وهم ربّما الأذى الأكبر من بين هذه المخاطر غير الملموسة، لأنّهم يتلبّسون عادة هيأة بشريّة، هم أيضا منجذبون إلى الشّخص الممسوس. إنّهم أشخاص كانوا قد غرقوا قبل أن يُعمَّدوا أو هم أولئك الذين هجرتهم أمّهاتهم. يكبرون حتّى سنّ السّابعة في الماء أو في الغابات. ليستعيدوا بعد ذلك شكلهم البشريّ، متحوّلين إلى متشرّدين يحاولون بلا هوادة النّفاذ إلى الكنائس الكاثولوكيّة أو الشّرقيّة، كلّما أمكنهم ذلك. وما أن يعشّشوا هناك حتّى يقيموا ضجّة لا تنتهي حول المذابح. يُلقون التّراب بخبث على صور القدّيسين. يعضّون. ويكسرون أو يحطّمون الأشياء المقدّسة. وإذا ما كان الأمر ممكنا، فإنّهم يمتصّون الدّم من أجساد الرّجال النّائمين.

كانت أولغا تشكّ في كوني مصّاص دماء أنا أيضا. ومن حين إلى آخر، تصرّح لي بذلك. ومن أجل أن تقيّد شهوات روحي الشّرّيرة

وتمنع انمساخها إلى شبح أو طيف، تعدّ لي كلّ صباح إكسيرا مرّا، يجب عليّ شربه مع قطعة من الفحم المدهون بالثّوم. النّاس الآخرون يخافون منّي كذلك. وكلّما حاولتُ أن أعبر القرية بمفردي، يلتفت هؤلاء جانبا. ويرسمون شارة الصّليب على أجسادهم. بالإضافة إلى ذلك، تفرّ النّساء الحواملُ منّي مذعورات. أمّا أشدّاء الفلاّحين، فقد كانوا يطلقون عليّ الكلاب. ولو لم أتعلّم الهروب بسرعة والمكوث دائما على مقربة من كوخ أولغا، لما كنتُ قد عدتُ حيّا من هذه النزهات الكثيرة.

كنتُ أمكثُ عادة في الكوخ. أمنع قطّا أبرص من قتل دجاجة سجينة، سوداء، نادرة جدّا وذات قيمة كبرى لدى أولغا. أحدّقُ كذلك في عيون الضّفادع الخاوية، وهي تقفزُ في وعاء عال. أحتفظ بالنّار لاهبة في الموقد. أحرّكُ حساء الجعة. أقشّرُ البطاطا الفاسدة. وأجمع في كأس، وبعناية، فطر العفن المخضرّ الذي تضعه أولغا على الجروح والكدمات.

تحظى أولغا باحترام كبير في القرية. وعندما أكون بصحبتها، لا أخشى أحدا. كثيرا ما كانت تُسألُ أن ترشّ شيئا مّا على عيون الماشية، لتحميها من أيّ تعويذة خبيثة، قبل أن تُحمل إلى السّوق. تعلّم الفلاّحين الطّريقة التي ينبغي وفقها أن يبصقوا ثلاث مرّات عند شرائهم لخنزير، وكيف يمكنهم أن يطعموا بقرة صغيرة بخبز معدّ خصّيصا لها، يحتوي على عشبة مطهّرة. وذلك قبل أن تتمّ مزاوجتها بثور. ما من أحد في القرية يمكنه أن يشتري حصانا أو بقرة قبل أن تختم أولغا عليه، قائلة إنّ الحيوان سيظلّ سالما. تسكبُ قليلا من الماء فوقه. وبعد أن ترى كيف ينتفضُ بجسده تطلق حكمها الفصل الذي يستندُ إليه السّعرُ وغالبا، عمليّة البيع نفسها.

اقترب حلول الرّبيع. وكان الجليد يتفكّكُ في النّهر. وأشعّةُ الشّمس الواطئة تخترق الالتواءات المنزلقة ودوّامات الماء المندفع. تحومُ اليعاسيبُ

الزّرقاء فوق التيّار، مصارعة الاندفاعات المفاجئة للرّيح الباردة المفعمة بالرّطوبة. كان هبوب الرّيح ودوّاماتها يمسكان بأشباح الرّطوبة المرتفعة من سطح البحيرة المدْفَئ بالشّمس، قبل أن تُجرّ مثل خصلات الصّوف. وتُقحَم في تيّار الهواء الهائج.

ومع ذلك، عندما حلّ أخيرا الطّقسُ الدّافئ المنتظَر بلهفة، جلب معه الطّاعون إلى القرية. كان النّاسُ المصابون به يتلوّون ألما مثل ديدان أرض مثبّتة في مكانها. يهتزّون مرتجفين بشكل مروّع. ثمّ يموتون قبل أن يستعيدوا وعيهم من جديد. أسارعُ أنا وأولغا متنقّلين من كوخ إلى آخر. أحدّقُ في عيون المرضى مُحاولا أن أدفع المرض خارجهم. ولكن، كان كلّ ذلك دون جدوى. فقد استفحل المرض بشكل عنيف جدّا.

خلف النّوافذ المغلقة بإحكام، وداخل الأكواخ المظلمة، يئنُّ المحتضرون والمعذّبون. ويصرخون بشدّة. وتسندُ النّساءُ أجسادَ أبنائهنّ الرّضّعِ الصّغيرةَ والمقمّطةَ، والتي تنحسرُ الحياة منها سريعا، إزاء صدورهنّ. ويغطّي الرّجالُ، في يأسٍ، نساءهم اللّواتي دمّرتهنّ الحمّى بحواشي الرّيش وجلود الغنم. أمّا الأطفالُ، فقد كانوا يحدّقون باكين في الوجوه المزرقّة لآبائهم وأمّهاتهم الميّتين.

بعد ذلك، استمرّ الطّاعون.

كان الفلاّحون يدركون عتبات أكواخهم. فيرفعون بصرهم عن الغبار الأرضيّ، باحثين عن الرّبّ. إذ وحدهُ من يستطيعُ أن يخفّف من حزنهم المرير. وحدهُ من يمكنه أن ينزّل رحمةَ رُقاد هادئ على هذه الأجساد المعذّبة. وحدهُ من يستطيعُ أن يحوّل لغز الوباء الفظيع إلى

صحّة لا تنتهي. ووحدهُ يستطيع أن يسكّن ألم أمّ مفجوعةٍ في طفلها الفقيد. وحده...

ولكنّ الرّبّ، بحكمته التي لا تدرك، اكتفى بالانتظار. اضطرمت النّيران حول الأكواخ. وارتفع الدّخانُ في المسالك والحدائق والباحات. كان بالإمكان سماعُ وقع ضربات الفؤوس وسقوط الأشجار المتداعية من الغابات المجاورة. إذ كان رجال القرية يقطعون الحطب اللاّزم لإبقاء النّيران لاهبة. سمعتُ الأصوات الحادّة المتموّجة لنصال الفؤوس، وهي تهوي على الجذوع عبر الهواء السّاكن. كانت تخفتُ وتصير باهتة، بشكل غريب، كلّما بلغت المروجَ والقرية. ومثلما يخبّئ الضّبابُ ويُخفِتُ شعلةَ شمعةٍ، كان الهواءُ السّاكنُ الكئيبُ والمشحونُ بالوباء، يمتصّ هذه الأصوات ويقتنصها في شبكة مسمومة.

ذات مساء، أخذ وجهي يحترقُ. وكنتُ أرتعشُ مختضّا بشكل عنيف، لا أستطيع التّحكّم به. نظرتْ أولغا لوهلة في عينيّ. ووضعت يدها الباردة على جبيني. ثمّ أخذتني سريعا، ودون أيّ كلمة، إلى حقل بعيدٍ. هناك، حفرت حفرة عميقة. نزعت عنّي ملابسي. وأمرتني أن أهبط فيها.

بينما كنتُ أقفُ في الأسفل، مرتعشا بسبب الحمّى والبرد، دفعت أولغا التّراب داخل الحفرة إلى أن صرتُ مدفونا حتّى الرّقبة. بعد ذلك، داست التّراب من حولي بقدميها. وضربته بواسطة الرّفش حتّى جعلت السّطح أملس ناعما. وإذ تثبّتت أنّه لا وجود لمملكة نمل في الجوار، أشعلت ثلاث حرائق داخنة من الخثّ.[1]

(1) الخثّ: مادّة عضويّة تتكوّنُ أساسا من نباتات متفكّكة توجد في الأراضي الفلاحيّة والمناخ المعتدل. تستخدم من قبل الفلاّحين في مجالات كثيرة من بين غيرها إشعال النّار. (المترجم)

الآن، وقد صرتُ مزروعا في الأرض الرّطبة، خفتت حرارة جسدي كلّيّا، خلال لحظات قليلة، مثل جذر عشبة صغيرة بصدد الذّبول. فقدتُ الوعي تماما. وصرتُ جزءا من الحقل العظيم مثل رأس كرنب مهجور.

لم تنسني أولغا. ظلّت تُحضر لي، مرّات عديدة في اليوم، مشروبات منعشة. وتسكبها في فمي. وبدا لي أنّها تسيلُ مباشرة من خلال جسدي إلى الأرض. غلّف عينيّ دخانُ الحرائق الذي أثارتهُ أولغا بواسطة طحالب طازجة. ولسع حنجرتي. كلّما هبّت الرّيح وحرّكت الدّخان بعيدا، بدا لي العالمُ من سطح الأرض شبيها بسجّاد خشن. لاحت النّباتات الصّغيرةُ النّامية في الأنحاء، طويلةً كما لو أنّها بطول الأشجار العالية. أمّا أولغا، فقد كانت تعكسُ في المنظر الطّبيعيّ، حين تقتربُ، ظلاّ عملاقا خارقا.

بعد أن أطعمتني للمرّة الأخيرة عند الغسق، ألقت قطعا من الخثّ الرّطب في ألسنة النّيران. وذهبت إلى كوخها، لتنام. بقيتُ في الحقل وحيدا، مُجذَّرا في الأرض، التي بدت وكأنّها تسحبني إلى أسفل، أكثر فأكثر.

كانت النّيرانُ تشتعل ببطء، والشّررُ يتقافز مثل سروج اللّيل[2] في ذلك السّواد اللاّنهائيّ. شعرتُ كما لو أنّني نبتةٌ تجهدُ نفسها لتعلو في اتّجاه الشّمس، غير قادرة على أن تستقيم بفروعها، مقيّدة بواسطة الأرض. شعرتُ أيضا أنّ رأسي قد اكتسب حياة تخصّه، مُتدحرجا

(2) سراج اللّيل: وتسمّى أيضا الدّودة المتوهّجة، وفي العربيّة كذلك الحُباحب. دودة تملك في ذنبها مادّة مضيئة. (المترجم)

أسرع فأسرع، محصّلا سرعة مدوّخة، إلى أن يضرب أخيرا قرص الشّمس الذي كان يدفئه بلطف أثناء النّهار.

أحيانا وأنا أتحسّسُ الرّيح على جبيني، أشعرُ بالخدر من فرط الرّعب. يشبّهُ إليّ حينئذ أنّ جيوشا من النّمل والصّراصير ينادي بعضها على البعض الآخر، قبل أن تدبّ سريعا نحو رأسي، إلى مكان مّا أسفل قمّة جمجمتي، حيث ستبني أعشاشا جديدة. هناك، ستتكاثر. وتلتهمُ أفكاري، الفكرة بعد الأخرى، إلى أن أصبح فارغا مثل هيكل يقطين، كُشِط داخلُه تماما.

أيقظني الضّجيجُ. فتحتُ عينيّ، غير متيقّن من حقيقة ما يحيط بي. كنتُ قد اتّحدتُ بالأرض. لكنّ الأفكار تضجُّ في رأسي الثّقيل. كان لونُ العالم يميلُ إلى الرّماد. انطفأتْ النّيران. أحسستُ بتيّار النّدى باردا على شفتيّ. وقد استقرّت قطراتٌ منه على وجهي وشعري.

عادت الأصواتُ من جديد. وتحلّق برأسي سرب من الغربان. حطّ واحدٌ منها على مقربة منّي، مصفّقا بجناحيه الكبيرين. واقترب من رأسي ببطء، بينما حطّ الآخرون على الأرض.

شاهدتُ مرعوبا أذيالها السّوداء السّاطعة المغطّاة بالرّيش وعيونها الجاحظة. كانت تحومُ حولي، أقرب فأقرب، وهي تنقر برؤوسها نحوي، غير متيقّنة إن كنتُ ميّتا أم حيّا.

لم أنتظر ما قد يحدثُ لاحقا. وشرعتُ في الصّراخ. فجفلت الغربانُ. وتراجعت إلى الخلف. ارتفع العديدُ منها بعض الأقدام في الهواء. ولكنّها لمست الأرض من جديد، غير بعيد عنّي. وبعد ذلك، حدّقت فيّ الغربانُ بريبة. وأخذت تمشي مشيتها الدّائريّة حولي.

صرختُ مجدّدا. ولكنّها لم تجفل هذه المرّة. بل شرعت، بجرأة أكبر، تتقدّم نحوي أكثر من قبلُ. انتفض قلبي بعنف. ولم أعرف ما الذي يجدر بي فعله. صرختُ. ولكنْ، لم تُبْدِ الطّيور الآن أيّ خوف. كانت تبعدُ قدمين فقط عنّي. ارتسمت أشكالها أكبر شيئا فشيئا في عينيّ. وازدات وحشيّةُ مناقيرها بالنّسبة إليّ. ثمّ أصبحت مخالبها الممتدّةُ المعقوفةُ شبيهة بأمشاط عملاقة.

توقّف أحد الغربان أمامي، على بعد إنشات قليلة من أنفي. صرختُ في وجهه تماما. لكنّ الغراب اكتفى برعشة خفيفة، قبل أن يفتح منقارهُ. وقبل أن أتمكّن من الصّياح مجدّدا، نقر رأسي. وبدت شعرات كثيرة منهُ في منقاره. ثمّ ضرب الطّائرُ مجدّدا، مُقتلعا نُتفة أخرى.

أدرتُ رأسي في كلّ الجهات، مُحاولا أن أفكّ التّراب عن عنقي. ولكنّني اكتفيت بإثارة فضول الطّيور التي أحاطتني كلّها. ونقرتني بقدر ما استطاعت ذلك. ناديتُ بصوت عال. لكنّ صوتي كان أضعف من أن يرتفع فوق الأرض. بل إنّه تراجع بسرعة نحو التّراب، دون أن يدرك الكوخ الذي ترتاح فيه أولغا.

لعبت الطّيور معي بحرّيّة. وبقدر ما كنتُ أدير رأسي هنا وهناك بشراسة أكبر، بقدر ما ازدادت هي حماسة وجرأة. يبدو أنّها كانت تتجنّبُ وجهي. وقامت في المقابل بالهجوم على قفاي.

تقلّصت قواي. وبدا لي تحريكُ رأسي في كلّ مرّة شبيها بنقل كيس حبوب ضخم من مكان إلى آخر. جننتُ. وكنتُ أرى كلّ شيء كما لو أنّني أنظر عبر ضباب كريه.

أسلمتُ أمري. صرتُ لحظتها طائرا أنا الآخر. فقد كنتُ أحاولُ أن أحرّر جناحيّ المُبرَدَيْن من الأرض. مدّدتُ أعضائي. والتحقتُ بسرب الغربان. وإذ حملتني فجأةً هبّةُ ريح منعشة، حلّقتُ مباشرة نحو شعاع شمس مشدود في الأفق، مثل وتر يسحبه شيء مّا. وقد حاكى رفاقي المُجنِّحونَ نعيقي المبتهج.

عثرت عليّ أولغا وسط حشد الغربان المزدحمة حولي. كنتُ متجمّدا تقريبا. ورأسي مليئة بجروح عميقة بسبب الطّيور. شرعت تحفر على الفور. وأخرجتني.

بعد أيّام عديدة، استعدتُ عافيتي. قالت أولغا إنّ الأرض الباردة قد طردت المرض من جسدي. وقالت أيضا إنّ الوباء قد التقطهُ جمهور من الأشباح التي تحوّلت إلى غربان، تتذوّقُ دمي لتتأكّد أنّني واحد منها. كان هذا هو السّبب الوحيدُ، حسب رأيها، لكونها لم تفقأ عينيّ.

مرّت أسابيع. وخفت الطّاعون في القرية. ونما العشبُ الطّريُّ فوق القبور الكثيرة الجديدة، عشبٌ لم يكن بإمكان المرء أن يلمسه، لأنّه كان يحتوي دون شكّ على السّمّ القادم من ضحايا الطّاعون.

ذات صباح، دُعيَتْ أولغا إلى ضفّة النّهر. كان الفلاّحون يسحبون من الماء سمكة قرموط هائلة الحجم بسوالف طويلة تنبتُ صلبةً من أنفها، سمكة ضخمة بمنظر قويّ، واحدة من أضخم الأسماك التي ظهرت في المنطقة. أثناء الإمساك بها، قطعت الشّبكةُ وريدا لأحد الصّيّادين. وبينما كانت أولغا تلفُّ عاصبةً حول ذراعه لتوقف الدّم النّازف، نزع الآخرون أحشاء السّمكة واستخرجوا منها مثانة الهواء[3] التي لم تتلف بعدُ.

(3) المثانة الهوائيّة: تكوين مليء بالهواء في العديد من أنواع السّمك يعمل على إبقاء السّمك طافيا أو على مساعدته على التّنفّس. (المترجم)

فجأة، وفي لحظة كنتُ فيها مسترخيا تماما ومطمئنّا، رفعني رجلٌ سمينٌ عاليا في الهواء. وصرخ قائلا شيئا مّا للآخرين. صفّق الحشدُ. وانتقلتُ سريعا من يد إلى أخرى. وقبل أن أدرك ما كانوا بصدد فعله حقّا، رُميت المثانة الكبيرة في الماء. وأُلقي بي فوقها. غطست المثانة قليلا في الماء. فدفعها شخص مّا بقدمه. أخذتُ أطفو بعيدا عن الضّفّة، مُحتضِنا الكرة العائمةَ بساقيّ ويديّ، بشكل محموم، غاطسا من حين إلى آخر في النّهر البارد البنّيّ، صارخا ومتوسّلا الرّحمة.

لكنّني كنتُ أنجرفُ أبعد فأبعد. جرى النّاسُ على امتداد ضفّة النّهر مُلوّحين بأيديهم. بعضهم قذفني بحجارة كانت تقع على مقربة منّي. وكاد أحدهم يصيب المثانة. أمّا التّيّارُ، فقد حملني سريعا نحو منتصف النّهر. وبدت كلا الضّفّتين لا تدركان. ثمّ اختفى الحشدُ خلف تلّة.

تموّجَ على سطح المياه نسيمٌ رطبٌ، لم أشعر بمثله أبدا فوق اليابسة. انزلقتُ بسلاسة مع التّيّار. ولأكثر من مرّة، كادت المثانة تغرقُ كلّيّا تحت الأمواج الصّغيرة. ولكنّها كانت تهتزُّ مجدّدا، صاعدة إلى أعلى، مُبحِرةً في بطء وجلال. ثمّ فجأةً، سُحبتُ إلى دوّامة. وأخذت المثانة تلتفُّ وتطوف مرّات ومرّات، مُبتعدةً عن نفس المكان وعائدة إليه في كلّ مرّة.

حاولتُ أن أؤرجحها من أعلى إلى أسفل، حتّى أخرجها بحركات جسدي تلك من الدّائرة. وعذّبني هاجسُ أن أقضّي اللّيلة كلّها بهذا الشّكل. كنتُ أعرفُ جيّدا أنّه في حال انفجرت المثانةُ، سوف أغرق على الفور. إذ لم أكن أجيد السّباحة.

كانت الشّمسُ غاربةً ببطء. وفي كلّ مرّة تلتفُّ فيها المثانةُ، تشعُّ الشّمسُ مباشرة في عينيّ. وترقصُ انعكاساتها السّاطعةُ على السّطح المتلألئ. ازداد البردُ. وأصبحت الرّيح هائجة أكثر من قبلُ. وحين هبّت مجدّدا، دفعت المثانةَ. وانزلقت بها خارج الدّوّامة.

تفصلني أميال عن قرية أولغا. وحملني التّيّارُ باتّجاه شاطئ يُعتمُهُ ظلّ يتعاظمُ. بدأتُ أتبيّنُ الأهوار وحِزَمَ الأراجيح العالية والمتموّجة والأعشاش المخفيّة للبطّ النّائم. تنقّلت المثانة ببطئ بين حِزَم الأعشاب المتفرّقة. وحام ذبابُ الماء بتوتّر حول كلّ جوانبي. أرسلتْ أكوابُ الزّنابق الصّفراءُ حفيفها. وانقذفَ ضفدعٌ خائفٌ من خندق. فجأة، ثقبت قصبةٌ المثانة. فوجدتُني واقفا على القاع الإسفنجيّ.

كان ساكنا تماما. وأمكنني أن أسمع أصواتا غامضة، بشريّة أو حيوانيّة ربّما، في الأيكات والمستنقعات الرّطبة. وقع جسدي رهينة التّشنّج والقشعريرة. أصغيتُ بانتباه. ولكنّ السّكون كان يعمّ المكان.

3

شعرتُ بالرّعب إذْ وجدتُني وحيدا تماما. لكنّني تذكّرتُ الأمرين اللاّزمين، حسب أولغا، للبقاء حيّا دون مساعدة بشريّة. كان الأوّل معرفةً بالنّباتات والحيوانات وألفةً بالموادّ السّامّة والأعشاب الطّبّيّة، والثّاني امتلاكَ النّار أو مذنّبا خاصّا[4]. لقد كان من الأصعب الحصول على تلك المعرفة التي تقتضي قدرا كبيرا من التّجربة. أمّا بالنّسبة إلى النّار، فالأمر يعتمد ببساطة على ربع علبة مصبّرات، مفتوحة من جهة، بثقوب مسمار كثيرة على الجوانب. ثمّ تُلفّ حول العلبة من الأعلى ثلاثةُ أقدام من الحبل، تشبهُ كفّا مضمومة تحيط بها، حتّى يتمّكن المرء من أرجحتها مثلما يفعل راعي البقر أو مثل مبخرة في كنيسة.

موقدٌ صغيرٌ محمولٌ كهذا يمكنه أن يصلح مصدرا للحرارة ومطبخا مصغّرا في نفس الوقت. يزوّدُه المرء بأيّ نوع من الوقود المتوفّر، مُحتفظا دائما ببعض شرارات النّار في الأسفل. وإذ تتأرجح العلبة بشكل نشيط، يُضَخُّ الهواء عبر الفتحات مثلما يفعل الحدّادُ مع كيره، بينما تحافظ القوّة المندفعة بعيدا عن المركز على الوقود في مكانه.

---

(4) كنية عن مشعل مصنوع يدويّا. (المترجم)

سوف يسمح الاختيارُ الموفّق لطبيعة الوقود مع حركة التّأرجح الملائمة بإنتاج الحرارة المكيَّفة لغايات كثيرة، بينما يقي الإحماء المتواصل للنّار الجمرةَ من الخروج. فمثلا يقتضي طبخ البطاطا والفجل والسّمك نارا خافتة من الخثّ وأوراق الشّجر الرّطبة. أمّا شواءُ طير قُتل حديثا فيحتاجُ إلى نار لاهبة من الأغصان والقشّ. بالنّسبة إلى بيض الطّيور الملتقط من الأعشاش، فإنّ أفضل طريقة لطبخه تكونُ على نار من سويقات البطاطا.

لكي تظلّ النّارُ مشتعلة أثناء اللّيل، ينبغي أن يغلّف المذنّبُ بشكل جيّد بواسطة الطّحالب الرّطبة المُجمَّعة من قواعد الأشجار العالية. تحترقُ الطّحالبُ بوهجٍ خافتٍ، مُطلِقةً دخانا يطرد النّعابين والحشرات. وفي حالات الخطر، يمكنها أن تدرك الحرارة القصوى بهزّات قليلة. في الأيّام التي يسقط فيها الثّلجُ رطبا، يجبُ أن يعاد حشوُ المذنّب باستمرار بالخشب الصّمغيّ أو اللّحاء، والإكثار من أرجحته. أمّا في الأيّام العاصفة أو تلك الحارّة الجافّة، فهو لا يحتاجُ الكثير من التّأرجح. كما أنّ اشتعاله يمكَنُ أن يُخفَّتَ بإضافة العشب الرّطب أو رشّ رذاذ الماء عليه.

يُمثّلُ المذنّبُ كذلك حماية ضروريّة من الكلاب والنّاس. فحتّى الكلابُ الأكثر توحّشا تتوقّفُ على الفور عندما ترى شيئا يُؤرجحُ بعنفٍ، مُفرقعا شررا يهدّدُ بإشعال النّار في فروها. ولا يرغب حتّى أكثر الرّجال جرأة، في المجازفة بفقدان بصره أو حرق وجهه. إنّ رجلا يحمل مذنّبا محشوّا يصيرُ حصنا، لا يمكن مهاجمته بأمان إلاّ بواسطة عمود طويل أو عبر حجارة مقذوفة من بعيد.

ولهذا السّبب يعتبر انطفاء المذنّب أمرا خطيرا إلى أبعد حدّ. ويمكنه أن يحدث بسبب الذّهول عن الاعتناء به أو النّوم المفرط أو هطول مفاجئ

للمطر. كانت أعوادُ الثّقاب شحيحة جدّا في تلك المنطقة. وقد تعوّد أولئك الذين يملكونها أن يقسموا كلّ عود ثقاب إلى شطرين من باب الاقتصاد والحيطة.

ومن ثمّ كانت النّارُ تُحفظ بعناية في مواقد المطابخ أو صناديق النّار في الأفران. وقبل أن تنسحب النّساءُ ليلا، كنّ يستجمعن الرّماد حتّى يتأكّدن من أنّ الجمرات الصّغيرة ستظلّ تتوهّجُ حتّى الصّباح. وفي الفجر، يرسمن شارة الصّليب على أجسادهنّ بإجلال قبل أن ينفخن مُعيدات للنّار حياتها من جديد. لقد اعتدن أن يقلن إنّ النّار ليست صديقا طبيعيّا للإنسان. ولذلك، يجدر بالمرء أن يلاطفها. وكان من المعتقَد عندهنّ أنّ مشاركة النّار، واستعارتها خاصّة، لا يمكن إلاّ أن تجلب المصائب. ففي النّهاية، قد يضطرُّ أولئك الذين يستعيرون النّار على هذه الأرض إلى أن يعيدوها لاحقا في الجحيم. كما أنّ حمل النّار خارج البيت يمكنه أن يصيب الأبقار بالجفاف أو يجعلها عاقرة. بالإضافة إلى ذلك، يمكنُ للنّار التي تُحمل إلى الخارج أن تتسبّب في عواقب كارثيّة في حالات الولادة.

ومثلما النّارُ أساسيّة للمذنّب، فإنّ المذنّب أيضا أساسيّ للحياة. لقد كان ضروريّا من أجل الاقتراب من المراكز البشريّة التي كانت محروسة دائما بقطعان من الكلاب الوحشيّة. أمّا خلال الشّتاء، فقد يتسبّبُ مذنّبٌ منطفئ في عضّة برد[5] ونقص في الطّعام المطبوخ كذلك.

---

(5) مرضٌ يصيبُ البشرة بسبب البرد الشّديد. (المترجم)

اعتاد النّاسُ أن يحملوا أكياسا صغيرة على ظهورهم أو أحزمتهم ليجمعوا الوقود لمذنّباتهم. وأثناء النّهار، يشوي فيها الفلاّحون العاملون في الحقول الخضرَ والطّيور والسّمك. في اللّيل، يشرعُ الرّجال والأطفال العائدون إلى بيوتهم في أرجحتها بكلّ قواهم حتّى تطير باتّجاه السّماء، مشتعلة بقوّة، مثل أقراص حمراء محلّقة. تُشكّلُ أقواسا كبيرة، تعقبُ أذيالُها الملتهبةُ مسارها. ولهذا السّبب، كانت قد اكتسبت تسميتها تلك. إذ كانت تشبهُ حقّا المذنّبات في السّماء بأذيالها المشتعلة، التي كان ظهورها، حسب أولغا، دليلا على الحرب والطّاعون والموت.

كان من الصّعب الحصولُ على علبة لتحويلها إلى مذنّب. فقد كانت هذه العلبُ موجودة فقط على امتداد مسارات السّكك الحديديّة المخصّصة للنّقل العسكريّ. ويمنع المزارعون المحلّيون جميع الغرباء من جمعها، مشترطين سعرا باهضا لبيع العلب التي يعثرون عليها بأنفسهم. بل إنّ الجماعات في كلّ جهة من جهتي السّكك يتقاتلون من أجل هذه العلب. يرسلون كلّ يوم فِرَقًا من الرّجال والفتيان مجهّزين بأكياس لحشوها بالعلب التي يتمكّنون من العثور عليها، ومسلّحين بالفؤوس كي يصدّوا أيّ منافس لهم.

كنتُ قد تحصّلتُ على مذنّبي الأوّل من أولغا، التي تسلّمتهُ بدورها أجرا على علاجها لمريض. واهتممتُ به بعناية فائقة جدّا. إذ كنتُ أدقُّ ثقوبهُ التي توشكُ على أن تتّسع أكثر ممّا ينبغي. أسطّحُ الحدبات فيه. وألمّعُ معدنه. وإذ كنتُ متوجّسا من أن تُسرق منّي ملكيّتي الثّمينةُ الوحيدةُ، طوّقتُ معصمي بشيء من السّلك الموصول بالمقبض. ومن ثمَّ، لم أنفصل أبدا عن مذنّبي. وكانت النّارُ المضطرمةُ النّشيطةُ تملؤني بإحساس بالأمان

والفخر. لم أغفل أبدا أيّ فرصة لملئ كيسي بالنّوع المناسب من الوقود. وكانت أولغا ترسلني مرارا إلى الغابة بحثا عن بعض النّباتات والأعشاب المداوية. لكنّني كنتُ أشعر بأمان تامّ، طالما كنتُ أحملُ مذنّبي معي.

ولكنّ أولغا الآن بعيدة جدّا عنّي. كما أنّني أفتقرُ إلى مذنّبي. أرتجفُ من البرد والخوف. وأقدامي تنزفُ بسبب وخزات قصب المياه الحادّة. نفضتُ عن أسفل قدميّ وفخذيّ العَلَق الذي كان يتنفخُ بوضوح كلّما امتصّ دمي. ظلالٌ طويلةٌ معقوفةٌ كانت تسقط فوق النّهر، بينما تتسلّلُ أصواتٌ مكبوتةٌ على امتداد الضّفاف المعتمة. وفي طقطقة أغصان الزّان السّميكة وحفيف الصّفصاف وهو يسحبُ أوراقه في الماء، سمعتُ تمتمات الكائنات الغامضة التي كانت أولغا تتحدّثُ عنها. لقد اتّخذت أشكالا غريبة، هيأةَ أفعى منتصبة تملكُ رأس خفّاش وجسد ثعبان. وقد لفّت نفسها حول ساقي رجل، تسحبُ خارجهُ رغبته في الحياة إلى أن جثم على الأرض، باحثا عن رقاد لا يقظة بعدهُ. كنتُ قد رأيتُ في الحظائر من قبلُ مثل هذه الثّعابين ذات الأشكال الغريبة، حيثُ ترعبُ البقرات وتدفعها إلى خوار هائج ومرتبك. ويقالُ إنّها تشربُ حليب الأبقار أو، أسوأ حتّى، تزحفُ إلى داخل هذه الحيوانات فتستهلكُ كلّ الطّعام الذي تأكلهُ إلى أن تموت البقرات من الجوع.

شرعتُ في العدو مُفسحا طريقي بين القصب والأعشاب العالية، دافعا جسدي عبر حواجز الأعشاب المتشابكة، منخفظا بقامتي إلى

أسفل حتّى أتسلّل من تحت جدران الأغصان المتدلّية، أكادُ أطعنُ نفسي بالقصب الحادّ والأشواك.

خارت بقرة من بعيد. تسلّقتُ شجرة بسرعة فائقة. وبعد أن فحصتُ من فوقها، وبدقّة، المشهد، لمحتُ وميض مذنّبات. كان النّاسُ عائدين إلى بيوتهم من المراعي. سلكتُ الطّريق باتّجاههم في حذر شديد، مصغيا إلى صوت كلبهم الذي بلغني عبر النّباتات المتشابكة.

كانت الأصوات قريبة جدّا. ثمّت مسلكٌ دون شكّ خلف جدار الأوراق السّميك. سمعتُ مزيجا من صوت مسير البقرات وأصوات الرّعاة اليافعين. ومن حين إلى آخر، تضيء شراراتُ مذنّباتهم السّماءَ المظلمة. ثمّ تتموّجُ إلى أسفل منتهية. تبعتهم على امتداد الشّجيرات، عازما على مهاجمة الرّعاة وافتكاك مذنّب منهم.

التقط كلبهم رائحتي مرّات عديدة. فظلّ يندفع بقوّة في الدّغل. ولكنّه لم يكن يشعر دون شكّ بالأمان في تلك الظّلمة. كنتُ أحاكي صوت الثّعبان، ممّا اضطرّه إلى الانسحاب، هادرا من حين إلى آخر. وإذ أحسّ الرّعاةُ بالخطر، صمتوا جميعا وأصغوا إلى أصوات الغابة.

اقتربتُ من المسلك، والبقراتُ تكادُ تحكُّ أجسامها إزاء الأغصان التي كنتُ أختبئُ خلفها. كانت قريبة جدّا إلى درجة أنّني تمكّنتُ من شمّ رائحتها. حاول الكلبُ أن يقوم بهجوم آخر. لكنّ صوت الفحيح دفعه مجدّدا إلى الطّريق.

عندما اقتربت منّي البقراتُ أكثر، همزتُ اثنتين منها بعصا ناتئة. فخارت بقوّة وأسرعت في مشيها، يلحقها الكلبُ. بعد ذلك، أطلقتُ عواء طيلا قويّا ينذر بالشّؤم. ولكمتُ الرّاعي الأقرب إليّ في وجهه.

وقبل أن يدرك ما كان يحدثُ له، التقطتُ مذنّبهُ. وأسرعتُ مختفيا داخل الدّغل.

شعُر الفتية الآخرون بالذّعر بسبب العواء الغريب وفزع البقرات. فشرعوا في الجري باتّجاه القرية، وهم يجرّون معهم الرّاعي المصاب. ومن ثمّ، توغّلتُ أبعد في الغابة، مُرطِّبا نار المذنّب السّاطعة ببعض أوراق الأشجار.

وعندما ابتعدتُ بما يكفي، أخذتُ أنفخُ في المذنّب. سحبَ ضوؤُه من العتمة عددا هائلا من الحشرات الغريبة. رأيتُ ساحرات تتدلّى من الأشجار. حدّقن فيّ، وهنّ يحاولن أن يجعلنني أضِلُّ وأرتبكُ. سمعتُ بوضوح صوت ارتجاف الأرواح التّائهة التي كانت قد فرّت من أجساد المذنبين التّائبين. وفي أفق التّوهّج الأحمر لمذنّبي، رأيتُ الأشجار وهي تنحني عليّ. وسمعتُ الأصوات النّاحبة والحركات الغريبة للأشباح والغيلان، وهي تحاولُ أن تشقّ طريقها خارج أقفالها.

لمحتُ ضربات فؤوس على جذوع الأشجار في كلّ مكان. وتذكّرتُ أنّ أولغا قد قالت لي من قبلُ إنّ مثل هذه الضّربات تأتي من المزارعين الذين يحاولون إلقاء سحر شرّير على أعدائهم. بينما يضربُ المرءُ لحم الشّجرة المعصور بفأسه، ينبغي عليه أن ينطق باسم الشّخص الذي يمقُتُه ويستحضر أمامهُ صورة وجهه. وحينئذ يمكنُ للضّربة أن تسبّب المرض والهلاك لعدوّه. كانت هناك ندوب كثيرة على الأشجار من حولي. ولا بدّ أنّ النّاس هنا يملكون أعداء كثيرين. وهم منشغلون حقّا بسعيهم لإنزال المصائب بهم.

شعرتُ بالرّعب من المشهد. وأخذتُ أؤرجحُ المذنّب بعنف. رأيتُ صفوفا لا نهاية لها من الأشجار الرّاكعة أمامي، وهي تدعوني لأخطوَ أعمق وأعمقَ داخل صفوفها المتقاربة.

ينبغي عليّ، عاجلا أم آجلا، أن أعير انتباهي لدعوتها. وكنتُ أريدُ البقاء بعيدا عن القرى المُحاذِية للنّهر.

تقدّمتُ إلى الأمام، مُقتنِعا بشكل راسخ أنّ تعاويذ أولغا ستعيدني في النّهاية إليها. ألم تكن تقول دائما إنّني إذا ما حاولتُ الهرب، فإنّ بإمكانها أن تلقي سحرها على قدميّ وتجعلهما تمشيان بي عودا إليها؟ لم أكن أشعر بالخوف من أيّ شيء. وكانت قوّة مّا مجهولةٌ، قادمةٌ من أعلى أو من داخلي ربّما، تقودني بإحكام نحو العجوز أولغا.

4

أصبحتُ أقيمُ الآن في بيت الطّحّان، الذي يكنّيه أبناءُ القرية بالغيور. لقد كان صموتا أكثر ممّا هو معتاد في تلك المنطقة. وحتّى حين يأتي الجيرانُ لزيارته، فإنّهُ يكتفي بالجلوس، ملتقطا رشفة فودكا من حين إلى آخر ومخرجا كلمة، بينما يكون تائها في أفكاره أو محدّقا في ذبابة جفّت وعلقت بالحائط.

كان يتخلّى عن حلم يقظته فقط حين تدخل زوجته إلى الغرفة. وهي تجلسُ دائما خلف زوجها، بنفس هدوئه وتحفّظه، مُخفضة بصرها في حياء عندما يدخلُ الرّجالُ ويلقون نظرة خاطفة عليها.

أنام في العلّيّة، فوق غرفة نومهما تماما. فتوقظني خصوماتهما في اللّيل. وكان الطّحّان يشكُّ في أنّ زوجتهُ تغازلُ مزارعا شابّا وتعرضُ جسدها أمامهُ، بشكل فاحش، في الحقول وفي الطّاحونة. ولم تكن زوجتهُ تنكرُ ذلك. بل كانت تكتفي بالجلوس ساكنةً، بشكل سلبيّ. أحيانا، يتواصل عراكهما طيلة اللّيل. يُشعلُ الطّحّانُ السّاخطُ شموعا في الغرفة. يرتدي حذاءهُ. ويشرعُ في ضرب زوجته. كنتُ ألتصقُ بشِقٍّ في لوح الأرضيّة. وأظلُّ أتفرّجُ في الطّحّان وهو يُسوّطُ زوجته العارية

بسوط الأحصنة. تنسحبُ المرأةُ المحتميةُ بلحاف الرّيش من السّرير. ولكنّ الرّجل يسحبُ اللّحاف منها. يلقيه على الأرضيّة. ويقفُ مطلاً عليها ومفارجا بين ساقيه. ثمّ يستمرّ في جلد جسدها المكوّر بالسّوط. وبعد كلّ ضربة منه، تظهر خطوطٌ متورّمةٌ دمًا على جلدها النّاعم.

كان الطّحّانُ عديم الرّحمة. بحركة كبيرة من ذراعه، يطوّقُ ردفيْها وفخذيها بالحزام الجلديّ لسوطه. يشقّقُ ثدييها ورقبتها. ويجلدُ كتفيها وقصبتي ساقيها. تفقدُ المرأة قواها. وتظلُّ تئنُّ مثل جرو. ثمّ تزحفُ باتّجاه ساقي زوجها، تسأله المغفرة.

في النّهاية، يلقي الطّحّانُ السّوط من يده. وبعد أن يُطفئ الشّمعة يعود إلى السّرير، بينما تظلّ المرأة تتأوّهُ وتئنُّ. وفي الغد، تغطّي جروحها. تمشي بصعوبة. وتمسّحُ دموعها بكفّين مجرّحتين مكدومتين.

هناك ساكنٌ آخر في الكوخ، قطّة مرقّطة ومُطعمَة بشكل جيّد. ذات يوم، تملّكتها نوبة تشنّج. وبدل أن تموء، أخذت تطلق صريرا مخنوقا. كانت تنزلق على امتداد الجدران منحنية مثل حيّة، مؤرجحة جوانبها المختضّة وغارزةً مخالبها في تنانير زوجة الطّحّان. ظلّت تهدرُ بصوت غريب وتعول. وقد كانت صرخاتها الصّاخبة المذعورة تؤرّقُ كلّ من في البيت. عند الغسق، تئنُّ القطّة بشكل مجنون. يضربُ ذيلها على جانبيها. ويندفعُ خطمها إلى الأمام.

حبس الطّحّانُ الأنثى المتهيّجة في القبو. وذهب إلى طاحونته، قائلا لزوجته إنّه سيصطحبُ معه المزارع الشّابّ إلى البيت لتناول الحساء. ودون أن تجيبه بكلمة، أخذت المرأة تعدّ الطّعام والمائدة.

كان الفتى المزارعُ يتيما. وقد كانت تلك سنة عمله الأولى في مزرعة الطّحّان. شابّ طويلٌ رصين، بشعر كتّانيّ اعتاد أن يسحبه عن جبينه

النّاضح عرقا. عرف الطّحّانُ أنّ أهل القرية يغتابونه، متحدّثين عن علاقة زوجته بالفتى. يقالُ إنّها تغيّرت تماما عندما نظرت في عيني الصّبيّ الزّرقاوين. ودون خشية أن يلاحظها زوجها، راحت ترفع باندفاع وبيد واحدة، تنّورتها فوق ركبتيها، وباليد الأخرى تسحبُ صدار ثوبها لتعرض ثدييها، مُحدّقة أثناء ذلك في عيني الصّبيّ.

عاد الطّحّانُ برفقة الشّابّ، حاملا في كيس معلّق على كتفه قطّا، استعاره من أحد الجيران. وكان رأسُ القطّ عريضا مثل اللّفت وذيله طويلا قويّا. تعولُ القطّة في القبو بشهوة عارمة. وعندما أطلق الطّحّانُ سراحها، اندفعت بسرعة إلى وسط الغرفة. وأخذ كلٌّ منهما يطوفُ بالآخر في ريبة، وهما يلهثان لهفةً. ويقتربان شيئا فشيئا من بعضهما.

قدّمت المرأةُ الحساء. ثمّ تناولت حصّتها صامتة. بينما جلس زوجها عند منتصف الطّاولة، زوجته في جهة والمزارع الشّابّ في الجهة الأخرى. أكلتُ نصيبي مُقرفصا قرب الموقد. كنتُ معجبا بشهيّة الرّجلين. فقد كانت قطع ضخمة من اللّحم والخبز، مغسولة بأقداح من الفودكا، تختفي في حلقيهما مثل حبّات البندق.

وحدها المرأة تمضغ طعامها ببطئ. وعندما كانت تخفضُ رأسها فوق زبديّتها، يلقي الفتى نظرة أسرع من البرق على صدريّتها المنتفخة.

فجأة، قوّست القطّة، في وسط الغرفة، جسمها. وأبانت أنيابها ومخالبها. ثمّ انقضّت على الهرّ. ولكنّه توقّف لحظة. مطّط ظهره. وقذف لعابهُ مباشرة في عينيها المتّقدتين. طافت به الأنثى. وثبت باتّجاهه. ثمّ تراجعت. وأصابته في خطمه. صار الهرُّ يلحقها الآن في

حذر، مُتشمِّمًا رائحتها المسكرة. قوّس ذيله. وحاول أن يهجم عليها من الخلف. ولكنّ الأنثى لم تسمح له بذلك. لقد سطّحت جسمها على الأرضيّة. والتفّت مثل حجر الرّحى. ثمّ ضربته بمقدّم قائمتها الممدودة والمتصلّبة.

مشدوهين، حدّق الثّلاثةُ فيهما صامتين، بينما يتابعون أكلهم. وقد جلست المرأة بوجه محمرّ خجلا. حتّى عنقها كان يحمرّ شيئا فشيئا. وكان المزارع الشّابّ يرفع بصره ليخفضه من جديد في اللّحظة ذاتها. يتصبّبُ العرقُ خلَل شعره القصير. فيسحبه إلى الخلف باستمرار، حتّى يرفعه عن جبينه المتوهّج. وحدهُ الطّحّانُ اكتفى بالجلوس في هدوء، متفرّجا في القطّين، وملقيا من حين إلى آخر نظرة باردة على زوجته والضّيف.

فجأة، توصّل الهرّ إلى اتّخاذ قراره. أصبحت حركاتهُ أخفَّ. تقدّم. فتحرّكت القطّة لعوبةً، كما لو أنّها تتراجع إلى الخلف. ولكنّ الذّكر قفز عاليا. ثمّ حطّ من فوقها بقوائمه الأربع. غرز أنيابه في عنقها. وبشكل مقصود، وفي توتّر بالغ، انغمس فيها دون أيّ ارتباك. وعندما أشبع حاجته وأُنهك، تراجع مرتخيا. تسمّرت القطّة المرقّطةُ في الأرضيّة. وصرخت بصوت أجشّ. ثمّ قفزت منفلتة من تحته. ارتمت داخل الموقد الخامد. وظلّت تهتزّ بداخله مثل سمكة. وأخذت تمسّحُ عنقها بقائمتيها الأماميّتين. وتفرك رأسها إزاء الحائط الدّافئ.

توقّفت الزّوجة والمزارع عن الأكل. وحدّق أحدهما في الآخر بفمين ممتلئين طعاما. تنفّست المرأةُ بشكل ثقيل. ثمّ وضعت يديها تحت ثدييها. وضغطت عليهما بشكل لاواعٍ. كان الفتى يراوحُ نظراته بين القطّين وبينها. يلعقُ شفتيه الجافّتين. ويبتلعُ طعامهُ بصعوبة.

ازدرد الطّحّانُ بقيّة طعامه. وأرخى رأسهُ إلى الوراء. ثمّ قلب فجأة قدح الفودكا في فمه. ورغم كونه ثملا، فقد قامَ عن الطّاولة، ممسكا بملعقته الحديديّة، ينقرها عليها. ويقتربُ من المزارع. مكث الشّابُّ في مكانه مرتبكا. ورفعت المرأة تنّورتها متأهّبة لاندلاع النّار.

انحنى الطّحّانُ على الفتى، متمتما كلماتٍ في أذنه المحمرّة، ممّا دفعه إلى القفز كما لو أنّ شخصا قد وخزهُ بسكّين. ثمّ راح ينكر شيئا مّا. سألهُ الطّحّانُ الآن، بصوت عال، إن كان يشتهي زوجته. فاحمرّ خجلا. لكنّه لم يجب بشيء، فيما تنحّت الزّوجةُ مبتعدة. واستمرّت في تنظيف القدور.

أشار الطّحّانُ إلى الهرّ المتسكّع. ووشوش مرّة أخرى كلمات في أذن الشّابّ، الذي تحامل على نفسه، ليقوم عن الطّاولة، عازما على مغادرة الغرفة. فاتّجه نحوه الزّوج، مُسقطا مقعده. وقبل أن يعي الفتى ما يحدثُ، دفعه الآخر فجأة باتّجاه الحائط. وثبّته من عنقه بذراع واحدة. ثمّ وجّه له ضربة بركبته في المعدة. فعجز الفتى عن الحركة. وتملّكه الرّعبُ. وأخذ يلهثُ بقوّة، متمتما شيئا مّا.

اندفعت المرأةُ نحو زوجها، متوسّلة مُعْوِلة. نظرت المرقّطةُ الممدّدة داخل الموقد، والتي أيقظتها الضّجّةُ، إلى العرض، بينما قفز الهرّ المذعور على الطّاولة.

بركلة قدم واحدة أبعد الطّحّانُ المرأة من طريقه. وبحركة خاطفة، كتلك التي تقوم بها المرأة إذ تقتلعُ البقع المتعفّنة أثناء تقشير البطاطا، غرز الملعقة في إحدى عيني الفتى. واقتلعها.

انفلتت العينُ من وجهه مثل صفار بيضة مكسورة. وتدحرجت من فوق يد الطّحّان، لتسقط على الأرض. صرخ الفتى وزعق. لكنّ

ذراع الطّحّان ثبّتهُ مسمّرا في الحائط. انغمست الملعقةُ المكسوّة دما، بعد ذلك، في العين الأخرى. واقتلعتها بشكل أسرع حتّى من المرّة الأولى. ولوهلة، ظلّت العين تتدلّى على وجنته، كما لو أنّها غير متيقّنة ممّا ستفعله لاحقا. ثمّ تدحرجت أخيرا على قميصه باتّجاه الأرضيّة.

حدث كلّ ذلك في لحظة خاطفة. لم أستطع أن أصدّق ما رأيتُه. شيء مّا يشبه وميض أمل عبَر خاطري قائلا إنّ العينين المقتلعتين يمكنهما أن تُوضعا من جديد حيث كانتا سلفًا. صرخت زوجةُ الطّحّان بشكل متوحّش. اندفعت فجأة إلى الغرفة المجاورة. وأيقظت أولادها الذين شرعوا بدورهم في البكاء والصّراخ فزعا. صاح المزارع الشّابُّ. ثمّ سكت شيئا فشيئا، مغطّيا وجهه بيديه، بينما سالت نُهيْراتُ دم من خلال أصابعه، وعلى امتداد ذراعيه، وهي تقطُر على قميصه وسرواله.

دفعه الزّوجُ المسعورُ باتّجاه النّافذة، كما لو أنّه لم يتبيّن بعدُ عمى الفتى، الذي تعثّر، وصرخ، وكاد يقلبُ الطّاولة. سحبه الطّحّانُ من كتفيه. فتح الباب. وركله بقدمه إلى الخارج. صرخ الفتى مجدّدا وتعثّر عبر الباب. ثمّ سقط في الفناء. فشرعت الكلابُ تنبحُ، رغم أنّها لا تعرفُ ما قد حدث للتّوّ.

تمدّدت الكرتان العينيّتان على الأرض. مشيتُ حولهما مُلتقطا نظرتهما الثّابتة. تحرّك القطّان بتوجّس نحو وسط الغرفة. وأخذا يلعبان بالعينين، كما لو كانتا كرتي خيط. يضيقُ بؤبؤاهما أمام خيوط الضّوء الصّادرة عن القنديل الزّيتيّ، بينما يدحرجهما القطّان، يتشمّمانهما، يلعقانهما ويمرّرانهما الواحد باتّجاه الآخر، بواسطة أطراف قوائمهما المبطّنة. يبدو الآن أنّ العينين تحدّقان فيّ من كلّ زاوية في الغرفة، كما لو أنّهما قد اكتسبتا حياة وحركة جديدتين تخصّهما.

كنتُ أتفرّج فيهما باندهاش عظيم. ولو لم يكن الطّحانُ هناك، لكنتُ أنا بدوري قد أخذتهما. فمن المؤكّد أنّهما ما تزالان قادرتين على الرّؤية. كنتُ لأحتفظ بهما في جيبي. وأخرجهما، كلّما احتجتُ ذلك، لأضعهما فوق عينيّ. ويمكنني حينئذ أن أرى بشكل مضاعف، أو أكثر من ذلك حتّى. وربّما كان بإمكاني أن أضعهما في قفا رأسي. فتخبرانني ساعتها -ولم أكنْ أعرفُ حقّا كيفيّة ذلك- بما كان يحدثُ خلفي. بل وأحسن من ذلك، يمكنني أن أترك العينين في مكان مّا. ويمكنهما لاحقا أن تخبراني بما كان قد حدث في غيابي.

ربّما لا تملك العينان نيّة خدمة أيّ شخص. كان بإمكانهما أن تفرّا من القطّين، متدحرجتين خارج الباب. وكان بإمكانهما التّجوّل أيضا في الحقول والبحيرات والغابات، ناظرتين إلى كلّ شيء حولهما، حرّتين مثل طيور تنعتقُ من مصيدة. لن يدركا الموت أبدا في تلك الحالة، بما أنّهما ستكونان حرّتين. ولكونهما صغيرتين جدّا، فإنّ بإمكانهما الاختباء بسهولة في أماكن عديدة، ومشاهدة النّاس خفية. تحمّستُ لذلك. فقرّرتُ أن أغلق الباب بهدوء. وأمسك بهما.

ركل الطّحّانُ الحيوانين بعيدا، إذ شعر دون شكّ بالسّأم من لعبهما. وسحق العينين بحذاءه الثّقيل. فاندفع شيء مّا تحت باطن قدمه السّميك. لقد تكسّرت للتّو هذه المرآةُ الرّائعةُ التي كان بإمكانها أن تعكس العالم كلّه. لم يبق على الأرضيّة سوى بعض من المادّة اللّزجة المسحوقة. شعرتُ بإحساس رهيب بالفقد.

لم يكن الطّحّانُ يعيرني أيّ انتباه. لقد اتّخذ مكانه على الكنبة. ثمّ تمايل ببطء إلى أن غطّ في النّوم. وقفتُ في حذر. فرفعتُ الملعقة المكسوّة بالدّم من الأرضيّة. وشرعتُ أجمع الأطباق. لقد كانت

مهمّتي أن أنظّف الغرفة وأكنس الأرضيّة. وبينما أقوم بعمليّة التّنظيف، حرصتُ على أن أظلّ بعيدا عن العينين المسحوقتين. إذ لم أكن أعرف ما يجدر بي فعله بهما. وفي النّهاية، أشحتُ بوجهي. وكنستُ الرّشح بسرعة في السّطل. ثمّ رميتهُ في الموقد.

استيقظتُ في الصّباح باكرا. وسمعتُ من تحتي الطّحّان وزوجته يشخران. وبعناية فائقة، ملأتُ كيسا بالطّعام. وشحنتُ المذنّب بالجمر الحارّ. ثمّ رشوتُ الكلب في الفناء بقطعة من السّجق، قبل أن أهرب بجلدي من الكوخ.

تمدّد المزارعُ الشّابّ عند جدار الطّاحونة، قرب المخزن. كنتُ أنوي في البداية أن أمرّ بجانبه سريعا. لكنّني توقّفتُ عندما أدركتُ أنّه كان فاقدا للبصر. كان ما يزالُ مصدوما. ويغطّي وجهه بيديه، منتحبا وباكيا. ثمّت دمٌ متخثّر على وجهه ويديه وقميصه. رغبتُ في أن أقول له شيئا مّا. لكنّني خشيتُ أن يسألني عن عينيه. فأجبر ساعتها على أن أجيبه قائلا إنّ عليه أن ينسى أمرهما، بما أنّ الطّحّان قد صيّرهما عجينا. لقد كنت متأسّفا بشكل فظيع لحاله.

تساءلتُ إن كان فقدانُ المرء لبصره من شأنه أن يحرمهُ أيضا من ذكرى كلّ ما قد رآهُ من قبلُ. وإذا كان ذلك، فإنّ الرّجل لن يستطيع بعدُ أن يرى حتّى في أحلامه. أمّا إذا اختلف الأمرُ، أي أنّ الفاقدين لعيونهم يمكنهم النّظر من خلال ذاكرتهم، فليست المسألةُ في غاية السّوء حينئذ. يبدو أنّ العالم هو ذاتهُ في كلّ الأماكن تقريبا. ورغم أنّ النّاس يختلفون الواحد عن الآخر، مثلما هو الحال بالنّسبة إلى الحيوانات والأشجار، فإنّه يجدر بالمرء أن يعرف كيف يبدو منظرهم بعد أن كان قد رآهم طيلة أعوام كثيرة. لقد

عشتُ سبع سنوات فقط. ولكنّني أتذكّر الكثير من الأشياء. وعندما أغمضُ عينيّ، أستعيدُ تفاصيل كثيرة ما تزالُ تحافظ على حيويّتها. من يدري، ربّما سيشرعُ المزارعُ الشّابُّ من دون عينيه في رؤية عالم جديد تماما، أكثر سحرا.

سمعتُ صوتا مّا قادما من القرية. وإذ خفتُ أن يستيقظ الطّحّانُ، تابعتُ طريقي متلمّسا عينيّ من حين إلى آخر. كنتُ أمشي الآن بحذر أكبر، إذ صرتُ أعرفُ أنّ العيون لا تملكُ جذورا قويّة. عندما ينحني المرء، تتدلّيان مثلما تتدلّى تفّاحتان من شجرة. وبإمكانهما أن تسقطا بسهولة. لقد توصّلتُ إلى أن أقفز من فوق الأسيجة برأس مرفوع إلى أعلى. ولكنّني تعثّرتُ عند محاولتي الأولى. وسقطتُ أرضا. ورفعتُ أصابعي بخوف تجاه عينيّ حتّى أتثبّت إن كانتا ما تزالان في مكانهما. وبعد أن تفحّصتهما بعناية، متثبّتا من كونهما تنفتحان وتنغلقان بشكل سليم، لاحظتُ فجأة وبمتعة فائقة طيور الحجل والسّمّان وهي تطير. كانت تحلّقُ بسرعة هائلة. ومع ذلك، تمكّن بصري من اللّحاق بها، وتجاوزها حتّى، وهي ترتفع تحت السّحب، وتصير أصغر من قطرات المطر. عاهدتُ نفسي على أن أتذكّر كلّ شيء رأيتهُ. وإن كان شخصٌ مّا سيقتلعُ عينيّ، فإنّني سأحتفظُ بذكرى كلّ ما كنتُ قد رأيتهُ في حياتي.

5

تمثّلت مهمّتي في نصب الفخاخ لصالح لاكْ، الذي كان يبيع الطّيور في القرى المجاورة. لم يكن هناك من يستطيع أن ينافسه في هذا الأمر. وقد اعتاد أن يعمل بمفرده. لكنّه أخذني معهُ لأنّني كنتُ صغيرا جدّا، نحيل الجسم، وخفيفا. ولهذا السّبب، أمكنني أن أنصب الفخاخ في الأماكن التي لا يستطيع لاك نفسه أن يبلغها، مثل أغصان الأشجار الرّقيقة والكتل الكثيفة لنباتات القراص والنّجميّات الشّائكة والجزيرات المغمورة بالمياه في البرك والمستنقعات.

لا يملكُ لاك عائلةً. وكوخهُ مليء بطيور من كلّ الأنواع، ابتداء بالدّوريّ الشّائع ووصولا إلى البومة الحكيمة. كان الفلاّحون يقايضون الطّعام بطيور لاك. لذا لم يكن مجبرا على أن يشغل نفسه بالحاجات الأساسيّة: الحليب، الزّبدة، القشدة الحامضة، الأجبان، الخبز، النّقانق، الفودكا، الثّمار وحتّى الملابس. لقد كان يجمع كلّ هذا من القرى المجاورة، بينما يحمل طيوره في أقفاصها ويتغنّى بجمالها وقدرتها على الغناء.

يملأُ النّمش والبقع وجه لاك. ويدّعي الفلاّحون أنّ وجها كذلك يخصّ الذين يسرقون البيض من أعشاش السّنونو. أمّا لاك نفسهُ فيؤكّد أنّ السّبب هو استمراره خلال طفولته في البصاق في النّار بإهمال، مُدّعيا أنّ أباه كان ناسخ قرية يريدُ منه أن يصير كاهنا. لكنّه كان منجذبا إلى

الغابات. فدرس سلوكات الطّيور. وغبطها قدرتها على الطّيران. وذات يوم، هرب من كوخ أبيه. وأخذ يتسكّع من قرية إلى قرية، ومن غابة إلى أخرى، مثل طائر برّيّ مهمل. ومع مرور الوقت، أخذ يصطادُ الطّيور. كان يتأمّل العادات العجيبة للسّمّان والقبّرات. ويتمكّنُ من محاكاة نداء الواقواق المبتهج وصرير غراب العقعق وصياح البوم. لقد كان عليما بتقاليد المغازلة عند عصافير الدّغناش والغضب النّاجم عن الغيرة عند الصِّفْرد حين يطوف بعشّ هجرتهُ أنثاهُ، وعارفا كذلك بأسى السّنونو الذي يدمّر الصّبيةُ الصّغار، بتعسّف، مكان عشّه. يفهمُ أسرار طيران الصّقر. ويعشقُ صبر اللّقلق أثناء صيده للضّفادع. وكان يحسد العندليب على غنائه.

هكذا قضّى صغره وسط الطّيور والأشجار. وها هو الآن يتزايدُ الصّلع في رأسه. تتسوّسُ أسنانه. وتتراخى بشرةُ وجهه في شكل طيّات. كما أنّ بصرهُ صار أضعف بقليل من قبلُ. ولذلك، استقرّ نهائيّا في كوخ بناهُ لنفسه. واحتلّ فيه ركنا، بينما ملأ الأركان الأخرى بأقفاص الطّيور. وقد عثر في عمق واحد من هذه الأقفاص، على مكان من أجلي.

كان لاك يتحدّثُ في أغلب الأحيان عن طيوره. فأصغي بلهفة إلى كلّ ما يقوله. تعلّمتُ أنّ أسراب اللّقالق تأتي دائما من وراء المحيطات في عيد القدّيس يوسف. وتمكثُ في القرية حتّى يلقي عيدُ القدّيس برثولماوس الضّفادع في الوحل بواسطة أعمدة القفز. سيسدّ الوحلُ حينئذ أفواه الضّفادع. وإذ تعجزُ اللّقالق عن سماع نقيقها، لا تتمكّن من الإمساك بها. فترحل حينئذ. إنّ اللّقالق تجلبُ الحظّ السّعيد للمنازل التي تعشّش فيها.

لاكْ هو الرّجل الوحيد في المنطقة الذي يجيدُ إعداد عشّ لقلق بشكل مسبق. ولا تخلو أعشاشه من المقيمين أبدا. لذلك يحدّد أجورا باهضة لصنع أعشاش كهذه. ووحدهم المزارعون الأشدّ ثراء كانوا قادرين على تحمّل تكاليف خدماته.

يشرعُ لاكْ في صنع الأعشاش بتأنّ كبير. يضعُ على السّقف الذي اختير لذلك، مِسْلَفَة في المنتصف، مُشكّلا إطارا لبنية العشّ. وكانت تميلُ دائما، وبشكل طفيف، باتّجاه الغرب، حتّى لا تهدمَ الرّياحُ المهيمنة العشَّ. بعد ذلك، يغرزُ مسامير طويلة وسط المسلفة، مُحدثا سندا للغصينات والقشّ الذي تُجمّعهُ اللّقالقُ بنفسها. وقبيل وصولها تماما، يضعُ قطعة كبيرة من القماش الأحمر في الوسط، حتّى يسترعي انتباهها.

كان من المعلوم أنّ رؤية أوّل لقلق يطير في الرّبيع هو بشارة خير وحظّ سعيد. أمّا رؤية أوّل لقلق يحطّ، فهو نذير سنة من المتاعب والمآسي. توفّر اللّقالق كذلك أمارات على ما يحدثُ في القرية. فهي لا تعودُ أبدا إلى سقف، كانت قد وقعت تحته وفي غيابها، أعمال فاحشةٌ، أو عاش من تحته أناسٌ في الذّنوب.

لقد كانت طيورا غريبة. حدّثني لاكْ كيف أنّ أنثى لقلق قد نقرتهُ، بينما كانت تحضنُ بيضها، فيما يحاولُ هو أن يصحّح موضع العشّ. لقد انتقم منها، إذ سرّب بيضة إوزّة داخلهُ. وعندما فقست الفراخُ، نظرت اللّقالق بدهشة واستغراب لنسلها. كان أحدها مشوّها بساقين قصيرتين مقوّستين ومنقار مسطّح. اتّهم اللّقلقُ الأبُ زوجته بالخيانة. وأراد أن يقتل الفرخ اللّقيط على الفور. لكنّ الأمّ شعرت بضرورة الإبقاءُ على الابن في العشّ. وتواصلت الخصومةُ العائليّة لعدّة أيّام. في النّهاية، قرّرت

الأمّ أن تنقذ حياة فرخ الإوزّ. دحرجتهُ بعناية فوق سقف القشّ، ليسقط دون أذى على أكوام التّبن.

قد يبدو أنّ ما فعلتهُ يحسمُ الأمر ويعيد التّناغم الزّوجيّ لحالته الأولى. ولكن، عندما حان وقتُ الطّيران بعيدا، عقدت جميعُ اللّقالق مؤتمرا كعادتها. وبعد الجدال والنّقاش، تمّ الإقرارُ بأنّ الزّوجة مذنبةٌ بالزّنا. ولا تستحقُّ مرافقة الزّوج. لقد أعلن عن الحكم كما هو متوقّعٌ. وقبل أن تقلع الطّيور في اجتماعها الدّقيق، هوجمت الزّوجةُ الخائنةُ بالمناقير والأجنحة. ثمّ سقطت ميّتة، قرب الكوخ الذي عاشت فوقه مع زوجها. وقرب جثّتها، عثر المزارعون على فرخ إوزّ قبيح يذرفُ دموعه بحرقة.

تعيشُ السّنونواتُ كذلك حيوات مثيرة للاهتمام. تأتي الطّيور المفضّلةُ لدى مريم العذراء مُبشّرة بالرّبيع والفرح. لكنّها تطيرُ بعيدا عن الحياة البشريّة، في الخريف، لتمكث، مرهقةً وناعسةً، فوق القصب النّابت في المستنقعات البعيدة. يقولُ لاكْ إنّها ترتاحُ على القصبة حتّى تنكسر من ثقلها، مُسقطةً إيّاها في الماء. وكان من المفترض أن تمكث تحت الماء، طيلة الشّتاء، آمنةً في بيتها الجليديّ.

يمكنُ لصوت الواقواق أن يعني أشياء كثيرة. ويجدر برجل يسمعهُ لأوّل مرّة في الفصل أن يشرع فورا في صلصلة العملات النّقديّة في جيوبه وعدّ أمواله كلّها، حتّى يؤمّن على الأقلّ على المبلغ نفسه طيلة السّنة. وينبغي على اللّصوص أن يتذكّروا المرّة الأولى في السّنة التي سمعوا فيها الواقواق. فإذا كان ذلك قبل أن تنمو الأوراقُ

على الأشجار، فمن المستحسن أن يهجروا مخطّطات سرقاتهم. لأنّها ستفشلُ لا محالة.

يكنُّ لاكْ عاطفة خاصّة لطيور الواقواق. ويعتبرها أناسا قد تحوّلوا إلى طيور، نبلاءَ يتوسّلون الرّبّ، بلا جدوى، كي يعيدهم بشرا من جديد. لقد أدرك الأمارةَ على أصولها النّبيلة في تلك الطّريقة التي ترعى بها فراخها. الواقواق-كان يقول- لا يتكفّل بتربية أبنائه بنفسه أبدا. بل يستخدمُ طيور الذّعرة كي تطعم فراخه وترعاها، بينما يتلهّى هو بالطّيران في أنحاء الغابة، مناديا الرّبّ وسائلا إيّاهُ أن يعيده رجلا نبيلا من جديد.

بالنّسبة إلى الخفافيش، ينظر إليها لاكْ بتقزّز، مُعتبرا إيّاها نصفَ طيور ونصف فئران. يسمّيها مبعوثة الأرواح الشّريرة التي تبحثُ عن ضحايا جدد. وهي قادرة على التّعلّق بفروة الرّأس وتسريب الرّغبات الآثمة إلى الدّماغ. ومع ذلك، حتّى الخفافيش لها منافعها. قبض لاكْ مرّة على خفّاش في العلّيّة. كان قد أمسك به بواسطة شبكة. ثمّ وضعه على مستعمرة نمل خارج المنزل. فلم تبق في اليوم التّالي سوى العظام البيضاء. جمع لاكْ الهيكل العظميّ بعناية. وأخرج عظم الرّجاء[6] الذي كان يضعه على صدره. وبعد أن طحن بقيّة العظام وحوّلها إلى غبار، مزجها في قدح بشيء من الفودكا. وقدّمها للمرأة التي يحبّها. قال إنّ هذا الخليط سيضمنُ له رغبتها المتزايدة فيه.

علّمني لاكْ أنّ على المرء أن يراقب الطّيور دائما بانتباه شديد ويستخلص استنتاجات هامّة من سلوكها. فإذا كانت تطير في حمرة

---

(6) عظم على شكل V يقع بين عنق طائر وصدره. كان هناك تقليد يقوم على اقتلاعه. ليُسحب من كلّ طرف بواسطة شخصين. فيرجو صاحبُ النّصف الأكبر رجاء سرّيّا يتحقّقُ. (المترجم)

غروب الشّمس بأعداد كبيرة وأنواع مختلفة، فإنّه من الواضح حينئذ أنّ أشباحا شرّيرة، في رحلة بحثها عن أرواح ملعونة، تركبُ أجنحتها. وحين تجتمعُ الغربانُ والغُدْفانُ وطيور الزّاغ معا في حقل، فإنّ الاجتماع يكون عادةً مقرّرا من قبل طائر شيطانيّ فيما بينها، يحاول أن يغرس فيها كراهية الطّيور الأخرى. ظهور الغربان البيضاء ذات الأجنحة الطّويلة يعلنُ قدوم عاصفة مطريّة. وأمّا الإوزّ البرّيّ الطّائر بشكل منخفض في الرّبيع، فيدلّ على قدوم صيف ممطر وحصاد هزيل.

في الفجر، عندما تكون الطّيور نائمة، نخرجُ معا متّجهيْن إلى أعشاشها. يتقدّم لاكْ إلى الأمام، قافزا بانتباه من فوق الأجمات والشّجيرات. كنتُ أتبعهُ من الخلف مباشرة. بعد ذلك، عندما يدرك ضوء النّهار أكثر الزّوايا المظلّلة في الغابة والحقول، نلتقطُ معا الطّيور المهزومة والخائفة من الفخاخ التي كنّا قد نصبناها في اليوم السّابق. وكان لاك ينتزعها بعناية، متكلّما معها بشكل هادئ أو مهدّدا إيّاها بالموت. ومن ثمّ يضعها في كيس كبير معلّق على كتفه، لتتصارع فيه وتضجّ، إلى أن تنهك قواها وتهدأ في النّهاية. كلّ سجين جديد يجلبُ إلى الكيس حياة جديدة. فيدفعه إلى الاهتزاز والتّأرجح على ظهر لاكْ. بينما يلتفّ فوق رأسيْنا أصدقاءُ السّجين وعائلته، مغرّدين اللّعنات. ينظر لاكْ حينئذ إلى أعلى من تحت حاجبيه الرّماديّين. ويقذفهم بالشّتائم. وعندما تصرّ الطّيور على ذلك وتلحّ، يضعُ لاك الحقيبة على الأرض. يسحبُ مقلاعا. ويضع فيه حجرا حادّا. ثمّ يستهدفُ

السّرب بدقّة. ويقذفهُ به. لم يكن يخطئُ هدفه أبدا. فجأة، يندفع طائر جامدٌ ساقطا من السّماء. ولم يكن لاكْ ليزعج نفسه بالنّظر إلى الجثّة.

عندما يقتربُ منتصف النّهار، يزدادُ مسح لاكْ لعرقه من جبينه. فالسّاعة الأهمّ في يومه كلّه تقترب أكثر. إذ تنتظرهُ امرأة تكنّى في الأرجاء بلينا الغبيّة، في فسحة بعيدة من الغابة لا يعرفها إلاّ هما الاثنان. أهرولُ فخورا من خلفه، والكيسُ الممتلئ بالطّيور المرتجفة يتأرجحُ فوق كتفي.

أصبحت الغابة مع مرور الوقت كثيفة ومحرّمة. تمتدّ جذوع أشجار الشّرد اللّزجة والمرقّطة بلون الثّعابين إلى أعلى، متّجهة نحو السّحب. أشجار الزّيزفون التي تتذكّرُ كلّها، حسب لاك، بدايات الجنس البشريّ، تقفُ بأكتافها العريضة وجذوعها التي تشبه معاطف من دروع مزيّنة بالغشاء الرّماديّ للطّحالب. أمّا السّنديانـاتُ فتشرئبُّ من جذوعها مثل أعناق طيور جائعة تبحثُ عن الطّعام. فتحجبُ الشّمس بأغصان شاحبة، محوّلة الصّنوبر والحور والزّيزفون إلى ظلال. أحيانا، يتوقّفُ لاكْ. ويظلّ يتأمّلُ صامتا بعض الآثار في شقوق اللّحاء المتحلّل وعقد الأشجار والثّقوب الغامضة، حيثُ يتوهّجُ داخلها خشبٌ أبيضُ عار. وقد نعبر خلال بساتين كاملة من البتولا اليافعة ذات البراعم النّحيفة والهشّة، وهي تحني بشكل طفيف أغصانها الرّقيقة.

لمحتنا عبر ستار الأوراق الشّفّاف، أسراب طيور جاثمة. فشعرت بالرّعب. وانتفضت مصفّقة بأجنحتها ومحلّقة بعيدا. لقد امتزجت زقزقتها بجوقة النّحل المغمغمة حولنا مثل سحابة متحرّكة متوهّجة. حمى لاكْ وجههُ بيديه. وفرّ من النّحل متّجها إلى دغل أكثر كثافة، بينما اقتفيتُ أثرهُ ممسكا بكيس الطّيور وسلّة الفخاخ، مُموّجا يدي كي أهشّ السّرب المزعج والمنتقم.

كانت لينا الغبيّة امرأة غريبةً. وكان خوفي منها يتزايدُ شيئا فشيئا: ذات بنية جسديّة متينة وأطول من النّساء الأخريات. شعرها الذي يبدو أنّه لم يُقصّ أبدا، ينسابُ على كتفيها. ولها نهدان كبيران يتدلّيان حتّى بطنها تقريبا، مع عضلتين قويّتين في ساقيها. في الصّيف، تتجوّلُ في الأنحاء مرتدية فقط كيسا مترهّلا يكشفُ ثدييها وكومة من الشّعر الأحمر ما بين ساقيها. يتحدّثُ الرّجالُ والفتيان عن الألاعيب الطّائشة التي تجمعهم بلينا حين يكون مزاجها حسنا. لطالما حاولت نساء القرية أن ينصبن لها فخّا. فيقبضن عليها. ولكن، كما يقول لاكْ بفخر كبير، إن ذيل لينا تحمله الرّياحُ، ولا أحد بإمكانه الإمساكُ بها إن لم يكن ذلك بإرادتها. فقد تختفي وسط الأشجار المتشابكة مثل طائر الزّرزور. وتزحف بعيدا حين لا يكون هناك أحد في الأنحاء.

لا أحد يعرفُ أين يقع وكرها. أحيانا، عندما يتّجهُ المزارعون فجرا نحو حقولهم، ومناجلُهم على أكتافهم، يرون فجأة لينا الغبيّة تلوّح لهم بغنج من بعيد. فيتوقّفون ملوّحين بأيديهم لها، وممدّدين أذرعتهم بكسل إذ تضعفُ رغبتهم في العمل. ووحدها نداءات زوجاتهم وأمّهاتهم، وهنّ يقتربن بمناجلهنّ ومعاولهنّ، تعيدُ لهم صوابهم. اعتادت النّساءُ أن يكلّفن الكلاب باللّحاق بها ومهاجمتها. فيقرّرُ أكثرها قوّة وخطورة ألاّ يعود. كانت تلوحُ بعد ذلك دائما ممسكة الحيوان بواسطة حبل. أمّا الكلابُ الأخرى فتفرّ منها وذيولها بين قوائمها.

يُقالُ إنّ لينا الغبيّة تعيش مع ذلك الكلب الضّخم كما لو أنّه رجل. ويتنبّأُ البعضُ أنّها ستضعُ ذات يوم أبناء بأجساد تكسوها فراء الكلاب

ولها آذانٌ ذئبيّة وأربعُ قوائم. وستعيشُ هذه الوحوشُ في مكان مّا من الغابة.

لم يردّد لاكْ أبدا هذه الحكايات عن لينا. لقد اكتفى مرّة بالقول إنّها حين كانت يافعة وبريئة، حكم عليها والداها بالزّواج من ابن ناظم التّرانيم في القرية، وهو رجل مشهور بقبحه وقسوته. رفضت لينا بشكل قاطع. وأغاظت بذلك خطيبها وبشدّة، ممّا جعلهُ يسحبها إلى خارج القرية، حيث اغتصبها قطيع من المزارعين السّكارى، إلى أن فقدت وعيها. تحوّلت بعد ذلك إلى امرأة مختلفة تماما. وفسد عقلها. وبما أنّه ما من أحد يتذكّر عائلتها، وبما أنّها لم تكن لامعة كذلك، لقّبها أهل القرية بلينا الغبيّة.

لقد عاشت في الغابات. تجذبُ الرّجال إلى الدّغل. فتمنحهم لذّة لا تظاهى بشبقها الطّافح، إلى درجة أنّهم يعجزون بعد ذلك حتّى عن النّظر إلى زوجاتهم السّمينات ذوات الرّوائح الكريهة. ما من رجل بإمكانه أن يشبع رغبتها. كان عليها أن تضاجع رجالا كثيرين، الواحد بعد الآخر. ومع ذلك، فقد كانت حُبَّ لاكْ العظيم. يؤلّف لها أغاني رقيقة تبدو فيها طائرا ذا ألوان غريبة يحلّق نحو عوالم نائية، حرّا، سريعا وأكثر إشعاعا وجمالا من الكائنات الأخرى. كانت تبدو بالنّسبة إلى لاكْ منتمية إلى مملكة الطّيور والغابات الوثنيّة البدائيّة تلك، حيث كلّ شيء وافر وغزير إلى ما لا نهاية له وبرّيّ ومزهر وملكيّ في انحداره الأبديّ وفي موته وولادته المتجدّدة ومحرّم وفي صراع مع عالم البشر.

كلّ يوم، عند منتصف النّهار، أمشي أنا ولاكْ باتّجاه الفُسحة حيث يرجو أن يلتقي لينا. وعندما يصلُ، يصيحُ لاكْ مقلّدا صوت البوم. فتظهر

لينا الغبيّةُ من فوق الأعشاب الطّويلة، تتخلّل شعرَها زهورُ الخشخاش. يندفعُ لاكْ بحماسة نحوها. فيمكثان معا، متأرجحين بشكل طفيف مثل الأعشاب التي تحيطهما، يكادُ الواحدُ منهما أن ينموَ باتّجاه الآخر مثل جذعي شجرة ينبتان من نفس الجذر.

كنتُ أتفرّجُ فيهما من حافّة الفسحة، خلف أوراق السّرخس. تضطربُ الطّيور داخل الكيس بسبب السّكون المفاجئ. فتسقسقُ. وتتخبّطُ. وتضربُ متوتّرةً بأجنحتها. يقبّلُ الرّجلُ والمرأة شعر بعضهما وعينيهما. ويضع الواحد منهما وجنته على وجنة الآخر. كانا ثملَيْن بلمسات جسديهما ورائحتيهما، بينما تصبح أيديهما لعوبةً أكثر فأكثر. يحرّكُ لاكْ كفّيه الكبيرتين والمتصلّبتين حول ذراعي المرأة النّاعمين بينما تقرّبُ هي وجههُ إليها. ينزلقان معا إلى أسفل تحت الأعشاب الطّويلة التي صارت تختضُّ الآن فوق جسديهما، مخفيةً إيّاهما جزئيّا عن النّظرة الفضوليّة للطّيور المحلّقة فوق الفُسحة. اعتاد لاكْ أن يقول بعد ذلك إنّ لينا تظلّ تحدّثهُ، حين يتمدّدان على العشب، عن قصص حياتها وعذاباتها، مُفصحة عن غرائب مشاعرها الجامحة وعجائبها، وجميع الأفكار السّرّيّة العابرة التي يتسكّعُ فيها عقلُها الواهنُ.

كان الجوّ حارّا. ليس ثمّت نفَسُ ريحٍ واحد. رؤوس الأشجار تقفُ متصلّبةً. وتطنُّ الجنادبُ واليعاسيبُ. حامت فراشةٌ معلّقة على نسيم شفّاف فوق الفُسحة.التي تُضيئها الشّمسُ. توقّف نقّارُ الخشب عن النّقر. وأصبح طائر الواقواق صامتا. غفوتُ قليلا. ثمّ أيقظتني فجأةً بعض الأصوات. كان الرّجلُ والمرأة متشبّثين ببعضهما البعض،

كما لو أنّهما ينموان من داخل التّربة، متبادلَيْن كلماتٍ لم أفهمها. انفصلا في النّهاية على مضض. ولوّحت لينا الغبيّةُ بيدها. استحثّ لاكْ خطاهُ باتّجاهي، وهو يلتفتُ مرارا إليها وعلى شفتيه ابتسامة حزينةٌ حانية.

في طريقنا إلى البيت، نصبنا المزيد من الفخاخ. كان لاكْ متعبا ومنعزلا. وقد شعر بالارتياح في المساء، عندما نامت كلّ الطّيور في أقفاصها. تحدّث عن لينا باضطراب. ارتجف جسدهُ. وكان يتضاحكُ مغمض العينين، فيما احمرّت وجنتاهُ الفاتحتان والمليئتان بالبثور.

أحيانا تمرّ أيّامٌ عديدة دون أن تظهر لينا الغبيّةُ في الغابة. يصبحُ لاكْ حينئذ مسكونا بغضبٍ مكبوت. يحدّقُ بصرامة في الطّيور التي تمكثُ في أقفاصها، وهو يتمتمُ لنفسه شيئا مّا. وفي النّهاية، بعد تفحّص طويل، يختارُ الطّائر الأقوى. فيقيّده إلى معصمه. ويعدّ دُهانات نتنةً، ذات ألوان مختلفة، يمزجها معا من عناصر عديدة. وعندما يشعر بالرّضى عن الألوان، يدير الطّائر. فيلوّنُ جناحيه ورأسه وصدره بدرجات قوس قزح، حتّى يصبح مُبرقشا ومزركشا أكثر من باقة أزهار برّيّة.

نذهبُ بعد ذلك إلى عمق الغابة، حيث يُخرجُ لاكْ الطّائر الملوّنَ ويأمرني أن أمسك به في يدي وأضغط عليه قليلا. يشرعُ الطّائر في التّغريد والسّقسقة ليجذب سربا من الفصيلة ذاتها، والذي يحلّقُ متوتّرا فوق رأسَيْنا. وإذ يسمعه سجينُنا، يميلُ باتّجاهه مُغرّدا بصوت أعلى، وقلبه المحبوسُ في صدره الملوّن حديثا ينبُضُ بقوّة.

وعندما يتجمّعُ عدد كافٍ من الطّيور فوق رأسينا، يومئ لاكْ إليّ لتسريح السّجين الذي يحلّقُ عاليا، سعيدا وحرّا، بقعةً قزحيّةً إزاء ستار السّحب. ومن ثَمّ، ينغمسُ في السّرب البنّي المنتظِر له. ترتبكُ الطّيور

لوهلة. يطوفُ الطّائر الملوّن من طرفٍ في السّرب إلى آخر، مُحاولا دون جدوى أن يقنع عشيرتهُ أنّه واحد منها. ولكنّها تحلّق حوله مندهشة لألوانه الزّاهية وغير مقتنعة بذلك. يُدفعُ الطّائرُ الملوّنُ بالقوّة أبعدَ فأبعدَ، بينما يحاولُ بحماسة أن ينضمّ إلى صفوف السّرب.

لقد رأينا بعيد ذلك بقليل كيف تنحرف الطّيور الواحد تلو الآخر لتقوم بهجوم عنيف. فيفقدُ الشّكلُ متعدّدُ الألوان سريعا مكانه في السّماء. ويسقط على الأرض. وعندما نعثر في النّهاية على الطّائر الملوّن، نجدهُ عادة ميّتا. يفحصُ لاكْ بدقّة عدد الضّربات التي تلقّاها الطّائرُ. ويسيلُ الدّمُ من بين جناحيه الملوّنين. فيحلّلُ الألوان. ويلطّخُ يدي لاكْ.

لم تعد لينا الغبيّةُ. وكان لاكْ يسحبُ، مستاءً ومتجهّما، الطّائر تلو الآخر من الأقفاص. يدهنها بألوان أكثر إشعاعا. ويسرّحها في الهواء لتقتلها عشيرتها. لقد أمسك ذات يوم بغُداف كبير. فلوّن جناحيه بالأحمر، صدرَهُ بالأخضر وذيله بالأزرق. حين أطلّ فوق كوخنا سرب من الغدفان، أطلق لاكْ سراح الطّائر الملوّن. وما أن التحق بالسّرب حتّى انطلقت معركة عصيبة. هوجم المتحوّل من كلّ الجهات. وأخذ الرّيشُ الأسودُ والأحمرُ والأخضرُ والأزرقُ في السّقوط عند أقدامنا. طارت الغدفانُ مهتاجةً في السّماوات. وهوى الغداف الملوّنُ فجأة على التّراب المحروث حديثا. كان ما يزالُ حيّا، وهو يفتحُ منقارهُ ويحاولُ دون جدوى أن يحرّك جناحيه. لقد فُقِئت عيناهُ. ونزف الدّمُ الحارُّ فوق ريشه الملوّن. ومع ذلك، فقد قام بمحاولة أخرى للرّفرفة فوق الأرض اللّزجة. لكنّ قواهُ كانت قد نفدت.

أصبح لاكْ نحيلا ويطيل المكوث في الكوخ أكثر من العادة، مُحتسيا الفودكا المنزليّة ومُنشدا أغاني عن لينا. وقد يجلسُ أحيانا منفرج السّاقين على سريره، مائلا على الأرضيّة الوسخة. يرسمُ شيئا مّا بعصا طويلة. يتّضحُ محيط الرّسم شيئا فشيئا. كانت صورة امرأة ناهدة ذات شعر طويل.

عندما لم يعد هناك أيّ طائر جديد ليلوّنه، شرع لاكْ في التّسكّع عبر الحقول بقنّينة فودكا تطلّ من تحت سترته. قد أسمعهُ أحيانا، وهو يغنّي بينما أتجوّل هائما في الأنحاء خائفا أن يصيبه مكروه في تلك المستنقعات. صوته العميق الكئيب يصعدُ عاليا وينشر الأسى فوق المستنقعات مثل ضباب شتاء ثقيل. تحلّقُ الأغنيةُ مع أسراب الطّيور المهاجرة. وتصبح فاترة ما أن تدرك الأعماق السّحيقة للغابة.

في القرية، يسخر النّاسُ من لاكْ. ويقولون إنّ لينا الغبيّة قد ألقت عليه تعويذة سحر. ووضعت نارا في خاصرته. نارٌ تدفعه إلى الجنون. يحتجُّ لاكْ على ذلك. ويقذفهم بأبشع اللّعنات. ويهدّدهم بإطلاق الطّيور عليهم لتفقأ عيونهم. لقد اندفع نحوي ذات مرّة. وصفعني على وجهي. كان يصرخ قائلا إنّ حضوري أرهب امرأته. وطردها لأنّها كانت تخافُ من عينيّ الغجريّتين. مكث خلال اليومين اللاّحقين مريضا. وعندما نهض، أعدّ حقيبة ظهره. وحمل معه رغيف خبز. ثمّ ذهب إلى الغابة، وقد أمرني أن أنصب المزيد من الفخاخ. وأصطاد طيورا جديدة.

مرّت أسابيع. ولم تقتنص الفخاخُ التي كنتُ قد نصبتها وفق أوامر لاكْ، في أغلب الأحيان، سوى الغشاء الرّهيف لخيوط العنكبوت الذي يطفو في الهواء. لقد طارت اللّقالق وعصافير السّنونو بعيدا. وأصبحت

الغابةُ مقفرة. وحدها الثّعابينُ والسّحالي ازدادت عددا. وجثمت الطّيور في أقفاصها، تزدادُ انتفاخا وسكونا. ويميلُ لونها إلى الرّماد.

حلّ بعد ذلك يومٌ غائمٌ. وكانت سحبٌ تكادُ لا تبينُ أشكالُها تحجبُ السّماء مثل سرير من الرّيش، يخبّئ الشّمس الشّاحبة. دوّت الرّيحُ فوق الحقول مُذبلةً أكوام الأعشاب. وأحيطت الأكواخُ المرتعدةُ إزاء الأرض بالقشّ الخاوي، المسودّ والبنّيّ بسبب التّعفّن. وفي أسفل الأشجار، حيث أصيبت الطّيورُ المهملةُ من قبلُ، تجلدُ الرّيحُ بقسوة اليباس الرّماديّ للأزهار الشّائكة الطّويلة. وتقطّعه، محرّكة السّويقات المتعفّنة لنباتات البطاطا من مكان إلى آخر.

فجأة، ظهرت لينا الغبيّة، وهي تقود كلبها الضّخم بواسطة حبل. كان سلوكها غريبا. فقد ظلّت تسأل عن لاكْ. وحين أخبرتها أنّه قد رحل منذ أيّام عديدة، وأنّني لم أكن أعرف مكانه، أخذت تبكي ثمّ تضحك بشكل مسترسل، وهي تمشي من ركن في الكوخ إلى آخر، يراقبها الكلبُ والطّيور. لاحظت قبّعة لاكْ القديمة. فحملتها. وضغطتها إزاء وجنتيها. ثمّ انفجرت دموعها. ألقتها بعد ذلك، وبشكل مفاجئ تماما، على الأرضيّة. وأخذت تدوسها بقدميها. عثرت على قنّينة فودكا كان لاكْ قد تركها تحت فراشه. أفرغتها. والتفتت إليّ، محدّقة بمكر. ثمّ أمرتني أن أرافقها إلى المرج. حاولتُ أن أهرب منها. لكنّها صدّتني بواسطة كلبها.

تمتدّ المروجُ مباشرة خلف المقبرة. كانت بضع بقرات ترعى على مقربة. ويجلسُ بعض المزارعين اليافعين ليتدفّؤوا حول نار. ولتتجنّب رؤيتهم لنا، عبرنا سريعا خلال المقبرة. وتسلّقنا جدارا عاليا. وفي الجهة الأخرى، حيث لم يكن باستطاعة أحد أن يرانا، قيّدت لينا الغبيّةُ

كلبها إلى شجرة. هدّدتني بواسطة حزام. وأمرتني أن أخلع سروالي. تملّصت هي الأخرى من كيسها. وعاريةً، سحبتني باتّجاهها.

بعد لحظات من المقاومة والمراوغة، أدنتْ وجهي أكثر من جسدها. وأمرتني أن أتمدّد في الأسفل بين فخذيها. حاولتُ أن أحرّر نفسي. لكنّها سوّطتني بالحزام. فجذبت صرخاتي الرّعاة الآخرين.

لاحظت لينا الغبيّةُ اقتراب مجموعة من المزارعين. ففرّجتْ أكثر بين ساقيها. وتقدّم الرّجالُ ببطء، مُسترقين النّظر إلى جسدها.

أحاطوا بها دون أن ينطق الواحد منهم بكلمة. وشرع اثنان منهما على الفور بإرخاء السّروال، بينما وقف الآخرون متردّدين. ما من أحد فيهم قد أعار انتباها إليّ. أصيب الكلب بحجر. وتمدّد على الأرض يلعقُ ظهره الجريح.

امتطى راع طويل القامة المرأة، بينما ظلّت هي تتلوّى من تحته وتصرخ مع كلّ حركة يقوم بها. كان الرّجلُ يضرب ثدييها بكفّين مفتوحتين. ويميلُ من فوقها. فيعضّ حلمتيها. ويعركُ بطنها. وعندما أنهى وقام عنها، أخذ رجلٌ آخر مكانه. تئنُّ لينا الغبيّةُ. وترتعشُ، وهي تسحبُ الرّجل إليها بذراعيها وساقيها. ربض الرّجالُ الآخرون على مقربة، وهم يحدّقون في المشهد ويتمازحون ويتضاحكون.

ظهر من خلف المقبرة حشدُ نساء من القرية، وهنّ يحملن المجاريف والمعاول. تقودهنّ مجموعة نساء شابّات يصرخن بصوت عال ويلوّحن بأياديهنّ. رفع الرّعاةُ سراويلهم. لكنّهم لم يفرّوا هاربين. وبدلا من ذلك، قاموا بإمساك لينا الغبيّة التي ظلّت تقاومُ دون جدوى. هاج الكلبُ. وشدّ رباطه بقوّة. لكنّ الحبل المتين لم ينحلّ. اقتربت النّساءُ أكثر. جلستُ

عند مسافة آمنة قرب جدار المقبرة. وحينئذ فقط لاحظتُ لاكْ وهو يجري عبر المروج.

لا بدّ أنّه قد عاد إلى القرية. وعلم بما كان يوشكُ أن يحدث. كانت النّساء قريبات جدّا الآن. وقبل أن تجد لينا الغبيّة الوقت الكافي لتنهض، فرّ آخر الرّجال نحو جدار المقبرة. اللّحظةَ، أمسكت بها النّساءُ. ولاكْ ما يزالُ بعيدا. اضطرّ إلى أن يبطئ في عدوه بسبب الإنهاك. كانت خطاه متثاقلة. وقد تعثّر مرّات عديدةً.

أبقت النّساءُ لينا الغبيّة ممدّدة إزاء العشب. جلسن فوق يديها وساقيها. وأخذن يضربنها بالمجاريف. يمزّقن جلدها بأظافرهنّ. يقتلعن شعر رأسها. ويبصقن على وجهها. حاول لاكْ أن يدفعهنّ ليعبر من خلال الحشد. لكنّهنّ سددن طريقه. وحاول أن يقاتل. لكنّهنّ طرحْنَهُ أرضا. وضربنه بشكل عنيف. توقّف عن المقاومة. فأدارته عدّة نساء على ظهره. وامتطينهُ. قتلت النّساءُ بعد ذلك كلب لينا بضربات وحشيّة من المجاريف. مكث المزارعون جالسين فوق الجدار. وعندما اقتربوا منّي أكثر، نأيتُ بنفسي، مُتأهّبا للفرار إلى المقبرة في أيّ لحظة، حيثُ يمكنني أن أكون آمنا بين القبور. فقد كانوا يخشون الأرواح والغيلان التي يُشاعُ أنّها تقيمُ هناك.

تمدّدت لينا الغبيّةُ وهي تنزفُ. ظهرت كدماتٌ زرقاء على جسدها المعذّب. تأوّهت بصوت عال. وتقوّس ظهرُها. وارتعشت، مُحاولِةً دون جدوى أن تحرّر نفسها. اقتربت إحدى النّساء الآن، وهي تحملُ في يدها قنّينة ذات فلّين تحتوي على الرّوث. ومصحوبةً بضحكات صاخبة وصراخ عال ومشجّع لها من الأخريات، انحنت على ركبتيها

بين ساقي لينا. وحشت القنّينة كلّها في شقّها المنتهَك والمعنَّف، بينما شرعت الأخرى في التّأوّه والعويل مثل وحش، أمام عيون النّساء اللّواتي يراقبن المشهد في هدوء. وفجأة، ركلت إحداهنّ قعر القنّينة بكامل قوّتها، حتّى نتأت من مِغْبَن[7] لينا الغبيّة. سُمع صوتٌ مكتومٌ لانكسار زجاج في الدّاخل. واجتمعت كلّ النّساء الآن، وهنّ يركلن لينا، بينما تدفّق الدّم حول أحذيتهنّ وعضلات سيقانهنّ. وعندما توقّفت المرأة الأخيرة عن الرّكل، كانت لينا قد أصبحت ميّتة.

هدأ غيظهنّ. فعُدن إلى القرية وهنّ يثرثرن بصوت عال. قام لاكْ ووجهه مُدمّى. عرج على ساقيه المنهكتين. وبصق عدّة أسنان من فمه. رمى بنفسه على المرأة الميّتة، وهو ينتحبُ. لمس جسدها المشوّه. ورسم شارة الصّليب على جسده، مُتمتما كلمات عبر شفتيه المتورّمتين.

جلستُ مُقرفصا وجامدا فوق جدار المقبرة، دون أن أجرؤ على الحركة. أظلمت السّماءُ ومال لونها إلى الرّماد. كان الموتى يهمسون متسائلين عن روح لينا الغبيّة الهائمة، التي تتوسّلُ الآن الرّحمة والمغفرة لجميع ذنوبها. أطلّ القمرُ. وكان ضوؤهُ الباردُ، الشّاحبُ، والمستنفدُ لا ينيرُ سوى الشّكل القاتم للرّجل الرّاكع على ركبتيه والشّعر الأشقر للمرأة الميّتة الممدّدة على الأرض.

نمتُ. واستيقظتُ عدّة مرّات متعاقبة. ظلّت الرّيحُ تدوّمُ فوق القبور مُعلّقة الأعشاب النّديّة فوق أذرعة الصّلبان. أنّت الأرواحُ. وكان بالإمكان سماع عواء الكلاب في القرية.

---

(7) المغبنُ: منطقة بين البطن والفخذ. (المترجم)

عندما استيقظتُ أخيرا، كان لاكْ ما يزال راكعا على ركبتيه عند جثّة لينا، وظهره المحنيُّ يختضُّ من النّشيج. تحدّثتُ إليه. لكنّه لم يعرني أيّ اهتمام. خفتُ كثيرا من العودة إلى الكوخ. ولذلك عزمتُ على الرّحيل. اندفع من فوقنا سربُ طيور تسقسقُ وتهتفُ من كلّ الجهات.

6

كان النّجّارُ وزوجتهُ مقتنعيْن تماما أنّ شعري الأسودَ سيجلبُ على الأرجح البرق إلى مزرعتهما. صحيحٌ أنّه في اللّيالي الجافّة الحارّة، عندما ينقر النّجّارُ شعري بحجر صوّان أو مشط عظميّ، يقفزُ شررٌ أصفر مزرقٌّ فوق رأسي مثل "قمل الشّيطان". ولطالما هبّت في القرية، وبشكل مفاجئ، عواصفُ هائجةٌ تُضرمُ النّيران وتتسبّبُ في مقتل النّاس والماشية. يوصفُ البرقُ دائما بكونه سهما ناريّا عظيما يلقى من السّماوات. ومع ذلك، لم يقم القرويّون بأيّ محاولة لإطفاء هذه النّيران، معتقدين أنّه ما من قوّة بشريّة يمكنها أن تُخمدها، تماما مثلما لا يمكنُ إنقاذ شخص أصابهُ البرقُ. يُقال إنّهُ حين يُصيبُ البرقُ بيتا مّا، فإنّهُ يندفعُ عميقا في الأرض، حيثُ يجثمُ في صبر وتتزايدُ قوّتهُ. ويجلبُ كلّ سبع سنوات ضربة جديدة إلى نفس المكان. وحتّى الأشياءُ التي تُنقذُ من بيت محترق، تكون ممسوسة وبإمكانها أن تستقدم برقا جديدا.

عادةً، عند الغسق وعندما يشرعُ لهبُ الشّموع ومصابيح الكيروزين الهزيلُ في الوميض داخل الأكواخ، تنحجبُ السّماءُ بسحب متبلّدة ثقيلة تبحرُ بشكل مائل فوق سقوف القشّ. يصبحُ أهل القرية حينئذ صامتين. يحدّقون بخوف من خلف النّوافذ، مصغين إلى الهدير المُتنامي. تتوقّفُ النّساء المسّناتُ، اللّواتي يُقرفصن عند المواقد المتصّدع قرميدُها، عن

الصّلاة. فيتساءلن عمّن سيُكافئهُ القديرُ هذه المرّة ومن سيعاقبهُ الشّيطانُ الحاضر دائما. وعليه، ستحلّ النّارُ والدّمارُ والموتُ والمرضُ المُشِلُّ. أنينُ الأبواب التي تصرُّ وتنهّد الأشجار المحنيّة بالعاصفة وصفير الرّيح، تُدركُ كلّها سمع القرويّن كما لو أنّها لعنات المذنبين الموتى منذ زمن بعيد، المعذّبين بعدم اليقين من مصيرهم في الحافّة(*) أو الذين يُصْلَون ببطء في نيران الجحيم التي لا تنتهي.

يلقي النّجّار في لحظات كهذه، بشكل مباغت، سترةً سميكةً فوق كتفيه. وإذ يرسمُ شارةَ الصّليب على جسده مرّات عديدةً، يعقدُ سلسلةً متينة ذاتِ قُفْل حول كاحلي. ثمّ يوثق طرف السّلسلة الآخر بسرج قديم بالٍ. ومن ثَمَّ، يضعُني على عربة أثناء الهبوب المُرعِدِ ووسطَ الصّواعق التي تومضُ. فيضربُ ثوره بشكل محموم، ليقودني خارج القرية إلى حقل بعيد. ويتركني هناك، بعيدا عن الأشجار والمساكن البشريّة. وكان النّجّارُ يعلمُ جيّدا أنّ السّلسلة والسّرج سيمنعانني من العودة إلى الكوخ.

مكثتُ وحيدا، خائفا ومُصغيا إلى صوت العربة المتراجعة. ومض البرقُ قريبا منّي. فكشف فجأة حوافّ الأكواخ البعيدة التي اختفت لاحقا، كما لو أنّها لم توجد أبدا.

يسودُ المكانَ للحظة ركودٌ عجيبٌ. فتثبُتُ حياةُ النّباتات والحيوانات في مكانها. ومع ذلك، مازال بإمكاني أن أسمع أنين الحقول الخاوية وجذوع الأشجار ونشيجَ المروج. يزحفُ المستذئبون حولي في الغابة متقدّمين. تقتربُ شياطنُ شفّافةٌ بأجنحة تخفقُ من

---

(8) في النّصّ الأصليّ .**Limbo** تجاورُ اللّفظةُ مفهوم الأعراف في الثّقافة الإسلاميّة. لكنّها تشير، ضمن تصوّرٍ يخصُّ الحياة الآخرة عند لاهوتيّين من العصور الوسطى في أوروبا الغربيّة، إلى حالة أولئك الذين ماتوا منخرطين في الخطيئة الأصليّة دون أن يُحكم عليهم بجحيم الملعونين. ومعنى الكلمة في أصلها الاشتقاقيّ اللاّتينيّ الحافّة. (المترجم)

المستنقعات التي يتصاعدُ منها البُخارُ. وتتضاربُ غيلانُ المقبرة التّائهة في الهواء بعظام يُدوّي ارتطامُها في الأرجاء. شعرتُ بلمساتها الجافّة على جلدي. وأحسستُ بالعبور المرتعد والنّسائم الجليديّة لأجنحتها المتجمّدة. توقّفتُ عن التّفكير مرعوبا. وألقيتُ بنفسي على الأرض في البِرك المنتشرة، أجرّ السّرج المغمور بالماء من سلسلته. ومن فوقي الرّبُّ نفسهُ، متمدّدا ومعلّقا في الفضاء، يُوَقِّتُ العرض الرّهيب بساعته الأبديّة. وبينهُ وبيني تتعمّقُ اللّيلةُ المعتمةُ.

أصبح بالإمكان الآن لمسُ الظّلام والإمساكُ به مثل حصاة دمٍ متخثّر يلطّخُ وجهي وجسدي. لقد شربتُ منه. ابتلعتُهُ. واختنقتُ به. وقد رسم من حولي طرُقا جديدةً. وحوّل الحقل المسطّح إلى هوّةٍ لا قعر لها. أقام جبالا وعرةً وتلالاً قاسيةً. وملأ الأنهار والوديان. وفي عناقه تهلكُ القرى، الغاباتُ، مزاراتُ الطّريق والأجسادُ البشريّةُ. وفي ما وراء حدود المعلوم، كان الشّيطانُ جالسا يفرقعُ برقا أصفر كبريتيّا، مُطلقا صواعق مدوّية من خلف السّحب. كلُّ صاعقة رعديّة تخضُّ الأرضَ حتّى جوفِها. وتدفع السّحب إلى الغرق سُفُلاً أكثر فأكثر، إلى أن حوّل جدارُ المطر الغزير كلَّ شيء إلى مستنقع مائيّ.

بعد ساعات لاحقة، عند الفجر، وعندما يُفضي القمرُ ذو البياض العظميّ المكانَ إلى الشّمس الموحشة، يقودُ النّجّارُ عربتهُ إلى الحقول. ويعودُ بي إلى الكوخ.

ذات مساء عاصف، مرِض النّجّارُ. وكانت زوجته ترفرفُ من حوله. وتعدُّ لهُ عصائر مُرّةً. ولم يكن بإمكانها أن تكلّف نفسها مشقّة أن تقودني

إلى خارج القرية. وعندما دوّت الصّاعقة الأولى، اختبأتُ في الإسطبل تحت أكوام التّبن.

هزَّت الإسطبلَ لوهلة زلزلةُ رعد خارقة. وبعد وقت وجيز، اضطرم أحد الجدران بالنّار. وأشعّ اللّهبُ العالي من خلال الألواح المكسوّة بالرّاتنج. هاجت النّارُ وقد ذرّتها الرّياحُ بقوّة. وامتدّت أطرافُ أجنحتها الطّويلة إلى الكوخ وحظيرة البقرات.

اندفعتُ إلى الفناء مرتبكا تماما. وبين الأكواخ المحيطة، انقذف النّاسُ في الظّلام. خاضت القريةُ. وسُمع الصّراخُ من كلّ الجهات. كان حشدٌ من النّاس المذهولين يجرون، حاملين الفؤوس والمجاريف، نحو إسطبل النّجّار المحترق. عوت الكلابُ. وصارعت النّساءُ الحاملاتُ أطفالهنّ الرّضّع بين أذرعتهنّ ليبقين تنانيرهنّ منخفضة. فقد كانت الرّيحُ ترفعها بلا حشمة فوق وجوههنّ. لقد اندفع كلّ كائن حيّ في القرية إلى الخارج. كانت البقراتُ تخورُ هائجةً، رافعة أذيالها إلى أعلى. تتلقّى ضربات بمقابض الفؤوس وشفرات المجاريف. فتعدو هاربة بينما تحاولُ العجول النّحيلة بقوائمها المرتعشة أن تتمسّك، دون جدوى، بضروع أمّهاتها. اندفعت الثّيران بقوّة مُخفضة رؤوسها الثّقيلة إلى أسفل، تدوس بقوائمها على الأسيجة وتكسر أبواب الإسطبلات، مصطدمة في ذهول بجدران المنازل اللاّمرئيّة. أمّا الدّجاجُ المسعورُ فقد كان يتناثر عاليا في الهواء.

شرعتُ في الجري بعد زمن وجيز. وقد اعتقدتُ أنّ شعري هو الذي جلب البرق إلى الإسطبل والأكواخ وأنّ الحشد سيقتلني دون شكّ إذا ما رآني.

مُصارعا الهبوب العاصفَ، مُتعثّرا فوق الحجارة، وساقطا وسط الخنادق والحفر المغمورة بالمياه، وصلتُ إلى الغابة. عبرت العاصفةُ

حين كنتُ قد عدوتُ بعيدا حتّى أدركتُ مسلك السّكك الحديديّة. واستبدلت مكانها بليلة مليئة بالأصوات العالية لانهمار المطر الغزير. عثرتُ على حفرة آمنة في دغل مجاور. مكثتُ هناك، مُصغيا لاعترافات الطّحالب. وانتظرتُ اللّيل بطوله.

ثمّت قطار من المفترض أن يمرّ من هنا عند الفجر. تُستخدمُ سكّة القطار أساسا لنقل الخشب من محطّة إلى أخرى، على بعد أميال عديدة. وتحملُ العربات أكوام الخشب تجرّها قاطرة صغيرةٌ بطيئةٌ. عندما اقترب القطارُ، أخذتُ أجري لفترة حتّى بلغتُ العربة الأخيرة. قفزتُ بخطوة خفيضة. وتعلّقتُ بها، محمولا أبعدَ إلى عمق الغابة الآمن. بعد فترة، لاحظتُ قسما مسطّحا من السّدّ. فقفزتُ إلى أسفل. وغطستُ في النّباتات المتشابكة، دون أن يلاحظني الحارسُ في القاطرة الرّئيسيّة.

بينما كنتُ أمشي عبر الغابة، اكتشفتُ مسارا معبّدا، مكسوّا بالطّحالب ودون شكّ مهجورا منذ زمن بعيد. وفي نهايته يلوحُ ملجأ عسكريّ مهجورٌ بجدران هائلة من الخرسانة المسلّحة.

خيّم في المكان صمتٌ مطلقٌ. اختبأتُ خلف شجرة. وألقيتُ حجارة على الباب المغلق. فارتدّت إلى الخلف. رجع الصّدى سريعا. ومن ثمّ عاد السّكونُ مجدّدا. أخذتُ أطوف بالملجأ. فتقعُ قدماي على صناديق ذخيرة مكسورة وأجزاء معدنيّة وعلب صفيح فارغة. أتسلّقُ وصولا إلى شرفة علويّة، ومن ثَم إلى الأعلى تماما، حيثُ وجدتُ علبا ملويّة ومدخلا واسعا. عندما انحنيتُ على الفتحة، شممتُ رائحة التّعفّن والرّطوبة الكريهة. سمعتُ من الدّاخل صوت صرير مكتوم. التقطتُ خوذة قديمة. وألقيتها عبر المدخل. فتضاعف الصّريرُ والطّقطقةُ. أخذتُ ألقي بشكل متسارع قطعا من الطّوب في الفجوة، تعقُبُها أجزاءُ أطواق معدنيّة

من الصّناديق وكتل الخرسانة. فعلا صوت الطّقطقة أكثر من قبلُ. كانت هناك حيواناتٌ تعيشُ وتتخبّطُ في الدّاخل.

وجدتُ قطعة من صفيحة معدنيّة ملساء تعكسُ شعاعا شمسيّا إلى الدّاخل. أصبحتُ أرى بوضوح الآن. برزت هناك تحت الفتحة عدّة قوائم تتدحرجُ إلى الأمام وتتراجع، بحرا أسود متماوجا من الجرذان. تهتزُّ هذه المساحةُ بإيقاع غير منتظم. تتلألئ فيها عيون لا نهاية لها. يكشفُ النّور ظهورا مبلّلة وأذيالا بلا شعر. ومرارا وتكرارا، تُهاجمُ دزينةٌ من الجرذان الهزيلة، مثل موجة مندفعة، الحائط الدّاخليّ الأملسَ للملجأ، فقط لترتدّ من جديد على أشواك الآخرين.

حدّقتُ في هذه الكتلة المتماوجة. فرأيتُ كيف تقتلُ الجرذانُ وتأكلُ بعضها البعض. تنقضُّ. فتعضُّ بشراسة قطع اللّحم ومِزَقَ الجلد من بعضها. أغرى تدفّقُ الدّم الجرذانَ بالقتال أكثر. حاول كلّ جرذ أن يتوصّل إلى الخروج من هذه الكتلة الحيّة التي يتنافسُ أفرادُها من أجل مكانٍ في القمّة ومحاولةٍ أخرى لتسلّق الجدار وقطعةٍ أخرى ممزّقة من إحدى المؤخّرات.

أسرعتُ. فغطّيتُ الفتحة بواسطة لوح قصديريّ. واستعجلتُ طريقي، مُكملا رحلتي عبر الغابة. وأثناء السّير، أكلتُ من التّوت ملء بطني. كنتُ أرجو أن أدرك قريةً قبل الغسق.

وفي نهاية المساء، بينما كانت الشّمسُ تغربُ، لمحتُ أولى المباني الزّراعيّة. وحين اقتربتُ، قفزت بعضُ الكلاب من خلف السّياج. واندفعت نحوي. فانحنيتُ جاثما أمامهُ. ولوّحتُ بيديّ بقوّة، قافزا مثل ضفدع، أصرخُ وأقذفُ الحجارة. توقّفت الكلابُ مندهشةً، غير متيقّنة ممّن أكون وكيف ينبغي عليها أن تتصرّف. لقد اكتسبَ كائنٌ

بشريّ، وبشكل مفاجئ، أبعادا مجهولة بالنّسبة إليها. وبينما كانت تحدّقُ فيّ مذهولةً، وخطومُها ملتوية جانبا، قفزتُ من فوق السّياج.

لقد دفعَ نُباحُها وصراخي صاحب الكوخ إلى الخارج. وعندما رأيتهُ، تيقّنتُ على الفور أنّني، ولسوء الحظّ، عدتُ إلى نفس القرية التي كنتُ قد فررتُ منها أمسِ. كان وجهُ المزارع مـألوفا بالنّسبة إليّ، مألوفا جدّا. لقد رأيته من قبلُ مرارًا في كوخ النّجّار.

تعرّف عليّ على الفور. وصرخ قائلا شيئا مّا لعاملٍ في المزرعة، والذي اندفع باتّجاه كوخ النّجّار، بينما مكث مزارعٌ آخر يراقبني، مُمسكا بالكلاب في قيودها. ومن ثمَّ، جاء النّجّارُ تتبعهُ زوجتهُ.

أوقعتني الضّربةُ الأولى من السّياج عند قدميه. رفعني. وأمسك بي كي لا أسقط مجدّدا. وراح يصفعني مرارا وتكرارا. ثمّ جرّني إلى مزرعته، وهو يقبضُ عليّ مثل قطّ من رقبتي، باتّجاه الرّائحة المتفحّمة لأنقاض الحظيرة المحترقة. وبمجرّد أن وصلنا، ألقى بي على كومة من السّماد. وجّه لي ضربة أخرى على رأسي. فأغمي عليّ على الفور.

عندما استعدتُ وعيي، كان النّجّارُ واقفا على مقربة، يعدُّ كيسا ضخما. وتذكّرتُ أنّه اعتاد أن يُغرق القطط المريضة في كيس كهذا. ارتميتُ عند قدميه مُتوسّلا. لكنّ المزارع ركلني بعيدا، دون أن ينطق بكلمة. واستمرّ في إعداد الكيس بهدوء.

فجأة، تذكّرتُ أنّ النّجّار قد حدّثَ مرّةً زوجته عن مقاتلين عسكريّين خبّؤوا غنائم الحرب وذخائرهم في ملاجئ قديمة. زحفتُ باتّجاهه مجدّدا. وقد أقسمتُ لهُ هذه المرّة أنّه في حال لم يغرقني سأكشفُ له عن مكان

مأوى عسكريّ مليء بالأحذية والأزياء النّظاميّة والأحزمة، كنتُ قد اكتشفتهُ أثناء هروبي.

لقد حزتُ على انتباه النّجّار، رغم أنّه تظاهر بعدم تصديقي. قرفص بجانبي. وأمسكني بقوّة. فكرّرتُ عرضي لهُ، مُتفاديا بقدر استطاعتي أيّ نبرة عاطفيّة، ومُحاولا أن أؤكّد له القيمة الكبيرة للأشياء التي أعده بها.

في الفجر، أوثق ثورا بعربته. وقيّدني بواسطة حبل إلى يده. حمل معهُ فأسا كبيرةً. ودون أن يقول شيئا لزوجته وجيرانه، غادر بصحبتي.

حفرتُ في الطّريق دماغي تفكيرا في طريقةٍ أنفلتُ بها. كان الرّباطُ متينا. وبعد أن وصلنا، أوقف النّجّارُ العربة. ومشينا باتّجاه المأوى. تسلّقنا حتّى أدركنا السّقف السّاخن. لوهلةٍ، كنتُ أتصرّفُ كما لو أنّني نسيتُ اتّجاه المدخل. بلغناهُ في النّهاية. فأزاح النّجّار بلهفة اللّوح القصديريّ. أصابت الرّائحةُ النّتنةُ أنفينا. وأطلقت الجرذان من الدّاخل صريرا حادّا إذ جهرها النّور. انحنى المزارعُ على الفتحة. لكنّه لم يستطع حتّى الآن أن يرى، لأنّ عينيه لم تألفا الظّلمة بعدُ.

انتقلتُ ببطء إلى الجهة الأخرى من الفتحة، والتي صارت الآن تفصل النّجّار عنّي. وقد سحبتُ بقوّة الحبل الذي يقيّدني. عرفتُ أنّني إذا لم أتوصّل إلى الهروب خلال الثّواني القليلة التّالية، فإنّ المزارع سيقتلني ويلقي بي إلى الأعماق.

أصبتُ بالذّعر. فسحبتُ الحبل بشكل مفاجئ وبقوّة رهيبة إلى درجة أنّه شقّ معصمي حتّى العظم. سحبتْ قفزتي المفاجئةُ النّجّارَ إلى

الأمام. حاول النّهوض. صرخ. لوّح بيده. ثمّ سقط في جوف العلبة مُحدثا صوتا مكتوما. دستُ بقدمي على شفير الخرسانة النّاتئ، حيث تقع فوقها البلاطةُ. فانشدّ الحبلُ أكثر. وانكشط إزاء الحافّة القاسية للفتحة. ومن ثمَّ انقطع. وفي نفس الوقت، سمعتُ صراخ الرّجل وبكاءاته المنكسرة قادمةً من الأسفل. هزّت رعشةٌ خفيفةٌ الجدران الخرسانيّة للملجإ. زحفتُ مرعوبا باتّجاه الفتحة، مُتّجها إلى وسط حزمة من الضّوء تعكسها قطعةٌ من صفيح القصدير.

لم يكن يُرى من جسد النّجّار الضّخم سوى جزءٍ فحسب. اختفى وجههُ ونصفُ ذراعيه تحت سطح بحر الجرذان. وموجةً بعد أخرى، كانت هذه الجرذانُ تتزاحمُ فوق بطنه وساقيه. اختفى الرّجلُ كلّيّا. وقد أزبد بحرُ الجرذان أكثر من قبلُ حتّى. أصبحت الأردافُ المتحرّكة للجرذان ملطّخة بدمٍ أحمر بُنّيّ. تتقاتلُ الحيواناتُ الآن من أجل النّفاذ إلى الجسد، لاهثةً، نافضةً أذيالها، بينما تلمعُ أذيالُها تحت أنوفها نصف المفتوحة. وتعكسُ عيونها ضوء النّهار، كما لو كانت خرز مسبحة.

شاهدتُ هذا العرض كأنّني شخص مشلول، غير قادر على أن أجرّ نفسي إلى الخارج بعيدا عن حافّة الفتحة، مُفتقرا إلى قوّة الإرادة لأحجبها بلوح القصدير. فجأةً تنحّى بحرُ الجرذان المتنقّلُ. وفي بطء، بضربة سبّاح، ارتفعت يدٌ عظميّةٌ ذاتُ أصابع عظميّة منتشرة كالنّسر، تتبعها ذراعُ الرّجل بأكملها. مكثت ساكنةً لوهلة فوق الجرذان المُسارعة إلى أسفل. ولكن ألقت وثبةُ الحيوانات المتدافعة فجأة هيكل النّجّارِ العظميَّ الأبيضَ المزرقَّ على السّطح، منزوع اللّحم جزئيّا ومكسوّا بشكل جزئيّ كذلك بمزقٍ من الجلد المحمرّ والملابس الرّماديّة. فيما بين الضّلوع، تحت الإبطين

وفي مكان البطن سابقا، تتقاتلُ قوارضُ هزيلةٌ بشراسة من أجل نُتف عضلات وأمعاء متدلّية. وإذْ يجنّنها النّهمُ، تمزّقُ من بعضها البعض أجزاء من الملابس والجلد وكتلا صغيرة من الجذع. تغوصُ في مركز جسد الرّجل لتقفز خارجهُ من خلال ثقب آخر مقضوم. لقد غرقت الجثّةُ تحت اندفاعات متجدّدة. وعندما بلغت لاحقا السّطح المتعرّج الدّامي، كانت قد أصبحت هيكلا عظميّا عاريا.

أمسكتُ بفأس النّجّار في ذعر. وهربت من المكان. أدركتُ العربة منقطع الأنفاس. كان الثّور الذي لم يشكّ في أيّ شيء يرعى بهدوء. قفزتُ على المقعد. وسحبتُ الزّمام. لكنّ الحيوان لم يرد أن يتحرّك دون سيّده. نظرتُ إلى الخلف، متيقّنا أنّ حشد الجرذان سيندفع ملاحقا لي في أيّ لحظة. فضربتُ الثّور بالسّوط. التفت إلى الخلف مرتابا ومتردّدا. لكنّ الضّربات القليلة التّالية قد أقنعتهُ أنّنا لن ننتظر النّجّار.

اهتزّت العربةُ بضراوة فوق مسارات الطّريق المهجور. ومزّقت العجلاتُ الشّجيرات وسحقت الأعشاب النّابتة عبر المسالك. لم تكن الطّريقُ مألوفة بالنّسبة إليّ. ولم أكن أحاولُ سوى الابتعاد قدر الإمكان عن المأوى وقرية النّجّار. كنتُ أقودُ بوتيرة محمومة خلال الغابات والفسحات، مُتجنّبا الطّرقات التي تحملُ آثارا حديثة لعربات المزارعين. وعندما هبط اللّيلُ، واريتُ العربة بالشّجيرات. وذهبتُ لأنام في المقعد.

قضّيتُ اليومين التّاليين مسافرا. ازداد الثّورُ هزالا. وصغُر وسطُه. ولكنّني كنتُ أسرعُ أكثر فأكثر، إلى أن صرتُ متيقّنا أنّني قد ابتعدتُ بما يكفي.

كنّا نقتربُ من قرية صغيرة. قدتُ العربة باتّجاهها في هدوء. وتوقّفتُ عند أوّل كوخ وصلتُ إليه، حيثُ رسم مزارعٌ شارة الصّليب على جسده أوّل ما لمحني. عرضتُ عليه العربة والثّور مقابل المأوى والطّعام. فحكّ رأسه قليلا. واستشار زوجته وجيرانه. ثمّ وافق في النّهاية بعد أن تفقّد بريبة أسنان الثّور وأسناني.

7

تقعُ القريةُ بعيدا عن طريق السّكّة الحديديّة والنّهر. تأتي كتائبُ عسكريّة ألمانيّة، ثلاث مرّات في السّنة، لتجمع الموادّ الغذائيّة واللّوازم التي كان المزارعون مضطرّين إلى توفيرها للجيش.

لقد تمّ الاحتفاظُ بي في بيت حدّادٍ كان هو أيضا رئيس المزارعين في القرية، مُحترَما جدّا ومُبجَّلا من قبل القرويّين. ولهذا السّبب عوملتُ بشكل أفضل هنا. ومع ذلك، من حين إلى آخر، عندما ينغمسُ المزارعون في السّكر، يشرعون في القول إنّ المصائب ستحلُّ بسببي على الجماعة وإنّ الألمان، إذا ما علموا بأمر الفتى الغجريّ الشّقيّ، فإنّهم سيعاقبون القرية كلّها. ولكن ما من أحد تجرّأ على قول هذه الأشياء مباشرةً في وجه الحدّاد. وبشكل عامّ لم يكن يضايقني أحدٌ. وصحيحٌ أنّ الحدّاد يحبُّ أن يصفع وجهي عندما يكونُ مخمورا وأعترضُ طريقهُ. ولكن لم تكن هناك تبعاتٌ أخرى. يفضّلُ العاملان التّعارُك فيما بينهما على أن يضايقاني. كما أنّ ابن الحدّاد المعروف في القرية ببطولاته العاطفيّة يكادُ لا يكونُ موجودا أبدا في المزرعة.

باكرا كلّ صباح، تمنحني زوجةُ الحدّاد كأسا من حساء البورش وقطعة من الخبز اليابس، الذي يكتسبُ نكهةً ما أن يُغمس في الحساء، بينما يفقدها البورش سريعا. أشعلُ مذنّبي بعد ذلك. وأقودُ الماشية نحو المراعي، مُتقدِّما على قطعان البقر الأخرى.

في المساء، تتلو زوجةُ الحدّاد صلواتها، بينما يشخرُ هو أمام الموقد. يهتمُّ العاملان بالماشية. ويجوسُ ابنُه في أنحاء القرية. تقدّمُ لي الزّوجةُ سترة زوجها لفلْيها من القمل. أجلسُ في أكثر مكانٍ مُضاء في الغرفة. أطوي السّترة في عدّة مواضع على امتداد ثنايا الخياطة. وأصطادُ الحشرات البيضاء المتحرّكة ببطء والممتلئة دما. ألتقطها. وأضعها على الطّاولة. ثمّ أسحقها بأظافري. عندما يكونُ عددُ القمل كبيرا بشكل استثنائيّ، تنضمّ إليّ زوجةُ الحدّاد إلى الطّاولة. فتدحرجُ قنّينة. وتدعكها فوق القمل ما أن أضع البعض منها هناك. تفرقعُ القملاتُ مُحدثةً صوت طقطقة. وتتمدّدُ أجسادُها المفلطحةُ في أحواض صغيرة من الدّم القاتم. أمّا تلك التي تسقطُ على الأرضيّة الوسخة، فتندفع مبتعدةً في كلّ الاتّجاهات. كان من المُستحيل تقريبا سحقها تحت القدم.

لم تكن الزّوجةُ تسمحُ لي بقتل القمل وبقّ الفراش كلّه. فكلّما عثرنا على قملة كبيرة ونشيطة، تلتقطها هي بعناية. وتلقي بها في كأس وُضعت جانبا لهذا الأمر. عادة، حين يبلغُ عدد القمل من هذا النّوع دزينةً، تأخذها الزّوجةُ. وتعركُها في عجينة. وتُضيفُ إليها شيئا من البول البشريّ وبول الأحصنة وقدرا كبيرا من سماد الرّوث وعنكبوتا ميّتا وقبضة من براز القطط. تعتبرُ هذه الوصفةُ أفضل دواء لآلام البطن. وعندما يعاني الحدّادُ من آلام بطنه المعتادة، كان عليه أن يتناول عدّة كرات من هذا الخليط، ممّا يدفعهُ إلى التّقيّؤ -وكما تؤكّدُ زوجتُهُ- إلى الانتزاع الكلّيّ للمرض الذي يفرّ سريعا من جسده. ومتعبا من التّقيّؤ والارتجاف مثل قصبةٍ، يتمدّدُ على الحاشية عند قدم الموقد. ويلهثُ مثل كِير. يُمنحُ حينئذٍ ماء دافئا قليلا وعسلا يهدّئانه. ولكن إذا لم يتلاشى الألمُ والحمّى، تعدُّ لهُ زوجته المزيد

من الدّواء. تطحنُ عظام أحصنة حتّى يصير دقيقا ناعما. تخلطهُ ببقّ الفراش ونمل الحقول الذي يشرعُ في القتال فيما بينه. ثمّ تُضيفُ إليه عدّة بيضات من بيض الدّجاج. وتزيدُ خيطا دقيقا من الكيروزين. كان على المريض أن يبتلعها كلّها في جرعة كبيرة واحدة، ليُكافئ فيما بعدُ بكأس فودكا وقطعة نقانق.

من حين إلى آخر، كان الحدّادُ يستقبلُ ضيوفا غامضين يعتلون الأحصنة ويحملون معهم البنادق والمسدّسات. يفتّشون المنزل. ومن ثمَّ، يجلسون إلى طاولة بصحبة الحدّاد. وفي المطبخ، أعدُّ أنا وزوجة الحدّاد قناني الفودكا المخمّرة في المنزل وشرائح من النّقانق المتبّلة وجبنا وبيضا مسلوقا بشكل جيّد وشرائح من لحم الخنزير المحمّص.

كان الرّجالُ المسلّحون كتائب عسكريّة. يأتون إلى القرية في أحيان كثيرة، دون سابق إنذار. وأكثر من ذلك، يتقاتلون فيما بينهم. شرح الحدّادُ لزوجته أنّ الكتائب قد انقسمت إلى فصيلين: "البيضُ" الذين يريدون قتال الألمان والرّوس معا، و"الحمر" الذين يرغبون في مساعدة الجيش الأحمر.

تُتداولُ في القرية شائعاتٌ عديدةٌ. يُقالُ إنّ البيض يريدون كذلك أن يحتفظوا بالملكيّة الخاصّة للأراضي، تاركين ملاّكي الأراضي على حالهم. أمّا الحمر المدعومون من الرّوس، فيقاتلون من أجل الإصلاح الزّراعيّ. ويبحثُ كلّ فصيل عن مزيد العون من القرى.

لقد انتقم البيضُ المتعاونون مع ملاّكي الأراضي من كلّ من يُشتبهُ في مساعدته للحُمر. وفي المقابل، يؤيّدُ الحمرُ الفقراء. ويقومون

بمعاقبة كلّ القرى التي تقدّمُ أيّ مساعدة للبيض. كما أنّهم اضطهدوا عائلات الفلاّحين الأثرياء.

قامت القوّات الألمانيّة كذلك بتفتيش القرية واستجواب المزارعين فيما يخصّ زيارات الكتائب. كما أنّهم أطلقوا الرّصاص على فلاّح أو اثنين، رسالةً موجّهة للآخرين. في مثل هذه الحالات، يخبّئني الحدّادُ في قبو البطاطا، بينما يحاولُ هو نفسُهُ أن يهدّئ القادة الألمان، واعدا إيّاهم بتسليم الموادّ الغذائيّة في الوقت المحدّد مع حمولات إضافيّة من الحبوب.

قد تهاجمُ الفصائلُ بعضها البعض أحيانا. وتتقاتلُ خلال زيارة القرية، لتصبح القريةُ حينئذ ساحة معركة. تهدر المدافع الرّشّاشةُ. تنفجرُ القنابلُ اليدويّةُ. تضطرمُ الأكواخُ بالنّيران. تخورُ الماشيةُ والأحصنة المهملةُ. ويصرخُ الأطفالُ أنصافُ العراة. يختبئ المزارعون في الأقبية مُحتضنين نساءهم المتضرّعات للرّبّ. وتهذي نساءٌ مسنّاتٌ عمشاواتٌ وصمّاواتٌ بصلوات غير مفهومة للرّبّ. ويرسمن شارة الصّليب على أجسادهنّ بأيديهنّ ملتهبةِ المفاصل. ويتّجهن مباشرةً نحو نيران المدافع الرّشّاشة، وهنّ يلقين اللّعنات على المقاتلين ويسألن السّماء أن تنتقم منهم.

بعد المعركة، تعود القريةُ ببطئ إلى الحياة. ولكن تنشأ معاركُ بين المزارعين والصّبية أنفسهم من أجل الأسلحة والأزياء والأحذية العسكريّة التي خلّفتها الكتائبُ. كما تستمرّ الجدالاتُ حول المكان الذي ينبغي أن يدفن فيه القتلى ومن يجدر به أن يحفر القبور. وقد تمرّ أيّامٌ من الجدال بينما تتفكّكُ الجثث. تتشمّمُها الكلابُ في النّهار. وتمضغها الجرذانُ في اللّيل.

أيقظتني ذات ليلة زوجةُ الحدّاد. واستحثّتني على الهروب. كدتُ لا أجد وقتا لأقفز من الفراش قبل أن تُسمع أصوات ذكوريّة وأسلحةٌ صاخبةٌ حول الكوخ. اختبأتُ في العلّيّة بكيس ملقى فوق جسدي. وتسمّرتُ بصدع في الألواح أمكنني أن أرى من خلاله جزءا كبيرا من فِناء المزرعة.

أمرَ صوتٌ ذكوريّ صارمٌ الحدّاد بالخروج. وقام مسلّحان بجرّه نصف عارٍ إلى الفناء، حيثُ وقفَ مرتجفا من البرد وممسكا بسرواله المتراخي. اقترب قائد الجماعة من الحدّاد بقبّعته الطّويلة وأكتافه المرصّعة بالنّجوم. وسأله عن شيء مّا. وقد التقطتُ جزءا من جملة: "... ساعدتَ أعداء الوطن".

رفع الحدّادُ يديه إلى أعلى. وأقسم بالابن والثّالوث المقدّس. أسقطتهُ الضّربةُ الأولى. استمرّ في النّكران، مُحاولا أن ينهضَ بتثاقل على قدميه. فانتزع أحد الرّجال عمودا من السّياج. رفعهُ إلى أعلى في الهواء. ثمّ سدّدهُ بقوّة في وجه الحدّاد، الذي سقط أرضا. وشرع أفراد الكتيبة في ركله من كلّ الجوانب بأحذيتهم الثّقيلة. تأوّه الحدّادُ. وتلوّى من الألم. لكنّ الرّجال لم يتوقّفوا. بل انحنوا من فوقه، يلوون أذنيه ويدوسون على عضوه الذّكريّ. ثمّ كسروا أصابعه بكعوبهم.

عندما توقّف عن التّأوّه وتراخى جسده، سحبَ أفرادُ الفصيل عاملين وزوجةَ الحدّاد وابنه الذي حاول أن يقاومهم. ثمّ فتحوا باب الإسطبل على مصراعيه. وألقوا المرأة والرّجال من فوق جذع العربة، بشكل يجعل العمود تحت بطونهم ويجعلهم يتدلّون إلى أسفل مثل أكياس حبوب مقلوبة. مزّقوا بعد ذلك ملابس ضحاياهم. وأوثقوا

أيديهم بأرجلهم. لفّوا أكمامهم إلى أعلى. وبواسطة قصب الفولاذ المقطوع من السّكّة الحديديّة، أخذوا يضربون الأجساد المتلويّة.

دوّت فرقعة الضّربات على المؤخّرات المشدودة عاليا، بينما تلوّى الضّحايا بأجساد منكمشة متورّمة، وهم يصرخون مثل قطيع كلاب معذّبة. كنتُ أرتجفُ وأتعرّقُ من الخوف.

أمطرت الضّرباتُ الواحدة تلو الأخرى. ووحدها زوجةُ الحدّاد استمرّت في العويل، بينما تبادل أفراد الكتيبة النّكات حول الأفخاذ الهزيلة المعقوفة. وبما أنّ المرأة لم تتوقّف عن الأنين، فقد قاموا بلفّها، وجهُها إزاء السّماء، وثدياها المبيضّان يتدلّيان من كلا الجانبين. ضربها الرّجالُ بعنف شديد. وقد شقّق تكرارُ الضّربات المتصاعدُ حتّى الأوج جسدَ المرأة وبطنها، الذين ازدادت قتامتهما الآن بسبب تدفّق الدّم. تراخت الأجسادُ على العمود. فلبس المعذِّبون ستراتهم من جديد. ودخلوا الكوخ، وهم يحطّمون الأثاث وينهبون كلّ ما يقع تحت بصرهم.

لقد دخلوا العلّيّة. وعثروا عليّ هناك. أمسكوا بي من رقبتي. لفّوني حول نفسي. ولكموني بقبضاتهم. ثمّ جرّوني من شعري. لقد افترضوا على الفور أنّني لقيط غجريّ. وتداولوا بصوت عال ما ينوون فعله بي. قال أحدهم يجبُ أن أسلَّم إلى القاعدة الألمانيّة التي تبعدُ مسافة دزينة من الأميال عن الكوخ. بالنّسبة إليه، سيجعلُ هذا الأمر رئيس القاعدة أقلّ ارتيابا في أمر القرية التي كانت متأخّرة سلفا عن التّسليم الإجباريّ للبضائع. وافقه رجلٌ آخر مُضيفا أنّ القرية كلّها قد تُحرق بسبب لقيط غجريّ واحد.

قُيّدت يداي وقدماي. وحُملتُ إلى الخارج. استدعى أفراد الفصيل مزارعيْن، شرحوا لهما أمرا مّا بعناية شديدة بينما يشيرون إليّ. أصغى المزارعان بشكل مُطيع، وهما يومئان بتذلّل. وُضعتُ على العربة. وأوثقتُ بلجام. ثمّ قفز الرّجلان إلى المقعد. وغادرا بي.

رافق أفرادُ الكتيبة العربة لعدّة أميال، وهم يترنّحون بحرّيّة فوق سروجهم ويتقاسمون طعام الحدّاد. وعندما دخلنا المنطقة الأكثر كثافة من الغابة، تكلّموا مجدّدا مع المزارعين. ومن ثمَّ، همزوا أحصنتهم بأقدامهم. واختفوا في الدّغل.

مُنهَكا من الشّمس ومن وضعي غير المريح، غفوتُ شبهَ نائم. وحلمتُ أنّني سنجابٌ جاثم في ثقب شجرة مظلم يشاهدُ في سخريّة العالم في الأسفل. ثمّ أصبحتُ فجأةً جندبا بساقين طويلتين نشيطتين. أبحرتُ بهما على امتداد أراض شاسعة. ومن حين إلى آخر، كنتُ أسمع أصوات السّائقين وصهيل الحصان وصرير العجلات، كما لو أنّها تتخلّلُ الضّباب.

وصلنا إلى محطّة السّكك الحديديّة في منتصف النّهار. فطُوّقنا على الفور بالجنود الألمان بأزيائهم النّظاميّة الباهتة وأحذيتهم المتآكلة. انحنى المزارعان لهم. وسلّماهم ورقة كتب عليها أفراد الكتيبة ملاحظة. وإذ غادر حارسٌ منهم ليستدعي ضابطا، اقترب عدد من الجنود من العربة. فحدّقوا فيّ مليّا وهم يتبادلون ملاحظات فيما بينهم. كان واحدٌ منهم، وهو على الأرجح رجلٌ أكبر سنّا ومنهكٌ بسبب الحرارة كما هو واضحٌ، يرتدي نظّارتين يضبّبهما العرقُ. استند إلى العربة. وظلّ يتفرّج فيّ بهدوء وعن قرب من خلال عينيه الزّرقاوين الفاتحتين. ابتسمتُ له. ولكنّه لم يستجب لي. نظرتُ مباشرة في عينيه.

وتساءلتُ إن كان هذا سيلقي فيه تعويذة شرّيرة. ثمّ خمّنتُ أنّه سيقعُ مريضا. فشعرتُ بالأسى من أجله. وأخفضتُ بصري.

خرج ضابطٌ شابّ من مبنى المحطّة. واقترب من العربة. وسرعان ما عدّل الجنودُ زيّهم النّظاميّ. ووقفوا في انتباه وتأهّب. لم يعرف المزارعان ما ينبغي عليهما فعله. فحاولا محاكاة الجنود. واعتدلا في خنوع.

قال الضّابطُ كلمات مقتضبة لجنديّ، توجّه من الطّابور نحوي. ودنا أكثر. مرّر يدهُ بخشونة على شعري. نظر في عينيّ، وهو يسحبُ جفنيّ إلى الوراء. وتفحّص النّدوب في ركبتيّ وعضلات ساقيّ. ثمّ قدّم تقريرهُ للضّابط الذي التفت نحو العجوز. أصدر أمرا. وغادر.

ابتعد الجنود. وسمع من مبنى المحطّة نغمٌ بهيج. وفي برج المراقبة العالي حيث مركز الرّشّاش، يعدّلُ الحرسُ خوذاتهم.

اقترب منّي الجنديّ ذو النّظارتين. ودون أن ينطق بكلمة واحدة، فكّ قيدي الذي يوثقني إلى عمود العربة. وربط طرفه حول معصمه. ثمّ أمرني بحركة من يده أن أتبعهُ. التفتُّ. وألقيتُ نظرة على المزارعين. كانا قد استقرّا على العربة. وشرعا في جلد الحصان.

تجاوزنا مبنى المحطّة. وفي الطّريق، توقّف الجنديّ عند مستودع، حيثُ قُدّمت له علبة صغيرة من البنزين. ثمّ مشينا على امتداد السّكك الحديديّة باتّجاه الغابة التي تلوح من بعيد.

كنتُ متيقّنا أنّ الجنديّ قد أُمر أن يطلق عليّ الرّصاصَ. ويسكب البنزين على جسدي. ثمّ يحرقه. لقد شاهدتُ هذا الأمر يحدثُ مرّات عديدة. تذكّرتُ كيف أطلق أفرادُ الفصيل الرّصاص على مزارع متّهم بكونه مُخبرا. في تلك الحالة، أُمر الضّحيّةُ أن يحفر خندقا، ألقيت فيه جثّته

لاحقا. تذكّرتُ أيضا الألمان وهم يصوّبون رصاصهم على مُحارب من إحدى الفصائل أثناء محاولته الهرب باتّجاه الغابة، والنّيران المضطرمة والمرتفعة من بعدُ فوق جثّته.

شعرتُ بالرّهبة من الألم. فإطلاقُ الرّصاص سيكون دون شكّ مؤلما جدّا وعمليّة الحرق بالبنزين أكثر من ذلك حتّى. ولكن، لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئا. كان الجنديُّ يحمل بندقيّة. والوثاقُ المشدودُ إلى ساقي ملتفّ حول معصمه.

كنتُ حافيا. وقد كوت ألواح السّكّة السّاخنةُ بسبب الشّمس قدميّ. فظللتُ أتقافزُ فوق أجزاء الحصباء الحادّة الممدّدة بين الألواح. حاولتُ مرّات عديدة أن أمشي فوق قضيب السّكّة. ولكنّ الحبل المربوط بساقي أعاقني بشكل مّا عن المحافظة على توازني، إذ كان من الصّعب عليّ ضبطُ خطواتي الصّغيرة على إيقاع الخطوات الواسعة المحسوبة للجنديّ.

ظلّ يشاهدني. ويبتسمُ ابتسامات خافتة إزاء محاولاتي البهلوانيّة فوق سكّة الحديد. غادرنا الآن منطقة المحطّة. وتجاوزنا نقطة التّبديل الأخيرة. بدأتْ تعتمُ. اقتربنا من الغابة. والشّمسُ كانت تغربُ من خلف أطراف الأشجار. توقّف الجنديُّ. وضع علبة البنزين على الأرض. ونقل البندقيّة إلى ذراعه اليسرى. جلس على الأرض عند حافّة السّكّة. تنهّد بعمق. ومدّد ساقيه إلى أسفل جسر المحطّة. نزع نظّارتيه بهدوء. مسح بكمّيه العرق عن حاجبيه الكثيفين. ثمّ فكّ المجرفة الصّغيرة المتدلّية من حزامه. أخرج سيجارة من جيب صدره. فأشعلها. وأطفأ عود الثّقاب بعناية.

كان يشاهدني في صمت، وأنا أحاولُ أن أفكّ القيد الذي يحكّ بشرة ساقي. ومن ثَمَّ أخرج مطواة من جيب سرواله. فتحها. ودنا

ممسكا بيدٍ ساقي. وبيده الأخرى قطع الحبل. ولفّهُ. وألقى به من فوق السّدّ.

ابتسمتُ له مُعلنا عن شكري. لكنّهُ لم يستجب لابتسامتي. ولم يردّ عليّ بأخرى. صرنا نجلس الآن، هو يسحبُ سيجارتهُ إليه وأنا أتأمّلُ الدّخان المزرقّ المتصاعد في دوائر.

أخذتُ أفكّرُ في الطّرق الكثيرة الممكنة للموت. ولم تبهرني حتّى الآن سوى طريقتين فحسب.

تذكّرتُ بدقّة ما حدث في أولى أيّام الحرب، عندما أصابت قنبلةٌ منزلا في الشّارع الذي كان فيه بيت والديّ. انفجرت نوافذنا. وانهالت علينا الجدران المُتداعيةُ ورجفة الأرض المهتزّة وصرخات النّاس المجهولين والمحتضرين. رأيتُ المساحات البنّيّة للأبواب وسقوفا منفصلةً وجدرانا بصور ما تزالُ تتدلّى بشكل يائس منها. كلّها تسقط في الفراغ. مثل انهيار ثلجيّ، اندفعتْ إلى الشّارع آلاتُ بيانو فخمةٌ وكبيرة، وهي تفتحُ أغطيتها وتغلقها طائرةً في الهواء، أذرعةُ كراسٍ خرقاءُ سمينةٌ، مقاعدُ منزلقةٌ وحاوياتٌ. وتبعتها فيما بعدُ شمعداناتٌ كانت تتهاوى مُحدثة أصواتا صاخبة، قدورُ مطبخ صقيلةٌ، أوان، وأوعيةٌ من الألومينيوم اللاّمع. سقطت صفحات ممزّقة من كتب مقطّعة، وهي ترفرفُ مثل أسراب طيور خائفة. وانخلعت أحواض الاستحمام من مواسيرها ببطء شديد، ممتزجةً بشكل ساحر بعقد أعمدة الدّرابزين والمزاريب.

عندما استقرّ الغبارُ، كشف المنزل المتقصّفُ أحشاءهُ. وكانت الأجسادُ البشريّة ملقاة على الحوافّ المسنّنة للأرضيّات والسّقوف المكسورة، مثل خرق تغطّي الاستراحة. لقد شرعت حينئذ في تشرّب الصّبغة الحمراء. ثمّت أجزاء صغيرة من الورق الممزّق والجصّ والرّسومات تتشبّثُ

بالخرق الحمراء اللّزجة مثل ذباب جائع. مازال كلّ شيء في الأنحاء يتحرّك، باستثناء الأجساد البشريّة. فقد بدت مغمورة بالسّلام.

ثمّ تصاعدت تأوّهاتُ النّاس وصرخاتهم، وهم مسمّرون في الأسفل بواسطة العوارض الخشبيّة. تشقُّ أجسادَهم القضبانُ والأنابيبُ. تمزّقها وتسحقها أجزاءٌ من الجدران. عجوزٌ وحيدةٌ استطاعت الخروج من الحفرة المظلمة. تمسّكت في يأس بقطع القرميد. وعندما انفتح فمُها الخالي من الأسنان لتتكلّم، لم تتمكّن، وبشكل مفاجئ، أن تطلق صوتا واحدا. كانت نصف عارية. نهداها الذّابلان يتدلّيان من صدرها النّاتئ عظمُهُ. حين أدركتْ طرف الفوهة عند ركام الحطام بين الخندق والطّريق، انتصبت واقفة للحظة على القمّة. ثمّ انقلبتْ متداعية إلى الأسفل. واختفت خلف الأنقاض.

يمكنُ للمرء أن يموت بشكل أقلّ إثارة على يد رجل آخر. منذ زمن ليس بعيدا، عندما كنتُ أعيشُ في بيت لاكْ، شرع مزارعان في القتال أثناء حفلة استقبال. هجم كلّ منهما على الآخر، متشبّثا بحنجرته. وسقطا معا على الأرضيّة الوسخة. كان يعضّان بأسنانهما مثل كلاب مسعورة، مُمزّقيْن قطعا من الملابس واللّحم. وبدت أيديهما المتصلّبةُ وركبهما وأكتافهما وأقدامهما مُكتسِبةً لحيوات مستقلّة تخصّها. يتمسّكان بعضُهما ببعض. يضربان. ويخدشان. ويلويان أعضاءهما في رقصة وحشيّة. تضربُ المفاصلُ العاريةُ الجمجمتين كالمطارق. وتتصدّعُ العظامُ من الإجهاد والتّوتّر.

سمع الضّيوفُ، الذين كانوا يتحلّقون في هدوء حولهما، صوتَ شيء مّا ينسحقُ. تلته حشرجةُ الاحتضار. مكث أحدهما في الأعلى بشكل أطول، بينما كان الآخر يلهثُ. وبدا فاقدا لقواه. ومع ذلك،

فقد رفع رأسهُ. وبصق على وجه المُنتصر. ولم يسامحه على ذلك الرّجل الرّابضُ فوقه. لقد انفجر قافزا إلى أعلى مثل ضفدع الثّور، مُتّخذا مجالا واسعا، ليحطّ عليه فيسحق رأسه بقوّة مفزعة. لم يقاوم الرّأس ليعلو من جديد. ولكنّه بدا متحلّلا إلى حوض من الدّم يكبر شيئا فشيئا. كان الرّجل ميّتا.

شعرتُ الآن كما لو أنّني الكلبُ الأجربُ الذي قتلهُ أفرادُ الفصيل. لقد مسّحوا في البداية على رأسه. وفركوا ما خلف أذنيه. وإذ اكتسحَ الفرحُ الكلب، نبح بمحبّة وعرفان. ألقوا له بعد ذلك عظما. جرى خلفهُ، مُحرّكا ذنبه الأشعث. فأخاف الفراشات. وسحق الأزهار بقوائمه. وعندما أمسك العظم ورفعه بفخر، أطلقوا الرّصاص عليه.

ربط الجنديّ حزامهُ. فلفتت حركته انتباهي. وتوقّفتُ عن التّفكير للحظة.

ثمّ حاولتُ تقدير المسافة التي تفصلني عن الغابة والوقت الذي سيستغرقهُ ليلتقط بندقيّته ويطلق النّار، إذا ما كان عليّ أن أحاول الفرار فجأة. كانت الغابةُ بعيدةً جدّا. سأموتُ في منتصف الطّريق على التّلّة الرّمليّة. وفي أفضل الأحوال، يمكنني أن أبلغ بقعة الحشائش، حيثُ سأظلّ مرئيّا وغير قادر على الهرب بسرعة. نهض الجنديُّ. ومدّد مفاصلهُ متأوّها. أحاط بنا الصّمتُ. وأذهبت الرّيح النّاعمةُ رائحة البنزين. ثمّ أعادت ضوع المردقوش[9] وراتنج التنّوب.

بإمكانه دون شكّ أن يصيبني من الخلف. هكذا خمّنتُ. فالنّاسُ يفضّلون قتل شخص دون النّظر في عينيه.

---

(9) نوع نباتيّ عشبيّ معمّر. وهو نبات عطريّ من مجموعة النّعانيع. (المترجم)

التفت الجنديُّ باتّجاهي. وأشار إلى الغابة بحركة من يده، بدت أنّها تقول: "اهرب. هيّا غادر المكان". أصبحت النّهايةُ وشيكةً إذن. تظاهرتُ أنّني لم أفهمهُ. وتقدّمتُ نحوه. تراجع إلى الخلف بقوّة، كما لو أنّه يخشى أن ألمسهُ. وأشار بغضب إلى الغابة، حاجبا عينيه بيده الأخرى.

اعتقدتُ أنّها طريقة ذكيّة لخداعي. كان يتظاهرُ بعدم النّظر. وقفتُ متجذّرا في بقعتي. حدّق فيّ فاقدا للصّبر. وقال شيئا مّا بلغته الفظّة. ابتسمتُ له في تملّق. ولكنّ ذلك لم يزد إلاّ في سخطه. ومرّة أخرى، مدّ يدهُ باتّجاه الغابة. مرّة أخرى، لم أتحرّك. تمدّد حينئذ بين القضبان الحديديّة، حيثُ توجدُ بندقيّته التي فكّ قفلها.

قمتُ بتقدير المسافة مرّة أخرى. وبدا لي هذه المرّة أنّ المجازفة أقلّ من قبل. ما أن شرعتُ في الابتعاد حتّى ابتسم بلطف. وعندما أدركتُ حافّة السّدّ، نظرتُ إلى الخلف. كان ما يزالُ ممدّدا دون حركة، غافيا تحت الشّمس الدّافئة.

لوّحتُ بيدي مستعجلا. وقفزتُ مثل أرنب برّيّ على امتداد السّدّ، إلى دغل الغابة الظّليلة المنعشة. تمزّق جلدي بسبب الاصطدام بالسّرخس، بينما كنتُ أهربُ أبعد فأبعدَ إلى أن انقطعت أنفاسي أخيرا. وسقطتُ وسط الطّحالب الرّطبة المريحة.

وبينما أتمدّدُ مُصغيا لأصوات الغابة، سمعتُ الطّلقات قادمة من جهة مسلك السّكّة الحديديّة. يبدو أنّ الجنديّ يتظاهر بإعدامي.

استيقظت الطّيور. وبدأت تطلق خشخشةً داخل أوراق الأشجار. قفزت سحليّة صغيرة من فوق جذر إلى جانبي. وحدّقت

فيّ بانتباه. كان بإمكاني أن أسحقها بضربة من يدي. ولكنّني كنتُ منهكا جدّا.

8

بعد خريف دمّرت بداياتُه جزءا من المحاصيل، حلّ شتاء قاس. أثلجت في البداية لعدّة أيّام. وكان النّاسُ يعرفون مناخهم جيّدا. فخزّنوا بعجالة الطّعام من أجلهم ومن أجل ماشيتهم. سدّوا أيّ ثقب في منازلهم وحظائرهم بواسطة القشّ. وأمّنوا المداخن والسّقوف من الرّياح القاسية. ثمّ جاء الصّقيعُ. وجمّد كلّ شيء صلب تحت الثّلج.

ما من أحد أراد أن يحتفظ بي. الطّعامُ نادرٌ. وإطعامُ كلّ فم جديد هو عبء ثقيل. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن هناك عمل من أجلي. وليس للمرء حتّى أن يزيل من الحظائر السّماد المتراكم فوق الأفاريز بواسطة الثّلج. تقاسم النّاسُ أكواخهم مع الدّجاج والعجول والأرانب والخنازير والماعز والأحصنة. يدفئ النّاسُ والحيواناتُ بعضهم البعض بحرارة أجسامهم. ولكن لم تكن هناك غرفة من أجلي.

لم يُرخ الشّتاءُ قبضتهُ. تبدو السّماءُ الثّقيلةُ بسحبها الرّصاصيّة جاثمة على السّقوف المكسوّة بالقشّ. قد تجري أحيانا سحابةٌ أشدُّ قتامةً من السّحب الأخرى مثل بالون. تجرُّ من خلفها ظلاّ كئيبا قاتما مثل أرواح شرّيرة تطاردُ شخصا آثما.

يرسمُ النّاسُ بأفواههم دوائر على صفحات النّوافذ المتجمّدة. وكلّما رأوا الظّلّ المشؤوم يمشّط القرية، رسموا علامة الصّليب على أجسادهم وتمتموا بالصّلوات. كان واضحا أنّ الشّيطان يمتطي السّحابة السّوداء فوق الرّيف. وطالما كان هناك، يجدر بالمرء أن يتوقّع الأسوأ.

مكسوّا بِمزق قديمة وقصاصات من فرو الأرانب وجلود الخيل، كنتُ أتسكّع من قرية إلى أخرى. لا يدفئني شيء إلاّ حرارةُ المذنّب الذي صنعتهُ من علبة عثرتُ عليها في مسلك السّكك الحديديّة. حملتُ على ظهري كيسا مملوءا بالوقود، أعيد ملأهُ قلِقا في كلّ فرصة جديدة تسنح لي. وبمجرّد أن يصبح كيسي أخفّ، أذهبُ إلى الغابة. فأقطعُ الأغصان. وأقتلعُ بعض اللّحاء. وأنزع الخثّ والطّحالب. وعندما يمتلئ الكيسُ مجدّدا، أتابعُ طريقي بشعور بالرّضا والأمان، وأنا أدوّرُ مذنّبي وأستمتعُ بدفئه.

لم يكن إيجادُ الطّعام أمرا صعبا. فالثّلوج الممتدّةُ إلى ما لا نهاية تُبقي النّاس في أكواخهم. وكان باستطاعتي أن أشقّ طريقي إلى الحظائر المغرقة في الثّلج، لأعثر على أفضل بطاطا وجذور الشّمندر. فأقوم لاحقا بتحميصها في مذنّبي. وحتّى حين يلمحني شخص مّا من بعيد، باقةً لا شكل لها من المِزَق المتحرّكة ببطء عبر الثّلج، فإنّه يحسبني طيفا عابرا. ويكتفي بإرسال الكلاب لتلحق بي. وتكون الكلاب متردّدة في ترك مخابئها داخل الأكواخ الدّافئة. فتخوّضُ بتثاقل عبر الثّلج العميق. وعندما تصل إليّ في النّهاية، يمكنني إخافتها بسهولة بواسطة مذنّبي السّاخن، لتعودُ مُبردةً ومنهكةً إلى الأكواخ.

أرتدي أحذيةً خشبيّة كبيرة مربوطةً بشرائط طويلة من القماش. ويتيحُ لي عرْضُ الحذاء بالإضافة إلى وزني الخفيف أن أتحرّك بشكل سليم فوق

الثّلج، دون أن أنحني وصولا إلى خصري. كنتُ أجوب الرّيف بحرّيّة، مغطّى من الأسفل حتّى عينيّ. فلا ألتقي أحدا سوى الغربان.

أنامُ في الغابة، إذ أحفر خندقا تحت جذور الأشجار وأتّخذُ الكثبان الثّلجيّة سقوفا. أشحنُ المذنّب بخثّ رطب وأعشاب متعفّنة تدفئُ حفرتي بدخان عبِقٍ. وتبقى النّار مشتعلة طيلة اللّيل.

أخيرا، وبعد بضع أسابيع من هبوب رياح معتدلة، شرع الثّلجُ في الذّوبان والمزارعون في الخروج. لم أكن أملك أيّ خيار. فالكلابُ التي استراحت بشكل جيّد صارت تجوبُ الأنحاء بين بيوت المَزارع. ولم أعد قادرا على سرقة الطّعام. بل يجدر بي الاحتراسُ في كلّ لحظة. واضطُررتُ للبحث عن قرية بعيدة بشكل آمن عن المواقع العسكريّة الألمانيّة.

أثناء تجوالي، تسقط مرارا ندفٌ من الثّلج تهدّدُ بإطفاء مذنّبي. أوقفني في اليوم الثّاني صوتُ صراخ. انحنيتُ خلف شجيرة، خشية أن أتحرّك. وظللتُ أصغي بانتباه لحفيف الأشجار. سمعتُ الصّراخ مجدّدا. صفّقت الغربانُ في الأعلى بأجنحتها خائفة من شيء مّا. تحرّكتُ خلسة من خلف شجرة إلى أخرى. واقتربتُ من مصدر الصّوت. وفي طريق ضيّق ورطب، لمحتُ عربة وحصانا منقلبيْن. وما من علامة على وجود أيّ شخص.

عندما رآني الحصانُ، رفع أذنيه إلى أعلى ولوّح برأسه. دنوتُ منه. وكان الحيوانُ هزيلا إلى درجة أنّني تمكّنتُ من رؤية كلّ عظم في جسمه. تتعلّقُ كلّ ضفيرة من العضلات المنهوكة النّحيفة مثل حبل مبلول. نظر إليّ بعينين محتقنتيْن بدم شاحب، توشكان على الإغماض.

حرّك رأسه بتثاقل. وارتفع من عنقه الهزيل صوتٌ يشبه نعيق الضّفادع.

كانت إحدى ساقي الحصان مكسورة فوق مفصلها الأدنى قليلا. برزت منها شظيّة حادّةٌ لعظم مكسور. وفي كلّ مرّة يحرّكُ فيها الحيوان ساقه، يشقُّ العظم جلدهُ أكثر.

تطوفُ الغربانُ حول البهيمة المنكوبة، محلّقة إلى أعلى فأسفل ومراقبة إيّاها باستمرار. ومن حين إلى آخر، يحطّ أحدها على الأشجار. فيرسل كتل ثلج رطبة وذائبة، تسقط على الأرض محدثةً صوت فطائر البطاطا إذ تقعُ في قدْر. ومع كلّ صوت جديد، يرفعُ الحصانُ رأسهُ ضجِرًا. يفتحُ عينيه. وينظر من حوله.

حين رآني أطوف حول العربة، حرّك ذيله مستحثّا. فدنوتُ منه. وضع رأسه الثّقيلة على كتفي. وفركها إزاء خدّي. ما أن نقرتُ منخرهُ الجافّ، حتّى حرّك كمامته. ودفعني إلى الاقتراب منه أكثر.

انحنيْتُ لأفحص ساقه. فأدار الحصانُ رأسه باتّجاهي، كما لو أنّه ينتظر حكمي. حفّزته على أن يخطو خطوةً أو خطوتين. فحاول، وهو يئنُّ ويترنّح. كان ذلك بلا فائدة. أخفض رأسه خجِلا ومستسلما. أمسكتُ بعنقه. ما تزالُ تنبضُ بالحياة. حاولتُ أن أقنعه باللّحاق بي. فبقاؤه في الغابة لا يعني شيئا سوى موته المحقّق. حدّثتهُ عن الاسطبل الدّافئ ورائحة التّبن. وأكّدتُ له أنّ بإمكان المرء أن يصلح عظمه ويداويه بالأعشاب.

أخبرته عن المراعي الخصبة التي ما تزالُ تحت الثّلج، تنتظرُ الرّبيع فحسب. اعترفتُ بأنّني إذا ما نجحتُ في إرجاعه إلى القرية القريبة وإعادته إلى مالكه، فقد تتحسّنُ علاقاتي بأهل القرية. وقد يتاح لي حتّى أن

أمكث في المزرعة. فأصغى إليّ، محدّقا في وجهي من حين إلى آخر، حتّى يتثبّت إن كنتُ أقول الحقيقة.

خطوتُ إلى الخلف. واستحثثته على المشي بواسطة نقرات لطيفة من غصين شجرة. ترنّح، وهو يجرّ ساقه المصابة إلى أعلى. ظلّ يعرجُ بشدّة. ولكنّني نجحتُ في النّهاية في إقناعه بالحركة. كان التّقدّم بطيئا ومؤلما. يتوقّف الحصانُ من حين إلى آخر. فينهار عاجزا عن الحركة. ألفّ ذراعي حينئذ حول عنقه. أحضنهُ. وأرفع بنفسي ساقه المصابة. بعد فترة، يشرعُ في المشي من جديد كما لو أنّ بعض الذّكريات هي التي تدفعه إلى الحركة أو أفكار مّا تنفلتُ، بشكل مؤقّت، من ذهنه. أغفل خطوةً. ففقد توازنه. وتعثّر. وكلّما مشى على ساقه المكسورة، برز عظمه النّاتئُ أكثر من تحت الجلد. استمرّ بهذا الشّكل على الثّلج والوحل، بهذه الشّقفة من العظم العاري. كان كلّ صهيل متألّم يطلقه يحطّم قلبي. نسيتُ أمر القبقاب الخشبيّ في قدميّ. وأحسستُ اللّحظةَ كأنّني أمشي على الحوافّ المسنّنة لعظم ساقيّ، أئنُّ وأتألّمُ مع كلّ خطوة.

وصلتُ إلى القرية مع الحصان، منهكا ومكسوّا بالوحل. فأحاطنا على الفور قطيعُ كلاب مزمجرة. لم تستطع الانقضاض علينا بفضل مذنّبي. كنتُ أكوي به فرْوَ أكثرها شراسة. بينما وقف الحصانُ في برود، غارقا في خدر عميق.

غادر العديدُ من المزارعين أكواخهم، من بينهم مالكُ الحصان المتفاجئُ والمسرور لرؤيته بعد أن فرّ منذ يومين. طارد الكلابَ. وأبعدها. وتفحّص ساقه المكسورة. ثمّ أقرّ بضرورة قتله. لن يصلح

إلاّ لتوفير القليل من اللّحم والجلد من أجل الدّباغة والعظام لاستعمالات طبيّة. في الحقيقة، كانت العظام في تلك المنطقة العنصرَ الأكثر قيمة. فعلاجُ الدّاء الخطير هناك يقوم على عدّة جرعات يوميّة من سائل أعشاب مخلوطة بعظام حصان مطحونة. تُعالَجُ آلام الأسنان بواسطة كمّادة فيها فخذُ ضفدع مع طحين أسنان الحصان. وتعتبر حوافر الخيل المحروقة شفاء أكيدا للزّكام خلال يومين اثنين. بينما تساعدُ عظام أوراكها، إذ توضع على جسد مصروع، في تجنّب النّوبات.

وقفتُ جانبا، بينما يتفحّص الفلاّحُ حصانه. ثمّ جاء دوري بعد ذلك. حدّق فيّ الرّجلُ بانتباه. وسألني أين كنتُ وما الذي فعلتُه. فأجبتهُ بأكبر قدر ممكن من الحذر، مُتوجّسا وحريصا على تجنّب أيّ حكاية قد تثير شكوكه. أراد منّي أن أعيد ما قلته مرّات عديدة. وكان يضحك من محاولتي الفاشلة أن أتكلّم اللّهجة المحلّيّة. ومن حين إلى آخر، يسألني إن كنتُ يتيما غجريّا أو يهوديّا. فأقسمتُ له بكلّ شيء وكلّ شخص أمكنني أن أفكّر فيه أنّني مسيحيّ صالحٌ وعامل مطيع. وقف الرّجالُ الآخرون على مقربة منّا، وهم ينظرون إليّ بريبة. ومع ذلك، فقد قرّر المزارع أن يأخذني معهُ، عاملا في فناء المزرعة وفي الحقول. جثوتُ على ركبتيّ. وقبّلتُ قدميه.

أخرج المزارعُ في اليوم التّالي حصانين كبيرين وقويّين من الإسطبل. أوثقهما إلى المحراث. وقادهما إلى الحصان المقعد الذي كان ينتظر في صبر عند السّياج. ثمّ لفّ أنشوطة حول عنق الحصان المصاب. وربط طرف الحبل الآخر بالمحراث. انتصبت أذنا الحصانين. ونظرا غير مباليين إلى الضّحيّة. تنفّس بعمق. ولوى عنقه التي كانت تعتصر بواسطة الحبل

الضّيّق. وقفتُ هناك أتساءل كيف يمكنني أن أنقذ حياته وكيف أقنعه أنّني لم أكن أعلمُ مطلقا أنّني كنتُ أعيده إلى المزرعة من أجل ما يحدث الآن... عندما اقترب المزارع من الحصان ليتفقّد وضع الأنشوطة، أدار المُقعدُ رأسه فجأة. ولعق وجه المزارع. لم ينظر إليه الرّجل. بل منحه صفعة قويّة بكفّ مفتوحة على خطمه. فالتفتَ الحصانُ دونه، متألّما ومُهانا.

رغبتُ في أن ألقي بنفسي عند قدمي المزارع. فأتوسّله أن ينقذ حياة الحصان. لكنّني التقطتُ نظرة الحيوان المعاتبة. كان يحدّق فيّ مباشرة. تذكّرتُ ما يمكن أن يحدث إذا أحصى رجل أو حيوانٌ يوشكُ على الموت أسنان الشّخص المسؤول عن موته. خفتُ أن أنطق بأيّ كلمة ما دام الحصانُ يحملقُ فيّ بتلك النّظرة المنفصلة الرّهيبة. لذلك انتظرتُ. ولكنّه لم يحوّل عينيه دوني.

فجأة، بصق المزارع على يديه. أمسك سوطا معقودا. وجلَد ظهري الحصانين القويّين. فاندفعا إلى الأمام بعنف. وانشدّ الحبلُ أكثر. وضاقت الأنشوطةُ حول عنق الكائن المُدان، الذي تنفّس محدثا صفيرا مكتوما أجشّ. وسقط متداعيا مثل سياج هدّمته الرّيح. سحباهُ فوق الأرض النّاعمة لبضع خطوات أخرى. وعندما توقّف الحصانان اللاّهثان، مشى المزارع نحو الضّحيّة. وركلها عدّة مرّات على العنق والرُّكب. لم يتحرّك الحيوانُ. وإذْ تشمّم الحصانان القويّان رائحة الموت، داسا بقوائمهما على الأرض بتوتّر، كما لو أنّهما يحاولان تجنّب نظرة العينين المنفتحتين على وُسعهما والميّتتين.

قضّيتُ بقيّة اليوم في مساعدة المزارع على سلخ الجلد وتقطيع الهيكل.

مرّت الأسابيعُ. وتركتني القريةُ بسلام. يقول بعض الصّبية أحيانا إنّه يجبُ أن أسلَّم إلى المراكز العسكريّة الألمانيّة أو يُعلَم الجنود بأمر اللّقيط الغجريّ الذي يقيم في القرية. تتجنّبني النّساءُ على الطّريق، وهنّ يغطّين بعناية وجوه أطفالهنّ. وأمّا الرّجال، فيكتفون بالنّظر إليّ في صمت. وقد يحدث أن يبصقوا بازدراء في اتّجاهي.

لقد كانوا أناسا يتكلّمون بإيقاع بطيء مدروس. ويتفحّصون كلماتهم بعناية. وتقضي عاداتهم بأن يطلق المرءُ كلماته تماما كما يطلق الملح من يده. ويعتبر اللّسانُ الطّليقُ السّائبُ عندهم أسوأ الأعداء على الإطلاق. كما يُنظر إلى المتكلّمين بسرعة على أنّهم مخادعون وأفّاكون، تمّ تدريبهم بشكل واضح من قبل عرّافي الغجر أو اليهود. اعتاد النّاسُ أن يجلسوا في كنف صمت ثقيل تتخلّلهُ أحيانا بعض ملاحظات لا أهمّيّة لها. وعند الحديث أو الضّحك، يغطّي الجميعُ أفواههم بأيديهم تجنّبا لكشف أسنانهم أمام الحاقدين الذين يرجون لهم الأمراض. ووحدها الفودكا تنجحُ في إطلاق ألسنتهم والتّخفيف من صرامة آدابهم.

يحظى سيّدي باحترام كبير بينهم. وغالبا ما تتمّ دعوته إلى الأعراس المحلّيّة والاحتفالات. أحيانا، إذا كان الأطفال بخير ولم تعترض زوجته أو حماته، يصطحبني معه أيضا. وفي مثل هذه المناسبات، يأمرني أن أعرض لغتي الحضريّة على الضّيوف. فأتلو القصائد والقصص التي تعلّمتها قبل الحرب من أمّي ومربّياتي. ومقارنةً بالكلام المحلّيّ المتحذلق والنّاعم، بدت لغة مدينتي، المليئةُ بالحروف المجهورة التي تفرقع مثل نيران رشّاش شبيهة بعمل كاريكاتوريّ. يجبرني سيّدي على أن أشرب

قدحا من الفودكا جرعةً واحدةً قبل أن أقدّم العرض. تتعثّرُ إحدى قدميّ التي تحاولُ أن تسافر بي. وبمجهود كبير أكادُ أبلغ وسط الغرفة.

أشرعُ على الفور، محاولا أن أتجنّب النّظر في عيون الجميع أو أسنانهم. وكلّما قرأتُ الشّعر بسرعة كبيرة، يفتح المزارعون عيونهم على وسعها من الدّهشة، معتقدين أنّني مخبول وأنّ كلامي السّريع يمثّل عيبا أو علّة.

كانوا يهتزّون تماما لسماع الخرافات والقصص المقفّاة عن الحيوانات. يصغون إلى حكاياتٍ عن عنزةٍ تسافر عبر العالم بحثا عن عاصمة بلاد الماعز، عن قطّة ترتدي أحذية الفراسخ السّبعة[10]، عن الثّور فرديناند،«بياضِ الثّلج» والأقزام السّبعة، ميكي ماوس وبينوكيو، وهم يضحكون. يغصّون بطعامهم، بينما تنفلتُ الفودكا من أفواههم.

تتمُّ دعوتي بعد العرض إلى طاولات كثيرة، لأعيد قراءة بعض القصائد. فأجبر على احتساء المزيد من الأنخاب. وحين أرفض ذلك، يقومون بسكب الكحول مباشرة في حلقي. عادة ما أكونُ ثملا في منتصف المساء. وأكادُ لا أعرف حقّا ما الذي كان يحدث. تبدأ الوجوهُ من حولي في اكتساب ملامح الحيوانات التي تقيمُ في القصص التي أرويها، مثل تلك الرّسوم المصاحبة والحيّة في كتب الأطفال التي ما زلتُ أتذكّرها. أشعرُ كما لو أنّني أسقط في بئر عميقة ذات جدران ناعمة ورطبة مكسوّة بطحالب إسفنجيّة. وفي قعر البئر وبدلا عن

---

(10) أحذية من القصص الأوروبيّة الفولكلوريّة. تسمح لمرتديها بأن يخطو خطوة بسبعة فراسخ. والفرسخُ في الأصل هو وحدةُ قيس قديمة تعادل مسير شخص خلال ساعة من الزّمن. (المترجم)

الماء، يوجدُ سريري الدّافئُ الآمنُ، حيثُ يمكنني أن أنام بسلام وأنسى كلّ شيء.

كان فصلُ الشّتاء بصدد الرّحيل. وكنتُ أذهبُ كلّ يوم مع سيّدي لجلب الحطب من الغابة. تملأ الرّطوبةُ الحارّة الهواءَ. وتنفخُ الطّحالبَ الصّوفيّة المتدلّية من فروع الأشجار الضّخمة، مثل جلود أرانب رماديّة، شبه متجمّدة. لقد كانت مغمورة بالماء. تقطرُ قطراتٍ قاتمة فوق أوراق اللّحاء الممزّق. تتسرّبُ تيّاراتٌ صغيرة في كلّ اتّجاه. تثبُ هنا. وتغطسُ هناك، تحت جذور المستنقعات، لتظهر من جديد وتواصل، بشكل لاعب، ركضها الطّفوليّ العشوائيّ.

أقامت عائلةٌ مجاورةٌ حفل زفاف كبير لابنتها الجميلة. ارتدى المزارعون أفضل ملابس الأحد. وأخذوا يرقصون في فناء الحظيرة الذي تمّ تنظيفه وتزيينه خصّيصا لهذه المناسبة. اتّبع العريسُ التّقاليد القديمة. وقام بتقبيل الجميع على شفاههم. أمّا العروسُ التي كانت تشعر بالغثيان بسبب الأنخاب العديدة التي احتستها، فقد كانت تبكي حينا وتضحكُ حينا آخر، دون أن تنتبه إلى الرّجال الذين كانوا يقرصون أردافها ويضعون أيديهم على ثدييها.

عندما خلت القاعةُ. وشرع الضّيوف في الرّقص، اندفعتُ إلى الطّاولة لتناول الوجبة التي اكتسبتُها بفضل العرض الذي قدّمته. جلستُ في أكثر الزّوايا ظُلمة، متوجّسا من سخرية السّكارى. فجأةً، دخل رجلان القاعة، ذراعاهما تحطّان فوق كتفي بعضهما، في عناق ودّيّ. كنتُ أعرفهما جيّدا. فهما من بين أكثر المزارعين ثراء في القرية. ويملك كلّ منهما عدّة بقرات وفريقا من الأحصنة وأراضي مُختارة.

انسللتُ خلف بعض البراميل الفارغة في الرّكن. جلس الرّجلان على مقعد عند الطّاولة، التي ما تزالُ مليئة بالأكل. وتحدّثا ببطء. عرضا على بعضهما أقساما من الطّعام. وتجنّب كلّ واحد فيهما، كما هي العادةُ، أن ينظر في عيني الآخر، محافظين على ملامح صارمة. ومن ثمّ، مدّ أحدهما يدهُ ببطء إلى جيبه. وبينما يلتقطُ قطعة نقانق بيدٍ، سحب سكّينا ذات شفرة طويلة مسنّنة باليد الأخرى. وطعن ملء قوّته ظهر رفيقه المطمئنّ.

ودون أن يلتفت إلى الخلف، غادر القاعة وهو يمضغ النّقانق متلذّذا. حاول الرّجل المطعونُ أن ينهض. نظر من حوله بعينين زجاجيّتين. وعندما رآني، حاول أن يقول شيئا مّا. ولكنْ، كلّ ما توصّل إلى الخروج من فمه كان قطعة كرنب نصف ممضوغة. حاول مرّة أخرى أن يقف على قدميه. لكنّه تمايل لوهلة. ثمّ انزلق بلطف بين المقعد والطّاولة. حاولتُ أن أتأكّد من عدم وجود أيّ شخص آخر. وتحاملتُ على نفسي بلا جدوى كي أتوقّف عن الارتجاف. ثمّ اندفعتُ خارج الباب الموارب، مثل جرذ. وركضتُ إلى الحظيرة.

عند الغسق، كان فتيانُ القرية يمسكون بالفتيات. ويجرّونهنّ إلى الحظيرة. يظهر فوق كومة من القشّ رجلٌ يكشفُ مؤخّرته. ومن تحته امرأة تمدّ ذراعيها على هيأة نسر. وتستلقي على ظهرها. يترنّحُ السّكارى عبر ساحة الحصاد، لاعنين بعضهم البعض ومتقيّئين، وهم يضايقون العشّاق ويوقظون الغارقين في النّوم. اقتلعتُ لوحا من الجزء الخلفيّ للحظيرة. وانسللتُ عبر الفتحة. ركضتُ نحو حظيرة

سيّدي. وتسلّقت بسرعة كومة القشّ في الإسطبل، حيث كان مقرّ نومي.

لم تُنقل جثّة الرّجل المقتول على الفور من المنزل بعد حفل الزّفاف. لقد وُضعت في إحدى الغرف المجاورة، بينما اجتمعت عائلة القتيل في الغرفة الرّئيسيّة. وأثناء ذلك، قامت امرأة من أكبر نساء القرية سنّا بتعرية ذراع الميّت اليسرى. وغسلتها بخليط بنّيّ. دخل الرّجال والنّساء المصابون بتضخّم الغدّة الدّرقيّة إلى الغرفة، الواحد تلو الآخر. تتدلّى من تحت أذقانهم أكياسُ اللّحم القبيحةُ والمنتفخةُ تلك. وتنتشرُ فوق أعناقهم. أحضرت المرأة العجوز كلّ واحد منهم إلى الجثّة. ثمّ قامت بحركات معقّدة حول الجزء المُصاب. ومن ثَمّ رفعت اليد المفرغة من الحياة لتلمس التّورّم سبع مرّات. يردّد المريضُ الشّاحبُ من الرّعب من بعدها: "فليغادر المرضُ إلى حيثُ تغادرُ هذه اليد".

بعد المُعالجة، دفع المرضى لعائلة الميّت ثمن الشّفاء. ظلّت الجثّةُ في الغرفة. ترتاحُ يدُها اليسرى على صدرها. بينما وُضعت شمعةٌ قدسيّة في اليد اليمنى المتصلّبة. ومع بلوغ اليوم الرّابع، اشتدّت الرّائحة في الغرفة. دُعي كاهنٌ إلى القرية. وانطلق الإعدادُ للدّفن.

ظلّت زوجة المزارع بعد الجنازة بفترة طويلة رافضةً لتنظيف بقع الدّم من غرفة الجريمة. لقد كانت مرئيّة بوضوح على الأرضيّة والطّاولة، مثل فُطر بلون الصّدأ القاتم، وقد ترسّخ في الخشب إلى الأبد. يعتقدُ الجميعُ أنّ هذه البقع التي تشهدُ على الجريمة، ستُعيدُ القاتل، آجلا أم عاجلا، إلى نفس المكان، رغما عن إرادته. وتؤدّي إلى موته.

ومع ذلك، فقد كان القاتلُ، الذي أتذكّرُ وجهه جيّدا، يتناول عشاءه مرارا في نفس الغرفة، حيث ارتكب جريمته، مُبتلعا الأطعمة الوفيرة التي

تُقدّم له. لم أستطع أن أفهم كيف يمكن أن يمكث غير خائف من بقع الدّم هذه. كنتُ أشاهدهُ مرارا باندهاش مرضيّ، بينما يمشي فوقها ثابتا، وهو يدخّنُ غليونه أو يقضمُ قطعةً من الخيار المخلّل، بعد أن يبتلع في جرعةٍ واحدة كأسا من فودكا.

أشعرُ بالتّوتّر في مثل هذه اللّحظات مثل مقلاع مشدود. كنتُ أنتظر حدثا خارقا: أن تنفتح هوّة مظلمة من تحت بقع الدّم، فتبتلعه دون أيّ أثر أو يتلبّسه رُقَاص القدّيس فيتوس[11]. لكنّ القاتل كان يتبخترُ فوق البُقع. أحيانا، أتساءل في اللّيل إن كانت بقع الدّم قد فقدت قدرتها على الانتقام. فقد أصبحت باهتة الآن. وسّختها القططُ الصّغيرةُ. ومسحت المرأةُ نفسُها مرارا، بعد أن نسيت قرارها، الأرضيّة بواسطة الممسحة.

ومن جهة أخرى، علمتُ أنّ الإجراءات العدليّة تكونُ في أغلب الأحيان بطيئة إلى أبعد حدّ. سمعتُ في القرية عن قصّة جمجمةٍ خرجت من قبر. وتوصّلت إلى أن تتدحرج عبر منحدر بين الصّلبان، مُتجنّبةً بعناية فُرش الأزهار المتفتّحة. حاول حفّار القبور أن يوقف الجمجمة بواسطة مسحاة. لكنّها تجاوزته. وتوجّهت نحو بوّابة المقبرة. رآها حارسُ الغابة أيضا. وحاول كذلك أن يوقفها بإطلاق النّار من بندقيّته عليها. ومع ذلك، تدحرجت الجمجمة الثّابتةُ أمام كلّ العقبات بصرامة على الطّريق المؤدّية إلى القرية. وانتظرت اللّحظة

(11) التّسمية العتيقةُ لرُقاص سيدنهام. وهو مرضُ خلل في الحركة يدفع المريض إلى حركات سريعة لُحنيّة وغير متناسقة. (المترجم)

المواتية. فألقت بنفسها تحت حوافر أحصنة يملكها مزارع محلّيّ. توقّفت الأحصنةُ فجأة. وانقلبت عربتها، لتقتل السّائق على الفور.

عندما سمع النّاس بالحادث، أصابهم الفضول. وقاموا بالتّحقيق أكثر في القضيّة. فاكتشفوا أنّ الجمجمة قد قفزت من قبر الأخ الأكبر لضحيّة الحادث. وقبل عشر سنوات، كان هذا الأخ على وشك أن يرث أملاك الأب. ولكنّ أخاهُ الأصغر وزوجتهُ شعرا بالغيرة الواضحة من ثروته المرتقبة. وذات ليلة، مات الأخ الأكبرُ فجأة. وقرّر أخوه وزوجتهُ دفنهُ بشكل متسرّع، دون أن يسمحا حتّى لأقاربه بزيارة جثّته.

انتشرت في القرية شائعات عديدةٌ حول سبب موت مفاجئ كهذا. ولكن، لم يثبت أيّ شيء بدقّة. وشيئا فشيئا، غَنِمَ الأخُ الأصغرُ، الذي استحوذ في النّهاية على الأملاك، الثّروة والتّقدير من الجميع.

تخلّت الجمجمةُ بعد الحادث الذي وقع عند بوّابة المقبرة عن تسكّعها. وارتاحت بهدوء في غبار الطّريق. وأظهر التّحقيق المفصّل أنّ مسمارا كبيرا صدئا، كان قد غُرز في عظمها.

وهكذا، بعد سنوات عديدة، عاقبت الضّحيّةُ الجلاّد. وساد العدلُ. ولذلك يُعتقدُ أنّ المطر والنّار والرّيح كلّها عاجزة عن مسح أثر جريمة، لأنّ العدالة معلّقة فوق العالم مثل مطرقة هائلة ترفعها ذراعٌ قويّةٌ، يجدر بها أن تتوقّف لوهلة قبل تهوي بقوّة رهيبة على السّندان المطمئنّ. وكما اعتاد أهل القرى أن يقولوا: حتّى ذرّةُ غبار تنجلي أمام الشّمس.

بينما يتركني الكبارُ عادةً وحدي، وجب عليّ أن أحترس من فتيان القرية. فقد كانوا صيّادين ماهرين. وكنتُ لعبتهم المفضّلة. وحتّى سيّدُ المزرعة اعتاد أن يحذّرني من المكوث في طريقهم. أصطحبُ الماشية إلى

أقصى المراعي، بعيدا جدّا عن الصّبية الآخرين. العشبُ أكثر نماء هناك. ولكن، ينبغي عليّ أن أراقب البقرات باستمرار، حتّى أمنعها من الشّرود إلى الحقول المجاورة وتدمير محاصيلها. هناك، أصير آمنا إلى حدّ مّا من الغارات وغير مكشوف تماما. ومن حين إلى آخر، يزحفُ بعضُ الرّعاة مقتربين منّي. فيشنّون هجوما مفاجئا. وعادةً ما أتعرّض للضّرب. وأفرّ إلى الحقول. في مناسبات كهذه، أحذّرهم بصوت عال أنّه في حال أفسدت البقرات المحاصيل أثناء ابتعادي عنها، فإنّ سيّدي سيعاقبهم. وينجحُ التّهديد في أغلب الأحيان، ليعودوا مجدّدا إلى بقراتهم.

أظلُّ خائفا رغم ذلك من هذه الهجومات. ولا أستطيعُ أن أحظى بلحظة سلام واحدة. كلّ حركة تصدر عن الرّعاة، كلّ تجمهر وكلّ علامة حركة باتّجاهي، تملؤني بالخوف من وجود مؤامرة.

تتركّزُ ألعابهم ومخطّطاتهم الأخرى حول المعدّات العسكريّة التي يعثرون عليها في الغابة. وتكونُ أساسا خراطيش بندقيّات وألغاما أرضيّة، تُسمّى في القرية صابونا بسبب أشكالها. وليعثر المرءُ على مخابئ الذّخيرة، يحتاجُ فقط أن يمشي بضعة أميال في الغابة. ويفتّش بين الشّجيرات وفي الخمائل. تُركت الأسلحةُ من قبل كتيبتين من المقاتلين الذين شنّوا هناكَ معركة لا نهاية لها، قبل بضعة أشهر. كانت "فطائر الصّابون" وفيرة بشكل خاصّ. ويقول بعضُ المزارعين إنّ المقاتلين "البيض" قد خلّفوها وراءهم، أثناء هروبهم. وأقسم آخرون أنّها غنائمُ أخذها "البيضُ" من "الحمر". ولم يستطيعوا حملها مع كلّ معدّاتهم الأخرى.

يمكنُ للمرء أن يعثر أيضا على بنادق مكسورة في الغابة. يأخذُ الفتيانُ سبطاناتها. فيقطعونها إلى أجزاء، يصمّمون منها مسدّسات ذات مقابض مشكّلة من أغصان الأشجار. وتعملُ هذه المسدّسات بذخيرة البنادق التي يُعثر عليها بسهولة أيضا في الأدغال. وتُطلق الخراطيشُ بواسطة مسمار مُثبّت بشريط من المطّاط.

ورغم كونها مرتجلةً، فإنّ بإمكان هذه المسدّسات أن تكون قاتلةً. لقد أصيب صبيّان من القرية بجروح خطيرة أثناء شجارهما وإطلاقهما الرّصاص بمسدّسين من هذا النّوع. وانفجر مسدّس آخرُ محلّيّ الصّنع في يد صبيّ. فاقتلع كلّ أصابعه وأذنَه. لكنّ الأكثر إثارة للشّفقة هو الابنُ المَعُوقُ المشلول لأحد جيراننا. لقد دبّر شخصٌ مّا حيلة له. فوضع عدّة خراطيش من ذخيرة البندقيّة في قعر مذنّبه. وعندما أشعل الفتى المُطمئنُّ مذنّبهُ في الصّباح، وشرع يُؤرجحهُ بين ساقيه، انفجرت الخراطيشُ.

ثمّت أيضا طريقة "المسحوق" في إطلاق النّار. وتقومُ على سحب الرّصاصة من علبة الخرطوشة وسكب القليل من مسحوقها. تُضغَطُ الرّصاصةُ حينئذ عميقا في العلبة نصف الفارغة، فيما يُوضعُ باقي المسحوق فوقها، مُغطّيا إيّاها. تُوضعُ خرطوشة مدلّسة من هذا النّوع في شقّ لوح خشبيّ أو تُدفنُ في الأرض حتّى رأسِها تقريبا. ومن ثمَّ تصوّبُ في اتّجاه الهدف. فيشتعل المسحوق الذي في الأعلى. وعندما تصلُ النّارُ إلى الفتيل، تقطعُ الرّصاصةُ مسافة عشرين قدما أو أكثر. وكان خبراءُ "المسحوق" يقيمون المُسابقات والرّهانات حول أيّ رصاصة ستمضي أبعد، وأيّ مقادير من المسحوق تُوضعُ في الأعلى وفي الأسفل ستكون الأفضل. أمّا الفتيانُ الأكثر جرأة، فقد حاولوا إثارة إعجاب الفتيات

بإطلاق الرّصاصة بينما يحملون في الآن ذاته الخرطوشة. عادة ما تصطدمُ علبة الخرطوش أو فتيلُ الإشعال بإحدى الفتيان الواقفين جانبا. وقد كان أوسمُ الفتيان في القرية يملك صمّاما من هذا النّوع مغروزا في إحدى أطراف جسده. ويكفي أن يُذكر أمره فيما بينهم، حتّى يشرع الجميعُ في الضّحك. كان يتجوّلُ في أغلب الأحيان وحيدا، مُتجنّبا نظرة النّساء وسخريتهنّ.

ولكنّ هذه الحوادث لم تكن تردعُ في النّهاية أحدا منهم. ولطالما تقايض البالغون والفتيانُ باستمرار ذخائرهم "الصّابون" وسبطانات البنادق والأقفال، بعد أن يقضّوا ساعات طوالا وهم يفتّشون في كلّ شبر من الأدغال الكثيفة.

يعتبر العثور على صمّام موقّت بمثابة العثور على جائزة. ويمكنُ مبادلته بمسدّس محلّيّ الصّنع بخزّان خشبيّ وعشرين رصاصة من الذّخيرة. فقد كان ضروريّا لصنع الألغام من الصّابون. يكفي أن يلصق المرءُ صمّاما في فطيرة صابون. ويشعلها. ومن ثَمّ يجري مُبتعدا عن الانفجار، الذي من شأنه أن يهزّ نوافذ جميع المنازل في القرية. وهناك طلبٌ كبير لهذه الصّمّامات عند حفلات الزّفاف ومراسم التّعميد. فقد كانت الانفجارات تضفي جاذبيّة كبيرة على هذه المناسبات، إلى درجة أنّ النّساء يصرخن من الحماس في انتظار تفجير الألغام.

لا أحد يعرفُ أنّني قد خبّأتُ صمّاما موقّتا وثلاث قطع من الصّابون في الحظيرة. عثرتُ عليها في الغابة أثناء جمعي للزّعتر البرّيّ من أجل زوجة المزارع. كان الصّمّامُ جديدا تقريبا، ذا فتيل طويل جدّا.

أحيانا وعندما أكونُ بمفردي، أخرجُ قطع الصّابون والصّمّام. فأوازنها في يدي. ثمّت شيء خارقٌ للعادة في هذه القطع المصنوعة من

مادّة غريبة. لم تكن الصّابوناتُ تشتعلُ بشكل جيّد بمفردها. ولكن عندما يوضعُ الصّمّامُ بداخلها ويُشعل، لا يستغرق اللّهبُ وقتا طويلا ليزحف على امتداد الفتيل ويحدث انفجارا بإمكانه أن يدمّر مزرعة بأكملها.

حاولتُ أن أتخيّل أولئك الأشخاص الذين اخترعوا هذه الصّمّامات والألغام. وصنعوها. لقد كانوا دون شكّ متيقّنين من كونهم ألمانا. أليس يُشاعُ في القرى ألاّ أحد بإمكانه أن يقاوم قوّة الألمانيّ، لأنّه يستحوذُ على عقول البولنديّين والرّوس والغجر واليهود؟

ما الذي يعطي النّاس القدرة على اختراع أشياء كهذه؟ ولماذا لا يستطيع مزارعو القرية فعل ذلك؟ ما الذي يمنحُ أناسا بنفس لون العين والشّعر قوّة عظيمة كهذه تُسلّط على الآخرين.

إنّ محاريث المزارعين ومناجلهم ومجاريفهم ودواليبهم وآبارهم وطواحينهم التي تدور بواسطة خيول كسولة أو ثيران سقيمة، لبسيطة جدّا إلى درجة أنّ أكثر الرّجال بلادة يمكنه اختراعها وفهم كيفيّة استعمالها واشتغالها. ولكنّ صناعة صمّام قادر على حقن لغم بقوّة ساحقة، يتجاوز بكلّ تأكيد مقدرة أكثر المزارعين حكمة.

وإذا كان صحيحا أنّ الألمان قادرون على اختراع هذه الأشياء، وأنّهم مصمّمون أيضا على تطهير العالم من جميع النّاس داكني البشرة، ذوي العيون السّوداء والأنوف الطّويلة وأصحاب الشّعر الأسود، فمن الواضح أنّ فرصي في النّجاة ضئيلة جدّا. آجلا أم عاجلا، سأقع مجدّدا بين أيديهم. ولن أكون على الأرجح محظوظا كالمرّة السّابقة.

تذكّرتُ الألمانيّ ذا النّظّارتين الذي سمح لي بالهروب في الغابة. كان أشقر بعينين زرقاوين. لكنّه لم يبدُ حكيما بشكل استثنائيّ. أيّ معنى كان قد وجدهُ في البقاء في محطّة صغيرة مهجورة ومطاردة سمكة صغيرة

مثلي؟ وإن كان ما قالهُ المزارعُ القائدُ في القرية صحيحا، فمن سيقومُ حينئذ بكلّ الاختراعات حين ينشغل الألمانُ بحراسة محطّات السّكك الحديديّة الصّغيرة؟ إذ يبدو أنّه ليس ممكنا حتّى لأحكم النّاس أن يخترع الكثير في محطّة بائسة كتلك.

غفوتُ مُفكّرا في الاختراعات التي أرغبُ في القيام بها: مثلا، صمّام للجسد البشريّ. يُشعل. فيغيّر الجلد القديم بآخر جديد. ويبدّل لون العينين والشّعر. وكذلك صمّامٌ يوضعُ في كومة من لوازم البناء. فيبني منزلا في يوم واحد، يكون أفخم من أيّ منزل آخر في القرية. وصمّامٌ يستطيع حماية أيّ شخص من العين الشّرّيرة. وحينئذ، لن يخاف منّي أحد. وستصبح حياتي أسهل وأكثر متعة.

لقد حيّرني الألمانُ. يا للخسارة. هل عالمٌ مفلسٌ وقاسٍ كهذا العالم جدير بأن يحكَم؟

ذات أحد، لمحتني مجموعةٌ من فتيان القرية العائدين من الكنيسة. وإذ فاتني حينُ الفرار، ادّعيتُ اللاّمبالاة. وحاولتُ إخفاء خوفي. وبينما كنت أمرّ قربهم، قفز أحدهم فوقي. ودفعني في بركة عميقة مُوحِلة. وبصق الآخرون في عينيّ، وهم يضحكون مع كلّ تسديدة موفّقة. طلبوا منّي بعض "الحيل الغجريّة". حاولتُ أن أبتعدَ قليلا، ثمّ أهرب منهم. لكنّ الدّائرة ضاقت من حولي. ولأنّهم أطول منّي، فقد طوّقوني وانغلقوا عليّ مثل شبكة حيّة تقتنصُ طائرا. وكنتُ خائفا ممّا قد يفعلونه بي. نظرتُ إلى أسفلَ حيث جِزَمُهم العاليةُ. فأدركتُ أنّه بإمكاني العدوُ -وقد كنتُ حافيًا- أسرعَ منهم. أفرذْتُ الفتى الأضخم. والتقطتُ حجرا ثقيلا. وهشّمته في وجهه، الذي انكمش وارتخى لوقع الضّربة. وسقط الصّبيّ على الأرض ينزف دمهُ، بينما

تراجع الآخرون من الصّدمة. وفي تلك اللّحظة تحديدا، قفزتُ من فوقه. وهربتُ عبر الحقول باتّجاه القرية.

عندما وصلتُ إلى البيت، بحثتُ عن المُزارع لأخبره بما حدث وأطلب حمايته. لكنّه لم يعد بعدُ من الكنيسة رفقة عائلته. كانت حماتهُ الدّرْدَاءُ تتسكّع بمفردها حول الفِناء.

شعرتُ بوهَنٍ في ساقيّ. وقد اقترب من القرية حشدٌ من الرّجال والفتيان، يلوّحون بالهراوات والعصيّ، مقتربين بسرعة متزايدة.

إنّها نهايتي لا محالة. ولا شكّ أنّ أبا الفتى الذي أصبته أو إخوته موجودون وسط هذا الحشد. وليس لي أن أتوقّع أيّ رحمة. اندفعتُ إلى المطبخ. فسحبت بعض الجمرات المتوهّجة إلى مذنّبي. وهرعتُ إلى الحظيرة. وأغلقتُ الباب ورائي.

تشتّتت أفكاري مثل دجاجات خائفة. سيمسكُ بي الحشدُ في أيّ لحظة.

وفجأة، تذكّرتُ الصّمّام والألغام. نبشتُ بحثا عنها بسرعة. غرزتُ الصّمّام بأصابع مرتعشة بين قطع الصّابون المضغوطة جيّدا. ثمّ أشعلتهُ بمذنّبي. ففحّ طرفُه. وشرعت البقعة الحمراء في الزّحف ببطء على امتداد الفتيل، مُتّجهة نحو قطع الصّابون. دفعتُها كلّها تحت كومة من المحاريث والأمشاط المكسورة في إحدى زوايا الحظيرة. ومسعورا، اقتلعتُ لوحا من الجدار الخلفيّ.

وصل الحشدُ إلى فناء المزرعة. وصار بإمكاني أن أسمع صرخاته. أمسكتُ بالمذنّب. وزحفتُ عبر الفتحة إلى الخارج. واندسستُ في الحنطة

الكثيفة خلف الحظيرة. غصتُ فيها عميقا، جاثما تحت غطائها. وشققتُ طريقي إلى الغابة مثل خلد.

ربّما كنتُ في منتصف الطّريق، وسط الحقل، عندما اهتزّت الأرضُ بسبب الانفجار. التفتُّ إلى الخلف. وكان جداران يميلان، بشكل محزن، واحدهما على الآخر، كلَّ ما تبقّى من الحظيرة. وبينهما تُدوّمُ كتلةٌ من الألواح المتشظّية والتّبن المحوِّم. ثمّ انتشر الغبارُ من فوقها.

استرحتُ بعد أن وصلتُ إلى حافّة الغابة. وكنتُ سعيدا إذْ لم ألمح أيّ نار في حظيرة سيّدي. كلّ ما أمكنني سماعُه هو صخب الأصوات. ولم يتبعني أحدٌ.

كنتُ أعلمُ جيّدا أنّني لا أستطيع العودة إلى هناك. فواصلتُ طريقي في الغابة، مُحدّقا بانتباه عبر النّباتات المتشابكة في الأسفل، حيثُ ما تزالُ توجدُ العديدُ من الخراطيش وقطع الصّابون والصّمّامات التي يمكن العثور عليها.

9

تسكّعتُ لأيّام عديدة في الغابات. وقد حاولتُ لأكثر من مرّة أن أقترب من القرى. رأيتُ في المرّة الأولى أناسا يجرون من منزل إلى آخر، وهم يصرخون ويلوّحون بأيديهم. لم أفهم ما الذي كان يحدث حقّا. ولكن بدا لي من الحكمة أن أبقى بعيدا. في القرية التّالية، سمعتُ صوت طلقات، ممّا يعني أنّ الفصائل أو الألمان موجودون في الأنحاء. وذلك ما ثبّطني ودفعني إلى إكمال رحلتي الشّاقّة طيلة يومين. ثمّ قرّرتُ في النّهاية، وبسبب الجوع والإنهاك، أن أجرّب القرية التّالية التي بدت هادئة بما فيه الكفاية.

ما أن خرجتُ من الأدغال حتّى وجدتُني أمشي قرب رجل يحرثُ حقلا صغيرا. كان ضخما بيدين وقدمين هائلتين. تغطّي لحيتهُ المحمرّةُ وجهَهُ. وتكاد تصل إلى عينيه. ينتصبُ شعره الطّويلُ الأشعثُ مثل القصب المتشابك. وتحدّقُ فيّ عيناهُ الرّماديّتان بحذر. حاولتُ أن أقلّد اللّهجة المحلّيّة. وقلت له إنّني متأهّبٌ، من أجل مكان للنّوم والقليل من الطّعام، أن أحلب أبقاره، وأنظّف الإسطبل، وآخذ الدّوابّ إلى المراعي، وأقطع الخشب، وأعدّ الفخاخ للطّرائد، وأتلو التّعاويذ ضدّ كلّ أنواع الأمراض البشريّة والحيوانيّة. استمع إليّ المزارعُ بانتباه. ثمّ اصطحبني إلى منزله دون أن ينطق بكلمة واحدة.

لم يكن لديه أبناء. ولقد وافقت زوجتهُ، بعد أن تجادلت مع بعض الجيران، على القبول بي. عُرض عليّ مكانُ نومي في الإسطبل. ومن ثمّ، أُعلِمتُ بواجباتي.

كانت القريةُ فقيرةً. بُنيت أكواخُها بدعائم خشبيّة مكسوّة من الجهتين بالطّين والتّبن. غُرزت الجدرانُ عميقا في الأرض، لتسند السّقوف المغلّفة بالقشّ والمتوّجة بالمداخن المصنوعة من الصّفصاف والطّين. القليلُ من الفلاّحين فقط كانوا يملكون حظائر. وحتّى هذه الحظائر تبنى غالبا، مرارا وتكرارا، من أجل أن ينجو جدار واحد. ومن حين إلى آخر، يأتي جنودٌ ألمان من محطّة سكك حديديّة مجاورة ليأخذوا أيّ طعام يعثرون عليه.

عندما يقتربُ الألمان من المنزل ويتأخّر وقتُ الهروب إلى الغابة، يخبّئني سيّدي في قبوٍ مموَّهٍ بمهارة تحت الحظيرة. مدخلهُ ضيّق جدّا. ويبلغ عمقه على الأقلّ عشر أقدام. لقد ساعدته بنفسي في حفره. ولا أحد غير الرّجل وزوجته كان يعلم بوجوده.

يملكُ القبوُ مخزن مؤونة مجهّز بشكل جيّد بقطع كبيرة من الزّبدة والجبن ولحم الخنزير المدخّن وأشرطة النّقانق وزجاجات الخمور محلّيّة الصّنع وأطعمة شهيّة أخرى. كان قاعُ القبو رطبا دائما. وبينما يندفعُ الألمانُ في كلّ أنحاء البيت بحثا عن الطّعام، وهم يطاردون الخنازير في الحقول ويحاولون الإمساك بشكل أخرق بالدّجاج، أجلسُ هناك مُستنشقا الرّوائح الزّكيّة. ولطالما وقف الجنودُ فوق اللّوح الخشبيّ، وهم يغطّون مدخل القبو بأقدامهم. اعتدتُ أن أمسك بأنفي تجنّبا للعطس، وأنا أصغي إلى كلامهم الغريب. وما أن

يندثر في المسافة صوتُ الشّاحنات العسكريّة، حتّى يسحبني الرّجل إلى أعلى خارج القبو لأعود إلى مهامّي المعتادة.

انطلق موسمُ الفطر الذي يرحّب به القرويّون الجائعون. يذهبون إلى الغابات من أجل حصادهم الوفير. هناك حاجةٌ ملحّة إلى كلّ يد ممكنة. ولذلك، كان سيّدي يصطحبني معه دائما. تجوبُ مجموعات كبيرة من المزارعين القادمين من القرى الأخرى الغابات بحثا عن الزّوائد الصّغيرة. لقد أدرك سيّدي أنّني أبدو مثل غجريّ. فحلق شعري الأسود خوفا من الوشاية للألمان. وعندما تحينُ المغادرةُ، أضعُ على رأسي قبّعة قديمة واسعة تحجبُ نصف وجهي وتجعلني أقلّ انكشافا. ومع ذلك، فإنّني أشعر بعدم الرّاحة إزاء النّظرات المرتابة للفلاّحين الآخرين. ولهذا حاولتُ دائما أن أمكث بجوار سيّدي. وشعرتُ أنّني كنتُ مفيدا له بما يكفي كي يحتفظ بي لفترة من الزّمن.

في طريقنا إلى تجمّع الفطر، نعبر السّكّة الحديديّة ونحنُ نجري خلال الغابة. ولأكثر من مرّة تصادفنا قاطراتٌ نهاريّة ضخمةٌ ولاهثةٌ، وهي تجرّ قطارات الشّحن الطّويلة. تطلّ الرّشّاشاتُ من سقوف العربات. وترتاحُ على منصّة أمام الآلة البخاريّة. ثمّت جنودٌ بخوذات على رؤوسهم يتفحّصون السّماء والغابات بواسطة المناظير.

ظهر لاحقا نوع جديد من القطارات على السكّة. يزدحمُ داخلها أناسٌ أحياءٌ في عربات ماشية مغلّقة. جلب بعض الرّجال الذين يعملون في المحطّة الأنباء إلى القرية. تحملُ هذه القطارات الغجر واليهود الذين تمّ أسرهم والحكم عليهم بالإعدام. تتكدّسُ في كلّ عربة من هذه العربات مئات منهم، كما تتكدّسُ سيقانُ الذّرة. أيديهم مرفوعة إلى أعلى حتّى يشغلوا مساحة أقلّ. كانوا عجائز ويافعين، رجالا ونساء ورضّعا أيضا.

اعتاد المزارعون من القرى المجاورة أن يعملوا بشكل وقتيّ لبناء معسكرات الاعتقال. ومنها يعودون بحكايات غريبة. لقد أخبرونا أنّ اليهود، بعد مغادرتهم للقطار، يُقسّمون إلى مجموعات مختلفة. تُنزع ملابسهم تماما. وتفتكّ منهم كلّ أشيائهم. يحلقُ شعرهم ليُستخدم فيما يبدو من أجل الحشايا. يتفحّصُ الألمانُ كذلك أسنانهم. وإن كانت هناك أيّ سنّ ذهبيّة، فإنّها تُقتلعُ على الفور. لم تكن غرفُ الغاز والمحارقُ تتحمّلُ صرخات التّضرّع الهائلة للنّاس. وأولئك الذين يُقتلون بواسطة الغاز لا تُحرقُ جثثهم. وإنّما تُدفنُ ببساطة في حُفر حول المعسكر.

يُصغي المزارعون إلى هذه القصص ساهمين. يقولون إنّ عقاب الرّبّ قد أدرك اليهود أخيرا. وهم يستحقّونه منذ زمن بعيد، منذ أن صلبوا المسيح. ولم ينسَ الرّبُّ ذلك أبدا. وإذا كان قد تجاهل حتّى الآن ذنوبهم، فإنّه لم يغفرها لهم. والآن يستخدمُ الألمانَ أداةً لعدالته. ويُحرمُ اليهود من شرف أن يموتوا بشكل طبيعيّ. عليهم أن يموتوا بالنّار، وهم يعانون من عذابات الجحيم هنا على الأرض. إنّهم يعاقَبون بعدالة بسبب الجرائم المخزية التي ارتكبها أسلافهم، لكفرهم بالإيمان الحقيقيّ الوحيد وقتلهم بلا رحمة الرّضّعَ المسيحيّين وشربهم دماءهم.

أصبح القرويّون يوجّهون لي نظراتٍ أكثر قتامةً من قبل حتّى. يصرخون في وجهي: "أيّها اليهوديّ الغجريّ". "ستحترقُ أنت أيضا. سيكون ذلك حتما". كنتُ أتظاهر بأنّ ذلك لا يعنيني، حتّى حين يقبضُ عليّ بعض الرّعاة ويجرّونني إلى نارٍ. فيحرقون كعبي قدميّ، وفق مشيئة الرّبّ. أحاولُ أن أقاوم. أخدشهم. وأعضّهم. لم

أكن أنوي أن أُحرَق في نار مخيّم اعتياديّة كهذه، بينما يُفْحَمُ الآخرون في أفران مخصوصة ومعدّة بعناية من قبل الألمان ومجهّزة بمحرّكات أقوى من محرّكات أكبر القطارات.

كنتُ أمكثُ مُستيقظا طيلة اللّيل، متوجّسا إن كان الرّبُّ سيعاقبني أنا أيضا. أمن الممكن حقّا أن يكون غضبُ الرّبّ حكرا على أناس ذوي عيون سوداءَ وشعرٍ أسودَ، يدعون غجرا؟ لماذا يكونُ أبي، الذي مازلتُ أتذكّره جيّدا، أشقرَ بعينين زرقاوين، بينما تكون أمّي قاتمة البشرة؟ وما الفرقُ بين الغجريّ واليهوديّ إن كان كلاهما داكن اللّون ومنذورا لنفس المصير؟ على الأرجح، لن يُترك في العالم بعد الحرب إلاّ الشّقرُ ذوو العيون الزّرقاء. وحينئذ، ما الذي سيحدث لأبناء الشّقر الذين قد يولدون ببشرة داكنة؟

عندما تعبر في النّهار أو عند الغسق تلك القطاراتُ الحاملةُ لليهود، يصطفُّ المزارعون على جانبي السّكّة. ويلوّحون بأيديهم تحيّةً للمهندس وعامل الفرن والحرّاس القليلين. يمكنُ للمرء أن يلمح أحيانا عبر النّوافذ الصّغيرة المربّعة في أعلى العربات المغلقة وجهًا بشريّا. لا بدّ أنّ هؤلاء الأشخاص كانوا قد تسلّقوا أكتاف الآخرين ليروا إلى أين كانوا ذاهبين ويكتشفوا أصحاب الأصوات التي سمعوها في الخارج. وإذْ يلمحُ النّاسُ في العربات الحركاتِ الودّيّةَ للمزارعين، يحسبون دون شكّ أنّهم هم أنفسهم من يتلقّون التّحايا. تختفي بعد ذلك الوجوهُ اليهوديّةُ، فيما تلوّحُ كتلةٌ من الأذْرُعِ النّحيلة الشّاحبة بإشارات يائسة.

يشاهدُ المزارعون القطارات بفضول كبير، مُصغين بانتباه إلى صوت الطّنين الغريب للحشد البشريّ الذي ليس أنينا ولا بكاء ولا غناء. يمرّ

القطارُ. وإذ يتقدّمُ بعيدا، يحتفظُ المرءُ بقدرته على أن يرى على الخلفيّة المظلمة للغابة أذرعا بشريّة تلوّح لوحدها وبلا كلل من النّوافذ.

أحيانا، يلقي المسافرون في اللّيل على متن القطارات المتّجهة إلى المحارق، أبناءَهم الصّغار عبر النّوافذ، أملا في إنقاذ حيواتهم. ومن حين إلى آخر، يتوصّلون إلى اقتلاع ألواح الأرضيّة. وقد يشقُّ اليهودُ المصمّمون طريقهم عبر الفتحة، مصطدمين بالحجارة المهروسة التي تفترشها السّكّةُ الحديديّة أو بالسّكّة نفسها أو الأسلاكِ المشدودة هناك. وعندما تشجّها العجلاتُ، تتدحرجُ جذوعهم المبتورة على السّدّ، مستقرّة بين الأعشاب الطّويلة.

يعثر المزارعون المتجوّلون على امتداد السّكّة أثناء النّهار على هذه البقايا. فيجرّدونها على الفور من الملابس والأحذية. وخشية أن توسّخهم الدّماءُ السّقيمةُ لأولئك الذين لم يُعمَّدوا[12]، يمزّقون بحذر شديد بطانات ملابس الضّحايا، بحثا عن الأشياء الثّمينة. لقد حدثت نزاعات ومعاركُ كثيرة حول الغنائم. تُترك الجثث العارية لاحقا على السّكّة الحديديّة بين القضبان، حيثُ تعثر عليها الدّوريّة الألمانيّةُ التي تعبر الطّريق مرّة في اليوم. ويسكبُ الألمانُ البنزين على الجثث الملوّثة. فيحرقونها في مكانها أو يدفنونها في الأنحاء.

بلغ القريةَ ذات يوم أنّ قطاراتٍ كثيرةً محمّلة باليهود قد عبرت في اللّيل، الواحدَ تلو الآخر. أنهى المزارعون جمع الفطر أبكر من العادة. وذهبنا جميعا إلى مكان السّكك الحديديّة. فمشينا على امتداد مسارها،

---

(12) التّعميدُ هو طقس دينيّ يدخل بموجبه الإنسان، أو الرّضيع، في الدّين المسيحيّ. ويستندُ هذا الطّقسُ إلى الماء الذي يغطسُ فيه جسدُ المعمَّد (قديما بالأخصّ) أو يرشُّ وجهه بالماء. (المترجم)

في كلا الجانبين، نحدّقُ في الأدغال باحثين عن علامات دم في الأسلاك وعلى حافّة السّدّ. لم يكن هناك أيّ شيء خلال عدّة أميال. ثمّ رصدت إحدى النّساء فجأة بعض الأغصان المحطّمة في أجمة من الورود البرّيّة. فكّ شخصٌ مّا تشابك النّباتات الشّائكة. فرأينا طفلا صغيرا ذا خمس سنوات تقريبا ممدّدا على الأرض. كان قميصه وسرواله ممزّقين. أمّا شعرهُ الأسودُ فقد كان طويلا وحاجباهُ الدّاكنان مقوّسيْن. بدا كأنّه نائمٌ أو ميّتٌ. داسَ أحد الرّجال على ساقه. فاهتزّ الفتى. وفتح عينيه. حاول أن يقول شيئا مّا عندما رأى النّاس ينحنون فوقه. لكنّ زَبَدا ورديّا خرج من فمه بدلا عن الكلمات. ثمّ انزلق ببطء على ذقنه وعنقه. خاف المزارعون من عينيه السّوداوين. فتنحّوا بسرعة جانبا. ورسموا شارة الصّليب على أجسادهم.

سمع الطّفلُ أصواتا من خلفه. فحاول أن يلتفت. ولكنّ عظامه مكسورة على الأرجح. ولذلك اكتفى بالأنين. وظهرت على فمه فقاعة كبيرة داميةٌ. سقط إلى الخلف. وأغمض عينيه. وظلّ المزارعون يتأمّلونهُ بريبة عن بعد. زحفت إحدى النّساء إلى الأمام. أمسكت حذاءه المترهّل في قدميه. ومزّقتهُ. تحرّك الصّبيّ قليلا. تأوّه. ثمّ سعل المزيد من الدّم. فتح عينيه. فرأى المزارعين الذين كانوا يخرجون من مجال رؤيته، وهم يرسمون شارة الصّليب مذعورين. أغمض عينيه مجدّدا. ومكث بلا حراك. أمسكهُ رجلان من ساقيه. وقلباهُ. لقد مات. خلعا سترته وقميصهُ وتُبّانه. وحملاهُ إلى وسط السّكّة. لقد تُرك هناك. وليس من الممكن أن تغفل عنهُ الدّوريّةُ الألمانيّة.

التففنا للعودة إلى بيوتنا. ولكنّني ألقيتُ نظرة أخرى بينما نتقدّمُ. كان الفتى ممدّدا على الحجارة المبيضّة للسّكّة. ووحدها باقةُ شعره الأسود ظلّت مرئيّة من بعيد.

حاولتُ أن أخمّن ما فكّر فيه قبل أن يموت. لا بدّ أنّ والديه أو أصدقاءهُ قد أكّدوا لهُ، عندما ألقي به من القطار، أنّه سيعثر على المساعدة البشريّة التي ستنقذه من الموت الفظيع في الفرن العظيم. أحسبُ على الأرجح أنّه شعر بالخداع والغدر. كان ليفضّل أن يتسمّر بالجسدين الدّافئين لأمّه وأبيه داخل العربة المتراصّة، وأن يستشعر الضّغط، ويحسّ بالرّوائح الحارّة اللاّذعة وبحضور أناس آخرين، عارفا أنّه ليس وحيدا، إذ يحدّثهُ الجميع قائلين إنّ الرّحلة مجرّد سوء تفاهم.

ورغم أنّني شعرتُ بالأسف لمأساة الطّفل، إلاّ أنّ إحساسا بالارتياح لموته كان يستتر في قعر رأسي. فبقاؤه في القرية لن يكون نافعا لأحد. هكذا فكّرتُ. سوف يهدّدُ حيواتنا جميعا. وإذا سمع الألمان بوجود لقيط يهوديّ، فإنّهم سيتجمّعون في القرية. سيفتّشون كلّ بيت. ويعثرون على الفتى. وسيعثرون عليّ أيضا في قبوي. يرجّحون على الأغلب كذلك أنّني قد سقطتُ بدوري من القطار. فيقتلاننا معا على الفور، قبل أن يمرّوا إلى معاقبة القرية لاحقا.

لففتُ قبّعة القماش حول وجهي، وأنا أجرّ قدميّ عند نهاية المسلك. أليس تغيير عيون النّاس وشعورهم أسهل بكثير من صناعة محارق كبيرة وجمع اليهود والغجر لكي يحترقوا داخلها؟

أصبح تجمّعُ الفطر مهمّة يوميّة. وكانت سلالٌ بأكملها تجفُّ في كلّ مكان وسلالٌ معبّأةٌ تخبّأ في العلّيّات والحظائر. والمزيدُ من الفطر ينمو شيئا فشيئا في الغابات. ينتشرُ النّاسُ كلّ صباح في الغابة حاملين

سلالا فارغة. ويطنُّ النّحل المثقلُ والحامل لرحيق الأزهار الميّتة بكسل تحت شمس الخريف وعبر سكون النّباتات والأشجار المتشابكة الخالي من الرّيح والمحروس بأبراج الأشجار العالية.

ينادي النّاسُ بعضهم البعض بأصوات محتفلة، وهم ينحنون إلى أسفل لالتقاط الفطر، كلّما عثروا على عنقود ثريّ. فتجيبهم السّقسقات اللّطيفةُ المتشابكةُ للطّيور المنادية من أجمات العرعر والبندق ومن بين أغصان السّنديان والشّرد. أحيانا يُسمعُ صوتُ البومة المشؤوم. ولكن لا أحد بإمكانه أن يراها داخل حفرتها العميقة المخفيّة في بعض جذوع الأشجار. وقد يندفعُ ثعلبٌ محمرُّ اللّون مُسرعا باتّجاه الشّجيرات الكثيفة، بعد أن يتمّ وليمة من بيض الحجل. كما تزحفُ الأفاعي بتوتّر، وهي تفحُّ كي تمنح نفسها الشّجاعة. ويتّجهُ أرنبٌ برّيّ نحو الأدغال في قفزات هائلة.

لا شيء يكسرُ سمفونيّة الغابة إلاّ لهاث قاطرة أو حشرجة السّيّارات وصريرُ فراملها. يقفُ النّاسُ ساكنين وناظرين باتّجاه المسالك. وتؤولُ الطّيور إلى الصّمت. تنغمسُ البومةُ أعمقَ في حفرتها. وبأنفة، توشّحُ نفسها بعباءتها الرّماديّة. ينتصبُ الأرنبُ البرّيُّ، رافعا أذنيه الطّويلتين إلى أعلى. ومن ثمَّ، إذ يستعيدُ شعورَهُ بالأمان، يواصلُ قفزهُ.

خلال الأسابيع التي تلت وحتّى نهاية موسم الفطر، كنّا نمشي مرارا على امتداد مسارات السّكك الحديديّة. ومن حين إلى آخر، نعبر أمام أكوام صغيرة مستطيلة من الرّماد الأسود والعظام المتفحّمة المكسورة والمُداسة فوق الحصباء. يتوقّفُ الرّجال حينئذ، وهم يزمّون شفاههم. ويحدّقون في المشهد. ويخشى الكثيرُ من النّاس أن تعدي الجثثُ المحروقة نفسُها لأولئك الذين قفزوا من القطار أهلَ القرية وحيواناتهم. ولهذا السّبب يسارعون إلى مراكمة القمامة فوق الرّماد.

تظاهرتُ مرّة أنّني أنحني لألتقط فطرا سقط من سلّتي. وأمسكتُ حفنة من هذا الغبار البشريّ، الذي علق بأصابعي. كانت تفوح منه رائحة البنزين. حدّقتُ فيه عن كثب. ولكنّني لم أستطع أن أعثر فيه على أثر لشخص مّا. ومع ذلك، لا يشبه هذا الرّمادُ ذاك الذي يبقى في مواقد المطابخ، حيث احترق الخشبُ والخثّ المجفّفُ والطّحالبُ. شعرتُ بالرّعب. وبدا لي وأنا أفرك حفنة الرّماد بين أصابعي أنّ شبح الشّخص المُحرَق يحوم حولي، متفرّجا فينا ومتذكّرا صورنا جميعا. عرفتُ أنّ الشّبح لن يتركني على الأرجح أبدا. وسيلحقُ بي. ويطاردني في اللّيل. فيسرّب المرض في عروقي والجنون في عقلي.

كنتُ أرى مع كلّ قطار جديد يمرّ كتائب من الأشباح ذات وجوه قبيحة منتقمة تقتحمُ العالم. يقول المزارعون في القرية إنّ الدّخان المتصاعد من المحارق يذهبُ مباشرة إلى السّماء، مُشكّلا سجّادا ناعما عند قدمي الرّبّ، دون أن يوسّخهما حتّى. تساءلتُ إن كان هذا العدد الكبير من اليهود ضروريّا لتعويض الرّبّ على مقتل ابنه. وربّما سيصير العالمُ قريبا فرنا واحدا هائلا لحرق النّاس. ألم يقل الكاهنُ إنّهم منذورون جميعا للهلاك والعبور من "الرّماد إلى الرّماد"؟

عثرنا على امتداد السّدّ، بين السّكك الحديديّة، على ما لا نهاية له من قصاصات الورق والدّفاتر والمفكّرات والصّور العائليّة والوثائق الشّخصيّة المطبوعة وجوازات السّفر القديمة واليوميّات. وتكون الصّور طبعا أفضل ما يمكن العثور عليه، بما أنّ أغلب القرويّين لا يجيدون القراءة. يظهر في العديد من هذه الصّور أناسٌ مسنّون، وهم يجلسون جامدين في ملابس مميّزة. وفي صور أخرى يقف آباءٌ مرتدون

لملابس أنيقة، وهم يضعون أذرعتهم على أكتاف أبنائهم، مبتسمين في ملابسهم التي لم ير أيّ شخص في القرية مثلها من قبلُ أبدا. أحيانا، نعثر على صور لفتيات يافعات جميلات أو فتيان وسيمين. كما توجدُ صورٌ أخرى لرجال عجائز يشبهون الحواريّين وسيّدات مسنّات بابتسامات باهتة وأخرى حيثُ أطفالٌ يلعبون في حديقة عامّة ورضّع يبكون ومتزوّجون حديثا يتبادلون القبل. يوجدُ في قفا هذه الصّور كلماتُ وداع وقسَم ومقاطع دينيّة خُطّت بيد هزّها بوضوح الخوفُ أو حركةُ القطار. وعادة ما تكون الكلماتُ متفسّخة بندى الصّباح أو مبيضّة بأشعّة الشّمس.

يجمعُ المزارعون بحماسة هذه الوثائق. تتضاحكُ النّساءُ. ويتهامسن حول صور الرّجال، بينما يتمتمُ رجالُ القرية نكات بذئيةً وتعاليق حول صور الفتيات. يحتفظُ أهل القرية بهذه الصّور. يقايضونها بأشياء أخرى. ويعلّقونها في أكواخهم وحظائرهم. هناك في بعض المنازل صورة للسّيّدة العذراء على إحدى الجدران، صورة للمسيح على آخر، صورة للصّلب على جدار ثالث وصور للكثير من اليهود على الجدار الرّابع. يجتمع المزارعون بعمّالهم متبادلين صور الفتيات. فيتأمّلونها بحماسة. ويتلاعبون فيما بينهم بشكل غير محتشم. ويقال إنّ واحدة من أكثر فتيات القرية جاذبيّة قد وقعت في حبّ رجل وسيم في إحدى الصّور، حتّى أنّها لم تعد تريدُ النّظر إلى خطيبها بعد ذلك.

ذات يوم، عاد صبيّ من حقول الفطر بنبأ فتاة يهوديّة عُثر عليها عند مسلك السّكك الحديديّة. لقد كانت حيّة بكتفٍ ملتوية وبعض الكدمات فحسب، ممّا جعل أهل القرية يرجّحون سقوطها من فتحة الأرضيّة

عندما أبطأ القطار إثر وصوله إلى منعطف. فنجت حينئذ من إصابات أكثر خطورة.

ذهب الجميع لمشاهدة هذه الأعجوبة. ظلّت الفتاة تعرجُ مستندة جزئيًا إلى بعض الرّجال. وكان وجهها الرّقيق شاحبا جدّا. تملكُ حاجبين كثيفين وعينين سوداوين تماما. يلتفُّ شعرها الأسودُ الطّويلُ اللاّمع بواسطة شريط. وينسدل على ظهرها. ملابسها كانت ممزّقة. وأمكنني أن أرى كدمات وخدوشا على جسدها الأبيض. وكانت تُسنِدُ بذراعها السّليمة ذراعَها المصابة.

اصطحبها الرّجالُ إلى منزل زعيم القرية. واجتمع حشدٌ من النّاس الفضوليّين يتأمّلونها بانتباه. بدا أنّها لا تعي أيّ شيء ممّا يحدث حولها. وكلّما اقترب أحد الرّجال منها، ضمّت يديها كأنّها تصلّي، وتمتمت شيئا مّا بلغة لا يفهمها أحد. كانت مذعورة، تحدّق من حولها بعينين ذات مُقلتين بيضاوين زرقاوين وبؤبؤين سوداوين تماما. تشاور الزّعيمُ مع بعض شيوخ القرية ومع الرّجل الملقّب بقوس قزح الذي كان قد عثر على اليهوديّة. وتمّ الإقرارُ في النّهاية بإرسالها، وفقا للتّرتيبات الرّسميّة، إلى مقرّ الألمان في اليوم التّالي.

تفرّق المزارعون ببطء متّجهين إلى منازلهم. لكنّ بعضهم وأكثرهم جرأة مكثوا في مكانهم، يتفرّجون في الصبيّة ويطلقون نكاتهم. أمّا النّساءُ العمشاواتُ، فقد بصقن ثلاثا باتّجاهها، وهنّ يتمتمن من تحت أنفاسهنّ ويحذّرن أحفادهنّ.

أمسك قوسُ قزح الفتاة من ذراعها. وأخذها إلى كوخه. ورغم أنّ البعض كان يعتبره غريب الأطوار، إلاّ أنّه كان محبوبا بشكل جيّد في

القرية. يملكُ هذا الرّجلُ اهتماما مميّزا بالعلامات السّماويّة، وخصوصا قوس قزح. ومن هنا جاء لقبه. يشرعُ في المساء في تسلية جيرانه. فيظلُّ يتحدّثُ لساعات طويلة عن قوس قزح. لقد تعلّمتُ وأنا أصغي إليه من ركن مظلم أنّ قوس قزح قضيبٌ مقوّسٌ ومجوّفٌ مثل القشّ. ينغمسُ إحدى طرفيه في نهر أو بحيرة. ويغرف من مائه. ثمّ يوزّع بعد ذلك بشكل عادل على أرجاء القرى. يُسحبُ السّمك والمخلوقات الأخرى مع الماء. ولهذا السّبب يجدُ المرءُ نفس النّوع من الأسماك في بحيرات وبِرَكٍ وأنهار متباعدة جدّا.

يجاورُ كوخ قوس قزح كوخَ سيّدي. وتتشاركُ حظيرته جدارا مع الحظيرة التي أنام فيها. لقد توفّيت زوجته منذ زمن. ولكنّ قوس قزح الذي ما يزالُ شابّا لم يتمكّن من حسم قراره فيما يخصّ شريكته الجديدة. اعتاد جيرانه القول إنّ أولئك الذين يحدّقون مليّا في أقواس القزح لا يستطيعون أن يروا مؤخّرة أمام وجوههم. ثمّت عجوز تتكفّل بالطّبخ له والاهتمام بأبنائه أثناء عمله في الحقول أو سكره من حين إلى آخر من باب التّسلية.

كان على اليهوديّة أن تقضي اللّيلة في بيت قوس قزح. أيقظني في ذلك المساء صوت الضّجيج والبكاء في حظيرته. خفتُ في البداية. لكنّني عثرتُ لاحقا على شقّ أستطيع من خلاله أن أرى ما كان يحدث. تستلقي الفتاةُ على بعض الأكياس في وسط أرضيّة الدّرس التي تمّ تنظيفها. وإلى جانبها يشتعل مصباح زيت فوق دعامة قديمة. جلس قوس قزح بالقرب من رأسها. ثمّ سحب الفستان بحركة سريعة عن كتفيها. فانفكّ الشّريطُ. وحاولت الفتاة الهرب. لكنّه جثا على شعرها. وثبّت وجهها بين ركبتيه.

وانحنى أكثر مقتربا منها. ثمّ مزّق الشّريط الآخر. بكت الفتاة. ولكنّها توقّفت عن الحركة.

زحف قوس قزح إلى قدميها. وسمّرهما بين ساقيه. وبحركة متقنة، خلع الفستان عنها. فحاولت أن تنهض وتتمسّك بالقماش بيدها السّليمة. لكنّه دفعها إلى الخلف. أصبحت الآن عارية. وألقى ضوءُ مصباح الزّيت ظلالهُ على جسدها.

جلس قوسُ قزح بجانب الفتاة. ومسّح على جسدها بيديه الكبيرتين. يخفي جسده وجهها عنّي. ومع ذلك، أمكنني أن أسمع انتحابها الخافت يقطعه البكاء من حين إلى آخر. وببطء، نزع الرّجلُ جزمتيه وبنطاله الدّاخليّ، تاركا فقط قميصا خشنا.

لقد امتطى الفتاة المنبطحة ممرّرا يديه بلطف فوق كتفيها وثدييها وبطنها. ظلّت تئنُّ وتنتحبُ، وهي تتلفّظُ بكلمات غريبة في لغتها، كلّما ازدادت خشونة لمساته. رفع قوسُ قزح نفسه، وهو يستندُ إلى مرفقيه. ثمّ انزلق إلى أسفل قليلا. وبدفعة وحشيّة أفرج ما بين ساقيها. وسقط فوقها مُحدثا صوتا مكتوما.

قوّست الفتاةُ جسدها. وصرخت. وظلّت تفتحُ كفّيها وتغلقهما، كأنّها تحاولُ أن تمسك شيئا مّا. حدث أمر غريب بعد ذلك. مكث قوسُ قزح فوق الفتاة. ساقاهُ تتخلّلان ساقيها. ولكنّه يحاولُ أن ينفلت منها. وفي كلّ مرّة يرفعُ فيها نفسهُ، تصرخُ هي ألما. كان هو الآخر يتأوّهُ ويطلق اللّعنات. حاول مرّة أخرى أن ينفصل عن خصرها. ولكنّه بدا عاجزا عن ذلك. ثمّت قوّة غامضةٌ تحتجزهُ داخلها، تماما كما يسقط أرنب برّيّ أو ثعلب في كمين.

مكث فوق الفتاة، يرتعشُ بعنف. وبعد فترة، استعاد طاقاته من جديد. لكنّها ظلّت تتلوّى في كلّ مرّة من الألم. بدا أنّه يعاني هو الآخر. مسح العرق عن وجهه. قذف شتيمة. ثمّ بصق. عند محاولته التّالية، أرادت الفتاة أن تساعدهُ. فتحت ساقيها على نطاق أوسع. رفعت وركيها. ودفعت بيدها السّليمة إزاء بطنه. كان كلّ ذلك دون جدوى. فقد أوثقتهما رابطة غير مرئيّة.

رأيتُ الشّيء نفسه يحدث مرارا مع الكلاب. وأحيانا، عندما تتجامعُ بعنف وتفعل كلّ ما بوسعها للتّحرّر، لا تتوصّلُ إلى ذلك. تصارعُ الوثاق المؤلم. وتتلوّى أكثر فأكثر كي يتخلّص بعضها من الآخر. لكنّها تلتقي في النّهاية فقط عند أطرافها الخلفيّة. يبدو منظرها شبيها بجسد واحد ذي رأسين وذيلين ينموان في نفس المكان. وتتحوّل من صديق الإنسان إلى وحش الطّبيعة. فتنبحُ. وتعوي. وترتجفُ كلّ أعضاء أجسامها. عيونُها المحتقنة بالدّماء تتوسّل المساعدة. وأفواهها الفاغرة تطلق جزعا مفرَغا من الكلمات إزاء ضربات النّاس لها بالهراوات والعصيّ. وإذ تتلوّى فوق الغبار وتنزفُ بسبب الضّربات، تُضاعفُ جهودها للتملّص من بعضها. فيضحكُ النّاس. ويركلونها. ويلقون عليها قططا صارخة من الفزع وحجارةً. تحاولُ تلك الحيوانات الهرب. ولكنّ كلّ واحد منها يتّخذ وجهة معاكسة للآخر. فتؤولُ إلى العدو في دوائر. وتحاول أن تعضّ بعضها البعض في هياج مسعور. وفي النّهاية، تستسلمُ. وتنتظر وصول المساعدة البشريّة.

في النّهاية، يلقي بها فتيانُ القرية في نهر أو مستنقع. تحاولُ الكلابُ في يأسها ذاك أن تسبح. ولكنّ كلّ واحدا منها يظلّ يدفع بنفسه مبتعدا عن الآخر. لقد كانت عاجزةً، تطلّ رؤوسها من حين إلى آخر فحسب. وتزبدُ

أفواهها، منهكةً وعاجزة عن النّباح. وبينما يسحبها التّيّارُ بعيدا، يلحقُ بها حشدٌ مستمتعٌ على امتداد ضفّة النّهر، صارخا من البهجة وملقيا الحجارة على رؤوسها كلّما أطلّت خارج الماء.

في مناسبات أخرى، يقوم الأشخاص الذين لا يريدون فقدان كلابهم بهذه الطّريقة بفصلها عنوة وبوحشيّة، ممّا يؤدّي إلى التّشوّه أو الموت البطيء بسبب النّزيف لدى الكلاب الذّكور. وقد تتوصّل هذه الحيوانات أحيانا إلى الانفصال بعد التّسكّع في الأنحاء طيلة أيّام، واقعة في الحفر والخنادق وعالقة في الأسيجة والأجمات.

تجدّدت جهودُ قوس قزح. وقد نادى بصوت عال على السّيّدة العذراء طلبا للمساعدة. كان يلهثُ وينفخُ باستمرار. ثمّ قام بارتفاعة قويّة أخرى، محاولا أن يملُص نفسه بعيدا عن الفتاة، التي صرخت وأخذت تضرب وجه الرّجل الحائر بقبضتها. تخدشهُ بأظافرها. وتعضُّ يديه. لعق قوسُ قزح الدّم على شفتيه. رفع نفسهُ مستندا إلى ذراع واحدة. وبالذّراع الأخرى وجّه للفتاة ضربة قويّة. لا بدّ أنّ الذّعر قد أعتم دماغهُ. فقد تداعى من فوقها، يعضُّ ثدييها، ذراعيها ورقبتها. ضرب فخذيها بقبضتيه بعنف. وأمسك لحمها كأنّه يحاولُ أن يمزّقهُ. صرخت الفتاةُ صرخات حادّة ثابتة، ظلّت تنقطعُ كلّما جفّت حنجرتها. وتنطلقُ من جديد. واستمرّ قوسُ قزح في ضربها حتّى استنفد قواهُ.

تمدّدا، واحدهما فوق الآخر، ساكنين عن الحركة وصامتين. وكانت شعلةُ مصباح الزّيت المتأجّجةُ الشّيء الوحيد الذي يتحرّك في المكان.

شرع قوسُ قزح في البكاء طلبا للمساعدة. في البداية، جلبت صيحاتهُ مجموعة من الكلاب النّابحة ومن ثمّ بعض الرّجال

المتوجّسين الحاملين للفؤوس والسّكاكين. لقد فتحوا باب الحظيرة. ودون أن يفهموا شيئا، حملقوا في الزّوج الممدّد على الأرضيّة. شرح قوسُ قزح لهم الموقف بسرعة وصوت أجشّ. فأغلقوا الباب. ومنعوا أيّ شخص آخر من الدّخول. وأرسلوا في طلب قابلة ساحرة كانت عليمة بمسائل كهذه.

جاءت المرأة العجوز. فركعت حذو الزّوج العالق. وفعلت لهما شيئا مّا بمساعدة الآخرين. لم أستطع رؤية أيّ شيء. سمعتُ فقط الصّرخة الثّاقبة والأخيرة للفتاة. ثمّ خيّم الصّمتُ. وأظلمت حظيرةُ قوس قزح. ركضتُ عند الفجر إلى الشّقّ. كانت الشّمسُ المشرقةُ قادمة خلال الفتحات بين الألواح، مُضيئة الأشعّة المتلألئة لحبّات الغبار. وعلى الأرضيّة قرب الجدار، تمدّد طيفٌ بشريّ منبطحٌ تماما، مغطّى من الرّأس حتّى القدمين بغطاء حصان.

كان عليّ أن أصطحب البقرات إلى المراعي، بينما ما تزالُ القريةُ نائمةً. وعندما عدتُ عند الغسق، سمعتُ المزارعين يناقشون أحداث اللّيلة السّابقة. أعاد قوسُ قزح الجثّة إلى مسلك السّكّة الحديديّة، حيث من المفترض أن تمرّ الدّوريّة في الصّباح.

اكتسبت القرية لأسابيع عديدة مسألة حيويّة جديرة بالنّقاش، حتّى أنّ قوس قزح نفسه، كلّما احتسى بعض الأقداح، راح يحدّثُ النّاس كيف أنّ اليهوديّة قد امتصّته داخلها ولم تترك له أن ينفصل عنها.

كانت أحلامٌ غريبة تطاردني في اللّيل. أسمعُ أنينا وصيحات في الحظيرة. تلمسني يدٌ جليديّة. وتداعبُ وجهي جدائلُ سوداءُ لشعر ضامر يضوع برائحة البنزين. في الفجر، عندما آخذ الماشية إلى المراعي،

أنظر مرعوبا إلى السّحب الغائمة، وهي تطفو فوق الحقول. قد تدفعُ الرّيحُ أحيانا قطعة من السّخام لتنطلق بوضوح في اتّجاهي. فأرتجفُ. ويسيلُ العرقُ البارد على ظهري. تُحلّقُ قطعة السّخام حول رأسي. تنظر مباشرة في عينيّ. ثمّ تندفعُ إلى أعلى نحو السّماوات.

10

بدأت الفصائلُ الألمانيّةُ تبحثُ عن الكتائب في الغابات المحيطة وتعزّزُ عمليّات التّسليم الإلزاميّة. ولذلك، كنتُ أعرفُ أنّ إقامتي في القرية قد بلغت نهايتها.

ذات ليلة، أمرني سيّدي أن أهرب على الفور إلى الغابة. فقد تمّ إعلامهُ بمداهمة وشيكة. علم الألمانُ أنّ يهوديّا يختبئ في إحدى القرى. ويُقال إنّه قد عاش هناك منذ اندلاع الحرب. وتعرفهُ القريةُ كلّها. كان جدّهُ يملكُ قطعة أرض شاسعة ومحبوبا جدّا من قبل أفراد الجماعة. وعلى الرّغم من كونه يهوديّا، فإنّه رجل شريف بما فيه الكفاية على حدّ قولهم. غادرتُ في وقت متأخّر من ذلك المساء. كانت ليلة ملبّدة بالغيوم. لكنّ السّحب أخذت تتفرّقُ. وظهرت النّجوم في السّماء. وتجلّى القمرُ في مطلق سنائه. اختبأتُ في إحدى الأدغال.

عندما طلع الفجرُ، تحرّكتُ باتّجاه أطراف القمح المتموّجة. ومكثتُ بعيدا عن القرية. كانت أصابعُ قدميّ مُحرّقةً بسبب الاحتكاك بشفرات السّنابل. لكنّني حاولتُ الوصول إلى وسط الحقل. وجب عليّ أن أتصرّف بحذر. إذ لم أرغب في أن أخلّف ورائي الكثير من السّويقات المكسورة التي يمكنُ لها أن تفضح مكاني. أخيرا، وجدتُ نفسي منغمسا

في أعماق الحقل. تكوّرتُ على نفسي، مُرتجفا بسبب الرّطوبة الصّباحيّة. وحاولتُ أن أنام.

استيقظتُ، وأنا أسمعُ أصواتا هائجة قادمة من كلّ الاتّجاهات. لقد طوّق الألمانُ الحقل. تسمّرتُ بالأرض. وبينما كان الجنودُ يتقدّمون، علتْ شيئا فشيئا خشخشةُ السّويقات المكسورة.

كادوا يدوسون عليّ. لقد صوّبوا، مذهولين، بنادقهم نحوي. وعندما نهضتُ، تأهّبوا جميعا. كان هناك اثنان منهم، يافعان في زيّ نظاميّ أخضر. أمسكني أطولهما من أذني. وضحكا معا، وهما يتبادلان كلمات عنّي. فهمتُ أنّهما يتساءلان إن كنتُ غجريّا أم يهوديّا. فأنكرتُ ذلك. وبدا لهما الأمر أكثر تسلية. فاستمرّا في المزاح. ومشينا ثلاثتنا باتّجاه القرية. أتقدّمهما، بينما يضحكان معا خلفي مباشرة.

دخلنا الطّريق الرّئيسيّ، حيثُ مزارعون مذعورون يتجسّسون من خلف النّوافذ. وعندما تعرّفوا عليّ، اختفوا على الفور.

وقفت شاحنتان بنّيّتان كبيرتان في وسط القرية. يقرفصُ جنودٌ بأزياء عسكريّة مفكوكة الأزرار حولها، وهم يشربون من القِرَب. كان هناك المزيدُ من الجنود العائدين من الحقول. كدّسوا بنادقهم. وانضمّوا إلى الجلسة.

أحاط بي عدد من الجنود. وأخذوا يشيرون إليّ حينا، وحينا آخر يضحكون أو ينقلبون إلى الجدّ. اقترب أحدهم منّي. وانحنى عليّ. ثمّ ابتسم في وجهي تماما، ابتسامةً حانية دافئة. كنتُ أوشك أن أبتسم له عندما لكمني بقوّة هائلة في معدتي. فقدتُ أنفاسي. وسقطتُ، وأنا ألهثُ وأئنُّ. وانفجر الجنودُ ضاحكين.

فجأةً، خرجَ ضابطٌ من كوخ مجاور. فلمحني. واقترب منّي. توقّف الجنود منتبهين. ووقفتُ أنا الآخر، وحيدا وسط الدّائرة. تفحّصني الضّابطُ ببرود. ثمّ أصدر أمرا. فأمسكني جنديّان من ذراعيّ. وسحباني إلى الكوخ. فتحا الباب. وألقيا بي إلى الدّاخل.

ثمّت رجلٌ يستلقي في وسط الغرفة شبه المعتمة. كان صغير الحجم، هزيلا وداكن اللّون. يتدلّى على جبينه شعره الأجعدُ. وتشقّ وجهه كلَّهُ إصابةُ حربة. يداه مقيّدتان خلف ظهره. وينكشفُ جرحٌ عميق من خلال كمّي سترته الممزّقة.

جثمتُ في زاوية. ولكنّ الرّجل تفحّصني بعينين سوداوين برّاقتين. بدتا مُحدّقتين من تحت حاجبيه الكثيفين المتدلّين، لتحطّ نظرتهما مباشرة عليّ. لقد أرعبتني تينك العينان. فأشحتُ ببصري جانبا.

لقد بدأت المحرّكاتُ تدورُ في الخارج. وقرقعت الجزمُ والأسلحةُ والعلب. صدرت الأوامرُ. وغادرت الشّاحنات مخلّفة هديرها.

انفتح البابُ. ودخل المزارعون والجنودُ إلى الكوخ. سحبوا الرّجل الجريح من يديه إلى الخارج. وألقوا به على مقعد في عربة. تدلّت مفاصله المكسورة مرتخيةً من فوق دمية متأرجحة. جلس كلّ واحد منّا مُستندا إلى ظهر الآخر. وكنت أواجهُ كتفي السّائق، بينما يواجهُ هو مؤخّرة العربة والطّريق المنفلت إلى الوراء. جلس جنديّ مع المزارعيْن اللّذين كانا يقودان العربة. وفهمتُ من حوارهم أنّهم ينقلوننا إلى مركز شرطة في مدينة مجاورة.

سرنا لعدّة ساعات على طريق مألوفة تحمل آثار شاحنات عبرتها حديثا. ثمّ هجرنا تلك الطّريق لاحقا. وعبرنا من خلال الغابة، مُفاجئين الطّيور والأرانب البرّيّة. تداعى الرّجل الجريحُ متراخيا. ولم أكن متيقّنا إنْ

كان ما يزالُ حيّا. وأمكنني فقط أن أشعر بجسده الهامد مقيّدا بحبل إليّ وإلى العربة.

توقّفنا مرّتين. منح المُزارعان جزءا من وجبتهما للألمانيّ الذي وهب لكلّ منهما في المقابل سيجارة وقطعة حلوى صفراء. فشكراهُ على ذلك متذلّلين. واحتسيا جرعات كبيرة من الزّجاجات المخبّأة تحت صندوق المقعد. ثمّ تبوّلا في الأدغال.

لقد تمّ تجاهلنا تماما. وكنتُ جائعا ومنهكا. هبّ من الغابة نسيمٌ دافئٌ تضوع منه رائحة الرّاتنج. تأوّه الرّجلُ الجريحُ. وظلّت الخيولُ تقذفُ برؤوسها إلى الأمام بلا كلل، فيما تجلدُ ذيولها الطّويلةُ الذّباب.

تقدّمنا أكثر وأكثر. وكان الألمانيّ الجالسُ على العربة يتنفّس بثقل كأنّه غارق في النّوم. ولم يكن يغلق فمه الفاغر إلاّ عندما تهدّده ذبابة باقتحامه.

وصلنا قبل الغروب إلى مدينة صغيرة محتشدة بالمباني. تملكُ منازلها المنتشرة في كلّ مكان جدرانا من القرميد ومداخن. كانت الأسيجة مطليّة بالأبيض أو الأزرق والحمائمُ محتشدة فوق المزاريب.

وما أن تجاوزنا البنايات القليلة الأولى حتّى لمحنا الأطفالُ اللاّعبون على الطّريق. فتحلّقوا حول عربتنا البطيئة. وطفقوا يتأمّلوننا مليّا. فرك الجنديُّ عينيه. مدّد ذراعيه. شدّ سروالهُ إلى أعلى. وقفز إلى الأسفل. ثمّ مشى على امتداد العربة غير مكترث لمن يحيط به.

تزايدت أفواجُ الأطفال. واندفع الصّبيةُ قادمين من كلّ بيت. وفجأةً، ضرب أطول الفتيان وأكبرهم سنّا السّجين بغصن قضبان[13]

(13) هو جنس من الأشجار النّفضيّة. واسمه العلميّ البتولا Betula. (المترجم)

طويل. فاهتزّ الرّجلُ الجريحُ. وتراجع إلى الخلف. ازدادت حماسةُ الأطفال. وأخذوا يقذفوننا بوابل من القمامة والحجارة. تراخى الرّجل مجدّدا. وأحسستُ بكتفيه الملتصقتين بي مبلّلتين بالعرق. أصابتني بعض الحجرات كذلك. لكنّني كنتُ هدفا مستعصيا أكثر، واقعا بين الرّجل الجريح والسّائقين. لقد جعل منّا الأطفالُ رياضة عظيمة. رُشقنا بكتل جافّة من روث البقر وحبّات طماطم فاسدة وجثث طيور صغيرة ونتنة. أخذ واحدٌ من المتوحّشين الصّغار يوجّه تركيزه نحوي. كان يمشي حول العربة. ويضربُ بشكل مدروس وبواسطة عصا مناطق محدّدة من جسدي. حاولتُ دون جدوى أن أجمع ما يكفي من اللّعاب لأبصق على وجهه السّاخر.

انضمّ البالغون إلى الحشد المتحلّق حول العربة. كانوا يضرخون: "اضربوا اليهود. اضربوا الأوغاد". ويحرّضون الأطفال على المزيد من الهجمات. قفز السّائقان عن مقعد القيادة تجنّبا لأيّ ضربات عرضيّة. ومشيا بمحاذاة الحصانين. صرتُ أنا والرّجل الجريح هدفين ممتازين. وحطّ علينا وابلٌ جديد من الحجارة. جُرحتْ وجنتي. وتدلّت سنٌّ مكسورة من فمي. وانشقّت شفتي السّفليّةُ. بصقتُ الدّم في وجوه أولئك الذين كانوا الأقرب إليّ. لكنّهم قفزوا إلى الخلف ببراعة. ووجّهوا إليّ ضربات جديدة.

اقتلع شيطانٌ قبيحٌ رزما بأكملها من اللّبلاب والسّرخس النّابت على امتداد الطّريق. وشرع يجلدني والرّجلَ الجريح. اشتعل الألم في جسدي. وأصابتني الحجارة بدقّة أكبر، حتّى أنّني أسقطتُ ذقني على صدري، وخفتُ أن تصيب بعضُ الحجارة عينيّ.

فجأةً، قفز كاهنٌ شجاع صغير الحجم من منزل بلا ملكيّة، عندما كنّا نعبر أمامهُ. كان يرتدي رداء كهنة ممزّقا وباهتا. احمرّ وجهه من التّوتّر. وانفجر هاجما على الحشد، ملوّحا بعكّاز في يده. ثمّ أخذ يضربهم على أياديهم ووجوههم ورؤوسهم. لقد توصّل، لاهثا ومتعرّقا ومرتجفا من الإنهاك، إلى تفريق الحشد في كلّ الاتّجاهات.

يمشي الكاهنُ الآن حذو العربة، مُستعيدا أنفاسه ببطء. مسح جبينه بيد واحدة. وبالأخرى، مسّح على جبيني. لا شكّ أنّ الرّجل الجريح قد أغمي عليه. إذ ازدادت برودة كتفيه، وهو يتمايل بشكل موقّع مثل دمية ربطت على عصا.

دخلت العربة فناء مبنى الشّرطة العسكريّة. وكان على الكاهن أن يبقى في الخارج. فكّ جنديّان الوثاق. وحملا الجريح عن العربة. ثمّ وضعاهُ على الأرض مستندا إلى الحائط. أمّا أنا، فقد وقفتُ جانبا.

بعد وقت وجيز، خرج ضابط من وحدات إسْ إسْ[14] يتمشّى ببطء عبر الفناء في بدلته المسودّة من السّخام. لم أر من قبلُ زيّا نظاميّا مدهشا بهذا القدر. تلمعُ عند الطّرف المنتصب لقبّعته جمجمة الموت وعظامٌ متقاطعة، فيما تزيّن الطّوقَ رموز تشبهُ البرق. وتشّق كمّيه شارةٌ حمراءُ تحملُ علامة مغلّظةً للصّليب المعقوف.

تلقّى الضّابطُ تقريرا من أحد الجنود. ثمّ سُمع قرع كعبيه إزاء السّطح الخرسانيّ المنبسط للفناء، بينما كان يمشي مندفعا نحو الرّجل

(14) وحدات SS أو شوتزشتافل Schutzstaffel: منظّمة كانت تابعة للحزب النّازيّ الألمانيّ. (المترجم)

الجريح. وبحركة متقنة من طرف جزمته العسكريّة اللاّمعة، أدار وجه الرّجل باتّجاه الضّوء.

بدا الرّجلُ بشعا بوجهه المشوّه ذي الأنف المحطّم والفم الذي يحجبه جلدٌ ممزّقٌ. هناك نتفُ لبلاب وكتلٌ من الطّوب وروثُ بقر عالقٌ في محجريه. قرفص الضّابطُ بالقرب من هذه الرّأس التي فقدت شكلها والتي كانت تنعكسُ صورتها على السّطح النّاعم لطرف جزمته. لقد طرح سؤالا أو قال شيئا مّا للرّجل الجريح.

تحرّكت الكتلةُ الدّاميةُ مثل حمولة بألف رطل. دفع الجسدُ الهزيلُ المشوّهُ نفسهُ بواسطة يديه المقيّدتين. فتراجع الضّابطُ إلى الوراء. صار وجههُ الآن تحت أشعّة الشّمس. وكان يحظى بجمال شفّاف مهيمن. بشرتهُ تكادُ تشبه الشّمع. وشعره الكتّانيّ ناعمٌ مثل شعر رضيع. مرّة من قبلُ، رأيتُ في كنيسة وجها بهذه الرّقّة. كان مرسوما على جدار، عائما في موسيقى الأرغن[15] وملموسا فحسبُ من قبل النّور العابر من النّوافذ الزّجاجيّة الملوّنة.

استمرّ الرّجلُ الجريحُ في محاولة النّهوض إلى أن أصبح شبه جالس تقريبا. خيّم الصّمتُ على الفناء مثل عباءة ثقيلة. وقف الجنودُ الآخرون بتصنّع مُتفرّجين في العرض. ظلّ الرّجلُ الجريحُ يتنفّسُ بصعوبة ويتأرجحُ مُجهِدا نفسه ليفتح فمهُ، مثل فزّاعة في عاصفة من الرّياح. وعندما أحسّ بقرب الضّابط منهُ، مال بثقله في اتّجاهه.

همّ الضّابطُ المتقزّزُ بالنّهوض عندما حرّك الرّجلُ الجريحُ فمهُ فجأة. فنخر في البداية. ثمّ تلفّظ بصوت عال جدّا بكلمة بدت مثل "خنزير". وسقط مجدّدا إلى الخلف، ضاربا رأسهُ بالخرسانة.

---

(15) آلة موسيقيّة اقترنت فيما مضى بأداء الصّلوات في الكنائس. (المترجم)

ارتجف الجنودُ عند سماعهم للكلمة. وتبادلوا النّظرات فيما بينهم مذهولين. قام الضّابطُ المقرفصُ. وزعقَ أمرا. فنقر الجنودُ كعوب أقدامهم على الأرض. وجهّزوا بنادقهم. اقتربوا من الرّجل. وضخّوا طلقات سريعة باتّجاهه. ارتعد الجسدُ الممزّق. وهوى جامدا في مكانه. ثمّ شحن الجنودُ أسلحتهم مجدّدا. ووقفوا في تأهّب.

اقترب الضّابطُ منّي غير مكترث بي، ضاربا جانب سرواله بالعصا. لم أستطع أن أشيح بنظري عنهُ منذ اللّحظة التي رأيتهُ فيها. يبدو أنّ شخصيّته كلّها تملكُ شيئا مّا خارقا. هناك سوادٌ ثابتٌ ينعكسُ منه إزاء خلفيّة الألوان الرّقيقة التي يكتسبها. يبدو مثالا لكمال خالص لا يمكن أن يلطّخ في عالم من الرّجال ممزّقي الوجوه والعيون المحطّمة والأعضاء المشوّهة، المكدومة والدّامية، وسط الأجساد البشريّة المتكسّرة النّتنة. بشرةُ وجهه النّاعمةُ الصّقيلةُ، شعره الذّهبيّ اللاّمعُ المطلّ من تحت قبّعته المنتصبة، عيناهُ المعدنيّتان بشكل خاص، وكلّ حركة من حركات جسده تبدو مسيّرة بواسطة قوّة داخليّة هائلة. لقد صُمّمَ صوتُ لغته الصّوّانيّ بشكل مثاليّ ليأمر بموت الكائنات الدّنيا والمخلوقات البائسة. لسعتني وخزة حسد لم أشعر بها من قبلُ أبدا. وأعجبتُ بلمعان جمجمة الموت والعظام المتقاطعة التي تزيّنُ قبّعته الطّويلة. فكّرتُ كم سيكون حسنا أن يمتلكُ المرءُ جمجمة كهذه، ساطعة وخالية من الشّعر، بدل وجهي الغجريّ الذي يخافهُ النّاسُ الشّرفاءُ ويمقتونهُ.

تفحّصني الضّابطُ بنظرات حادّة. فشعرتُ كما لو أنّني يرقةٌ مسحوقةٌ ترشحُ في الغبار، مخلوق لا يمكنه أن يؤذي أحدا ولكنّه يثير

الاشمئزاز والتّقزّز. وفي حضور كينونته المتألّقة والمسلّحة بكلّ رموز القوّة والجلال، شعرتُ بخزي عظيم من مظهري. لم أكن معترضا على قتله لي. نظرتُ إلى المِشبك المزخرف لحزامه الذي يقابل عينيّ تماما. وانتظرتُ قرارهُ.

عاد الفِناء إلى السّكون من جديد. وقف الجنودُ مُطيعين ومنتظرين ما سيحدثُ لاحقا. كنتُ أعرفُ أنّ مصيري قد تقرّر سلفا، على نحو مّا. لكنّني لم أكن أبالي بذلك. أسندتُ ثقة لا نهائيّة إلى قرار الرّجل الذي يقف أمامي. وعرفتُ أنّه يملك سلطات لا يبلغها البشر العاديّون.

رنّ في الفضاء أمرٌ آخر سريع. ثمّ انطلق الضّابط مبتعدا. فدفعني جنديّ بعنف في اتّجاه البوّابة. تأسّفتُ لانتهاء العرض المبهر. مشيتُ ببطء عبر المدخل. وسقطتُ مباشرة بين ذراعي الكاهن الذي كان ينتظر في الخارج. لقد بدا رثّا أكثر من قبلُ حتّى. وكانت عباءته شيئا بائسا مقارنة بالزّي العسكريّ المرصّع بجمجمة الموت والعظام المتقاطعة والبروق المضيئة.

11

أخذني الكاهنُ بعيدا في عربة مستعارة. قال إنّه سيعثر على شخص في قرية مجاورة، يهتمُّ بي حتّى انتهاء الحرب. وقبل أن نصل إلى القرية، توقّفنا في الكنيسة المحلّيّة. تركني في العربة. وذهب بمفرده إلى مقرّ القسّ، حيثُ رأيته يتجادلُ معه. صدرت منهما حركات ووشوشات متوتّرة. ثمّ قدما معا باتّجاهي. قفزتُ من العربة. وانحنيت بتأدّب أمام القسّ. ثمّ قبّلت كمّ ثوبه. نظر إليّ. وباركني. وعاد إلى مقرّه دون أن يقول أيّ كلمة.

واصل الكاهنُ القيادة. وتوقّف في النّهاية في أقصى طرف من القرية، داخل مزرعة معزولة إلى حدّ مّا. دخل. ومكث هناك لفترة طويلة جدّا، إلى درجة أنّني بدأت أتساءل إن كان مكروهٌ مّا قد أصابه. ثمّت كلبٌ ذئبيّ ضخمُ الجثّة بملامح متجهّمة كئيبة يحرسُ فناء المزرعة.

خرج الكاهنُ مصحوبا بمزارع قصير وبدين. فدسّ الكلبُ ذيله تحت عقره. وتوقّف عن الزّمجرة. نظر الرّجلُ إليّ لوهلة. ثمّ تنحّى جانبا مع الكاهن. تمكّنتُ فقط من سماع نتف قليلة من محادثتهما. كان المزارع مستاء بشكل واضح. أشار إليّ بإصبعه. وصرخ قائلا إنّ نظرة واحدة تكفي ليعرف المرءُ أنّني وغد غجريّ لم يُعمَّد من قبل. اعترض

الكاهنُ على كلامه بهدوء. لكنّ الرّجل لم يستمع إليه. وأخبره أنّ بقائي عنده سيعرّضه لمخاطر كبيرة، بما أنّ الألمان يزورون القرية باستمرار. وفي حال عثروا عليّ عنده، سيكون الوقتُ حينئذ متأخّرا جدّا للقيام بأيّ تدخّل.

بدأ الكاهنُ يفقد صبره تدريجيّا. وفجأةً، أمسك الرّجل من ذراعه. وهمس شيئا مّا في أذنه. فكبح المزارع جماحه على الفور. وطلب منّي، وهو يطلق اللّعنات، أن أتبعه إلى الكوخ.

اقترب الكاهنُ منّي. ونظر في عينيّ. حدّق واحدنا في الآخر في صمت. لم أكن أعرف حقّا ما الذي يجدر بي فعله. وإذ حاولتُ أن أقبّل يده، قبّلتُ خطأ كمّ قميصي. فارتبكتُ. ضحك. ورسم شارة الصّليب فوق رأسي. ثمّ رحل.

وما أن تيقّن من مغادرة الكاهن حتّى أمسكني الرّجل من أذني. وكاد يرفعني عن الأرض. ثمّ جرّني معه إلى الكوخ. عندما صرختُ، وخزني بإصبعه في ضلوعي بقوّة هائلة قطعت أنفاسي.

كنّا ثلاثة في البيت: المزارعُ غاربوسْ الذي يملكُ وجها ميّتا لا يبتسمُ وفما نصف مفتوح، الكلبُ يهوذا ذو العينين الصّارمتين الماكرتين وأنا. كان غاربوسْ رجلا أرمل. أحيانا عندما ينشب خلافٌ بينه وبين الجيران، يتحدّثُ بعضهم عن فتاة يهوديّة كان غاربوسْ قد أخذها نزيلة عنده من والديها الهاربين منذ فترة مضت. كلّما أفسدت بقرة أو خنزير من دوابّ غاربوس المحاصيل، ذكّرهُ القرويّون بمكرٍ بحكاية الفتاة. يقولون له إنّه اعتاد أن يضربها يوميّا ويغتصبها ويجبرها على اقتراف الفظائع حتّى تلاشت في النّهاية. في الأثناء، كان غاربوس يقوم بترميم مزرعته

وتجديدها بواسطة المال الذي يتلقّاهُ مقابل الاحتفاظ بها. يستمعُ بغضب شديد لمثل هذه الاتّهامات. يفكّ قيد يهوذا. ويهدّد بإرساله خلف المُفترين عليه. وفي كلّ مرّة، يغلقُ الجيرانُ أبوابهم. ويتفرّجون في الوحش الشّرير عبر نوافذهم.

لا أحد يزور غاربوس مطلقا. ولطالما جلس وحيدا في كوخه. كانت مهمّتي أن أعتني بخنزيرين وبقرة واثنتي عشرة دجاجة وديكين روميّين.

ودون أن ينطق بكلمة واحدة، اعتاد غاربوسْ أن يضربني ومن دون سبب. يمشي خلسة خلفي. ويجلدني فجأة بواسطة سوط على ساقيّ. يلوي أذنيّ. يفرك إبهامهُ في شعري. ويدغدغُ إبطيّ وساقيّ حتّى أهتزّ غير قادر على التّحكّم بنفسي. كان يعتبرني غجريّا. ويأمرني أن أروي له قصصا غجريّة. ولكن كلّ ما أمكنني أن أتلوه هو القصائدُ والقصصُ التي تعلّمتها في بيتي قبل الحرب. أحيانا يغضبُ لسماعها، لسبب لم أكتشفهُ أبدا. كان يضربني مجدّدا أو يهدّدني بأن يطلق يهوذا عليّ.

مثّل يهوذا بالنّسبة إليّ تهديدا مستمرّا. إنّ بإمكانه أن يقتل رجلا بعضّة واحدة من فكّيه. عادة ما يوبّخُ الجيرانُ غاربوسْ، بسبب أنّه أطلق مرّة سراح الوحش على شخص كان يسرقُ التّفّاح. تمزّقت حنجرة اللّصّ. ومات على الفور.

ولطالما حرّض غاربوس يهوذا عليّ. لا بدّ أنّ الكلب قد أصبح، على التّدريج، مقتنعا أنّني ألدُّ أعدائه. كانت رؤيتي لوحدها كافية لجعل فروه

منتصبا مثل شَيْهم[16]. تهتزُّ عيناهُ المحتقنتان بالدّماء وخطمهُ وفاهُ. وينزلقُ زبدُ لعابه فوق مغارز أنيابه. ينزعُ نحوي بتوتّر وقوّة تجعلني خائفا من أن ينقطع قيدهُ، رغم أنّني كنتُ آمل كذلك أن يشنق نفسه بوثاقه. أحيانا، يعاينُ غاربوس هياج الكلب وخوفي. فيفكّ قيده. ويقودهُ ممسكا بطوقه نحوي، لأتراجع إلى الخلف حتّى ألتصق بالجدار. لا تفصل الفاهَ المزمجر المفرقعَ للبصاق عن حنجرتي سوى إنشاتٍ قليلة. ويهتزّ في تلك الهيأة جسمُ الحيوان الضّخم. ويرتعشُ. يكادُ يختنقُ، وهو يُزبدُ ويبصقُ، بينما يحثّهُ الرّجلُ بكلمات قاسية ونخْس عنيف. كان يقتربُ منّي كثيرا إلى درجة أنّ نفسهُ الحارّ والرّطب يبلّلُ وجهي.

في لحظات كهذه، تكادُ الحياةُ تغادرُ جسدي. ويتدفّقُ الدّم في عروقي، في تقاطُر كسول، مثل عسل الرّبيع الثّقيل وهو ينقُطُ من خلال العنق الضّيّق لزجاجة. كان شعوري بالذّعر حادّا إلى درجة أنّه يكادُ ينقلني إلى العالم الآخر. أنظر إلى عيني الوحش المتوقّدتين وإلى يد الرّجل المكسوّة بالشّعر والمنمّشة وهي تمسكُ بالطّوق. يمكنُ أن تنغلق أسنانُ الكلب، في أيّ لحظة، فوق لحمي. قد أدفع بعنقي إلى الأمام من أجل عضّة واحدة سريعة، تجنّبا للعذاب. وأفهمُ حينئذ رحمة الثّعلب في قتله الإوزّ عبر تمزيقه لعنقه في عضّة واحدة.

لكنّ غاربوس لم يطلق سراح الكلب. وعوضا عن ذلك، كان يجلسُ أمامي. يشربُ الفودكا. ويتعجّبُ بصوت عال عن السّبب الذي سمح لي بمواصلة الحياة، بينما مات أبناؤه يافعين جدّا. يسألني ذلك السّؤال مرّات

(16) الشّيهمُ أو النيص: عائلة من القوارض يغطّيها كساء من الأشواك الحادّة على أجسامها تستخدمهُ دفاعا عن نفسها. (المترجم)

عديدة. ولم أعرف في أيّ منها كيف أجيبه. وإذ أفشلُ في تقديم إجابة، يشرعُ في ضربي من جديد.

لم أكن أفهمُ ما الذي يريدهُ منّي ولم يضربني. أحاولُ أن أمكث بعيدا عن طريقه. أفعلُ ما يطلبه منّي. لكنّه يستمرّ في ضربي. في اللّيل، يتسلّلُ غاربوس إلى المطبخ حيث أنام. فيوقظني صارخا في أذني. وعندما أقفزُ صائحا مفجوعا، يضحكُ هو ويصارعُ يهوذا سلسلتهُ متأهّبا للقتال. وفي أحيان أخرى عندما أكون نائما، يسحبُ غاربوسْ الكلب بهدوء. يربطُ فكّهُ بخرق من القماش. ثمّ يلقي بالحيوان عليّ وسط الظّلام. يتدحرجُ الكلبُ فوقي. فيجتاحني الرّعبُ. وأكون جاهلا لمكاني ولما يحدثُ في تلك اللّحظة. ومع ذلك، أصارعُ الوحش الضّخم المكسوّ بالشّعر الذي يخدشني بمخالبه.

ذات يوم، قدمَ الكاهنُ في عربته ليزور غاربوس. بارَكَنا سويّا. ثمّ لاحظ الرّضوض السّوداء والزّرقاء على كتفيّ ورقبتي. وسأل عمّن عضّني وعن سبب ذلك. فاعترف غاربوس أنّه اضطرّ إلى معاقبتي على كسلي. عاتبه الكاهنُ حينئذ بلطف. وطلب منه أن يحضرني في اليوم التّالي إلى الكنيسة.

وما أن غادر الكاهنُ حتّى أخذني غاربوس إلى الدّاخل. جرّدني من ملابسي. وجلدني بقضيب صفصاف، مُتجنّبا الأطراف البارزة مثل الوجه والذّراعين والسّاقين. منعني من البكاء كعادته. ولكنّهُ كلّما أصاب بقعة حسّاسة جدّا، عجزتُ عن تحمّل الألم. فينفلتُ تأوّهٌ منّي. ظهرت قطراتٌ صغيرة من العرق على جبينه. وبدأ وريدٌ في عنقه

يتورّمُ. حشر قماشا خشنا في فمي. ومرّر لسانه على شفتيه الجافّتين. ثمّ استمرّ يجلدني.

اتّخذتُ طريقي باكرا في الصّباح التّالي نحو الكنيسة. كان قميصي وسروالي يلتصقان بالبقع الدّامية في ظهري ومؤخّرتي. لكنّ غاربوس حذّرني من أن أهمس ولو بكلمة واحدة فيما يتعلّقُ بضربه لي، لأنّه سيطلقُ ساعتها يهوذا عليّ، عندما أعود في المساء. عضضتُ شفتيّ، وأنا أقسمُ أنّني لن أقول أيّ كلمة، آملا ألاّ يلاحظ الكاهنُ أيّ شيء.

في ضوء الفجر المشرق، كانت نساء عجائزُ ينتظرن أمام الكنيسة. أقدامهنّ وأجسادهنّ ملفوفة بشرائط قماش ومغلّفات من كلّ نوع، وهنّ يتمتمن كلمات صلوات لا تنتهي، بينما أصابعهنّ الخدِرة من البرد تحرّكُ حبّات المسبحة. عندما رأين الكاهن قادما، انتصبن واقفات في غير ثبات، متمايلات ومُستندات إلى عكاكيزهنّ ذات العُقد. ثمّ جررن أقدامهنّ معجّلات للقائه، وهنّ يحتججن طلبا لأولويّة تقبيل كمّيه الدّهنيّين. وقفتُ جانبا وحريصا على ألاّ يلاحظني أحد. لكنّ أفضلهنّ بصرا حدّقن فيّ بتقزّز. وناديني بمصّاص الدّماء أو اللّقيط الغجريّ. وبصقن ثلاث مرّات في اتّجاهي.

لطالما أربكتني الكنيسةُ. ومع ذلك، لقد كانت إحدى بيوت الرّبّ الكثيرة التي تنتشرُ في كلّ أنحاء العالم. ورغم أنّهُ لا يعيشُ في أيّ منها، فقد كان النّاسُ يقدّرون لسبب مّا أنّهُ حاضرٌ فيها كلّها في الآن نفسه. كان شبيها بالضّيف غير المتوقّع الذي يحتفظُ المزارعون الأثرياءُ دائما من أجله بمكان إضافيّ عند مائدتهم.

لاحظني الكاهنُ. ومسّح على شعري بلطف. تزايد ارتباكي بينما كنتُ أجيبُ على أسئلته، مؤكّدا له أنّني صرتُ الآن مطيعا ولم يعد المزارعُ

مضطرّا إلى ضربي بعد الآن. سألني الكاهنُ عن والديّ، وعن بيتنا قبل الحرب، وعن الكنيسة التي كنّا نرتادها والتي لم أكن أتذكّرها جيّدا. وعندما تحقّق من جهلي التّامّ بالدّين وطقوس الكنيسة، اصطحبني معه إلى عازف الأرغن. وطلب منه أن يشرح لي معنى الأدوات الشّعائريّة ويشرع في إعدادي للخدمة، صبيَّ مذبح في قدّاس الصّباح وصلوات الغروب.

بدأتُ أذهبُ إلى الكنيسة مرّتين في الأسبوع. أنتظر في الخلف حتّى تزحفَ النّساء العجائزُ إلى مقصوراتهنّ. ومن ثمّ، أتّخذُ لنفسي مقعدا خلفيّا، على مقربة من حوض الماء المقدّس الذي حيّرني أمره كثيرا. يُشبهُ هذا الماءُ أيّ ماء آخر. لا لون له ولا رائحة. بل إنّه يبدو أقلّ إبهارا من عظام الأحصنة المطحونة مثلا. ومع ذلك، فقد كان من المفترض أن تفارق قوّتُه السّحريّةُ، فرقًا شاسعا، قوّةَ أيّ عشبة أو تعويذة أو خليط قد رأيتهُ من قبلُ أبدا.

لم أفهم معنى القدّاس ولا دور الكاهن في المذبح. وبدا لي كلّ هذا عجيبا، مُبهرا ومدروسا بشكل أكبر من شعوذات أولغا. ولكنّه مستغلق على الفهم مثلها تماما. نظرتُ مندهشا إلى الهيكل الحجريّ للمذبح وزينةِ الأقمشة المتدلّية منه والمسكن المهيب الذي تُقيمُ فيه الرّوح الإلهيّة. مُرتعبا، لمستُ الأشياء المشكّلة بفخامة والمخزّنة في خزانة الكنيسة المقدّسة: الكوبُ ذو الجوف الصّقيل اللاّمع حيثُ يتبدّلُ النّبيذُ دمًا، الطّبق المذهّبُ الذي يوزّعُ الكاهنُ عليه الرّوحَ القدُس والحقيبةُ المربّعة التي توضعُ عليها الجسديّةُ[17]، والتي تنفتحُ من

(17) قماش كنسيّ يكون مربّعا في أغلب الأحيان بمقاس نصف متر تقريبا. توضعُ عليها أدوات من قبيل الكوب المذهّب والأواني المقدّسة في الكنيسة الكاثوليكيّة. ويشتقُّ اسمه من كلمة الجسد، لأنّ جسد المسيح يوضعُ، رمزيّا، عليه. (المترجم)

جهة وتشبهُ آلة الهارمونيكا. كم كان كوخُ أولغا فقيرا مقارنة بكلّ هذا، وبما فيه من ضفادع ذات روائح كريهة وقيح جروح بشريّة وصراصير.

عندما يكون الكاهنُ خارج الكنيسة وعازفُ الأرغن مشغولا بآلته في الشّرفة، أدخل متسلّلا إلى مقرّ الخزانة الغامضة لأتأمّل بإعجاب حجاب الكتفين الذي يُرخيه الكاهنُ من فوق رأسه، وبحركة رشيقة يجعله ينزلقُ بين يديه ملتفّا حول عنقه. أمرّرُ أصابعي بتلذّذ على الثّوب الكهنوتيّ الموضوع على المسند، مُستمتعا بنعومة حوافّه، مُستنشقا الرّائحة العبقة للذّراعة التي تتدلّى من ذراع الكاهن اليسرى، ومُعجبا بطول الثّوب المَقيس بدقّة وبتصاميم بدلة القدّاس الجميلة إلى ما لانهاية لهُ، والتي ترمزُ ألوانها العديدةُ -كما أخبرني الكاهنُ- إلى الدّم والنّار والأمل والتّوبة والحداد.

بينما تتمتمُ أولغا تعاويذها السّحريّة، يتّخذُ وجهها ملامح متبدّلةً تثير الرّهبة والاحترام. تقلبُ عينيها إلى أعلى. وتهزُّ رأسها بشكل موقّع. وتقومُ بحركات مدروسة بواسطة ذراعيها وكفّيها. وفي المقابل، يتحدّثُ الكاهنُ خلال القدّاس. ولكنّه يظلّ على حاله مثلما يكونُ في سائر الأيّام. بل يكتفي بارتداء ثوب مختلف. ويتكلّمُ لغةً أخرى.

يبدو صوتُه النّابضُ الرّنّانُ مُسنِدا لقبّة الكنيسة وموقظا حتّى العجائز الخاملات اللاّئي يجلسن في المقصورات العالية. يُلملمن فجأةً أذرعتهنّ المتراخية. ويرفعن بصعوبة أجفانهنّ المتجعّدة الشّبيهة بحبّات بازلاّء ثقيلة وذابلة. تحدّقُ كلّ واحدة منهنّ بعينين شاحبتين، وفي خوفٍ، من حولها، غير متيقّنة من مكانها حتّى تشرع من جديد في اجترار كلمات من صلاة مقطوعة. ثمّ يترنّحن من جديد عائدات إلى النّوم مثل زهرة خلنج تتأرجحُ في الرّيح.

ينتهي القدّاسُ. فتحتشدُ النّساءُ العجائزُ عبر الممرّات، وهنّ يحاولن أن يبلغن كُمَّ رداء الكاهن. يصمتُ الأرغن. وعند الباب، حيّا عازفُهُ الكاهن بحرارة. وأومأ لي بإشارة من يده. كان عليّ أن أعود إلى العمل. فأمسح الغرف، وأطعم الماشية، وأعدّ الطّعام.

في كلّ مرّة أعودُ فيها من المراعي أو بيت الدّجاج أو الإسطبل، يأخذني غاربوسْ معهُ إلى المنزل ليمارس، بشكل عرضيّ في البداية ومن ثَمّ بحماسٍ أكبر، طرقا جديدة في جلدي بأغصان الصّفصاف أو إيذائي بقبضته وأصابعه. وكانت الكدماتُ والجراحُ التي لا تحظى بأيّ فرصة للشّفاء تتحوّلُ إلى قروح مفتوحة تنزُّ قيحا أصفر. في اللّيل ينتابني رعبٌ فظيع من يهوذا إلى درجة أنّني لا أتمكّنُ من النّوم. وكلّ ضجيج طفيف وكلّ طقطقة لألواح الأرضيّة ترجّني انتباها. أحدّقُ في الظّلام الكثيف. وأضغطُ جسدي إزاء ركن الغرفة. يُشبَّه إليّ أنّ أذنيّ كبُرتا بحجم نصف يقطينة، وهما تحاولان أن تلتقطا أيّ حركة في البيت أو الفناء.

وحتّى عندما يأخذني النّعاسُ، فإنّ نومي يتقطّعُ بكوابيس عن كلاب تعوي في أنحاء القرى. أراها وهي ترفع رؤوسها باتّجاه القمر وتتشمّم بأخطامها في اللّيل. وكنتُ أحسُّ بموتي مُقترِبا. وعند سماعه لنداءاتها، يتسلّلُ يهوذا إلى فراشي. حين يصبحُ على مقربة منّي، ينقضُّ عليّ طاعةً لأوامر غاربوسْ. ويُدقْدِقُني. تُحدثُ لمساتُ مخالبه قروحا كثيرة في جسدي. فيُضطرُّ مُتطبّبُ القرية إلى أن يحرقها بنبتة النيفوفيا.

أستيقظُ صارخا حينئذ. فيأخذُ يهوذا في النّباح والقفز على جدران المنزل. ويندفعُ غاربوس نصفَ نائمٍ إلى المطبخ، وهو يحسبُ أنّ

لصوصا قد تسلّلوا إلى المزرعة. وعندما يتحقّقُ أنّني كنتُ أصرخُ بلا سبب، يضربني ويركلني إلى أن تنقطع أنفاسهُ. أمكثُ على الفراش مدمى ومكدوما وخائفا من أن أغفوَ مرّة أخرى وأجازف بكابوس جديد.

أقضّي النّهار في حالة من الغثيان. فأُضرب مرّة أخرى، لأنّني تجاهلتُ عملي. وقد أغطّ في النّوم أحيانا في الحظيرة، وعلى أكوام التّبن، بينما يفتّشُ غاربوس عنّي في كلّ مكان. وعندما يعثر عليّ مُتسكّعا، ينطلقُ كلّ شيء مجدّدا.

توصّلتُ في النّهاية إلى استنتاج مفادهُ أنّ نوبات غضب غاربوس العنيفة، والتي لا حافز لها فيما يبدو، تملكُ دون شكّ سببا مّا غامضا. تذكّرتُ التّعاويذ السّحريّة لمارتا وأولغا. كان الهدفُ منها أن تؤثّر على الأمراض والأشياء التي لا تملكُ أيّ صلة واضحة بالسّحر نفسه. وقرّرتُ أن أتأمّل كلّ الظّروف المُصاحبة لنوبات غضب غاربوس. مرّة أو مرّتين، حسبتُ أنّني التقطتُ إشارة. فقد ضُربتُ مرّتين متتاليتين على الفور بعد أن قمتُ بحكّ رأسي. فمن يدري، ربّما تكون هناك صلةٌ مّا بين القمل في رأسي، والذي كان منزعجا دون شكّ بسبب أصابعي الفالية وهي تقطع عليه روتينه المعتاد، وبين سلوك غاربوس. توقّفتُ بعد ذلك مباشرة عن الحكّ، رغم أنّ الحاجة إليه لم تكن تُطاق. وبعد يومين من تركي للقمل بسلام، ضُربتُ مجدّدا. وكان عليّ أن أواصل التّكهّن إذن.

تمثّل تخميني التّالي في أنّ بوّابة السّياج المفضي إلى حقل النّفل تملك علاقة بالأمر. فخلال ثلاث مرّات عبرتُ فيها تلك البوّابة، ناداني غاربوس وصفعني عندما اقتربتُ منه. خلصتُ إلى أنّ بعض الأرواح العدائيّة تقطعُ طريقي عند البوّابة، وتحرّضُ غاربوس عليّ. فقرّرتُ إذن أن أتجنّب تلك الأرواح الشّرّيرة، مُتسلّقا من فوق السّياج وقافزا من فوقه. ولم يزد ذلك في الأمر إلاّ سوءا. لم يتمكّن غاربوس من فهم السّبب الذي يجعلني أنفق الوقت في تسلّق السّياج العالي بدل أن أسلك الطّريق

المختصرة عبر البوّابة. وحسبني أسخر منه عن قصد. ولذلك ضربني بشكل أعنف من قبل حتّى.

لقد ظنّ بي المكر. وعذّبني بلا توقّف. ظلّ يستمتعُ بلكزي بواسطة مقبض مجرفة بين ضلوعي. ألقى بي على فرُش من القراص والشّجيرات الشّائكة. ومن ثَم شرع يضحكُ على الطّريقة التي أحكّ بها الحروق على جلدي. وهدّدني بأنّه سيثّبّتُ فأرا على بطني كما يفعلُ الأزواجُ لزوجاتهم الخائنات إذا ما واصلتُ خروجي عن طاعته. أرعبني هذا الأمرُ أكثر من أيّ شيء آخر. فقد تخيّلتُ فأرا تحت كأس زجاجيّة موضوعة فوق سرّتي. وكان بإمكاني أن أحسّ بالاحتضار الذي لا يوصفُ حين يشقُّ القارضُ المحاصرُ طريقهُ عبر سرّتي ونحو أحشائي.

تفكّرتُ مليّا في طرق عديدة لإلقاء سحر على غاربوس. ولكن لا شيء بدا لي ممكنا. ذات يوم، عندما ربط قدميّ إلى مقعد ودغدغهما بواسطة سنبلة، تذكّرتُ إحدى قصص أولغا القديمة. كانت قد حدّثتني عن عثّة تحملُ على جسمها شكل جمجمة الموت، الشّبيه بذاك الذي رأيتهُ من قبلُ على زيّ الضّابط الألمانيّ. قالت إنّ المرء إذا أمسك بعثّة كهذه ونفخ عليها ثلاث مرّات، فإنّ موت أكبر فرد في سكّان البيت سيلي ذلك سريعا. ولهذا يقضّي الأزواجُ اليافعون، المنتظرون لميراثهم من الأجداد الذين ما يزالون على قيد الحياة، ليالي عديدةً وهم يطاردون هذه العثث.

اعتدتُ بعد ذلك أن أتسكّع حول المنزل ليلا، عندما ينامُ غاربوس ويهوذا. فأفتح النّوافذ كي تدخل العثث. كانت تأتي في أسراب. فتشرعُ في رقصة موت مجنونة حول اللّهب المُرتعش، مُصطدمةً بعضها ببعض. يطير البعضُ الآخر منها نحو اللّهب. فتحترقُ حيّةً أو تعلقُ

في الشّمع الذّائب. يُقالُ إنّ العناية الإلهيّة قد حوّلتها في كلّ مرّة إلى مخلوقات مختلفة. وكان عليها في كلّ حلول جديد أن تتحمّل أصناف المعاناة الأكثر ملاءمة لأنواعها. ولكن لم يهمّني كثيرا أمرها هذا. فقد كنتُ أبحثُ فقط عن عثّة واحدة بعينها. ومع ذلك، اضطررتُ إلى أن أُموّج شمعتي عند النّافذة وأدعوها كلّها للدّخول. أجفلتْ حركاتي وضوءُ الشّمعة يهوذا. فأيقظ نباحهُ غاربوس، الذي تسلّل من خلفي. وإذ رآني بشمعة في يدي، قافزا في كلّ أنحاء الغرفة مع سرب من الذّباب والعثث والحشرات الأخرى، اقتنع أنّني كنتُ أمارسُ بعض طقوس الغجر الخبيثة. وفي اليوم التّالي، تلقّيتُ منه عقابا مثاليّا.

لكنّني لم أستسلمْ. فبعد أسابيع عديدة، قبل الفجر تماما، أمسكتُ أخيرا بالعثّة المرتجاة، ذات العلامات الغريبة. نفختُ عليها بعناية ثلاث مرّات. ثمّ أطلقتُها. رفرفت فوق الموقد للحظات. واختفت. فعرفتُ أنّ حياة غاربوس تمتدُّ فقط لبضعة أيّام أخرى. نظرتُ إليه بشفقة. لم تكن لديه أيّ فكرة عن قدوم قاتله من متاهة غامضة، مسكونةٍ بالمرض والألم والموت. ربّما يكون في البيت سلفا، متأهّبا لقطع قيد حياته كما يقطع المنجلُ سويقةً واهنةً. لم يكن لديّ مانع من التّعرّض للضّرب، حين كنتُ أحدّقُ قاصدا في وجهه، باحثا عن علامات الموت في عينيه. أوه، ماذا لو علمَ بما كان ينتظره؟

رغم ذلك، استمرّ غاربوس في امتلاك القوّة والصّحّة الجيّدة. وفي اليوم الخامس، عندما بدأتُ أشكّ في أنّ الموت يتجاهلُ واجباته، سمعتُ غاربوس وهو يصرخُ في الحظيرة. اندفعتُ إلى هناك، آملا أن أعثر عليه وهو يلفظ آخر نفسٍ وينادي على الكاهن. ولكنّه كان مُنحنيا فحسبُ على

جثّة سلحفاة صغيرة، ورثها عن جدّه. ولقد كانت مروّضة بشكل جيّد، تقضي حياتها في ركنها الخاصّ داخل الحظيرة. واعتاد غاربوس أن يتفاخر بسلحفاته. فهي المخلوق الأكبر سنّا في القرية كلّها.

أخيرًا، استنفدتُ كلّ الطرق الممكنة لتحقيق نهايته. وأثناء ذلك، ابتدع غاربوس طرقا جديدةً في اضطهادي. فمثلا، يعلّقني أحيانا من ذراعيّ في غصن من أغصان شجرة البلّوط، تاركا يهوذا طليقا في الأسفل. ووحدهُ ظهور الكاهن في عربته ما يدفعهُ إلى إيقاف لعبته تلك.

بدا لي أنّ العالم ينغلق حول رأسي مثل حجر قبو هائل. فكّرتُ أن أخبر الكاهن بما كان يحدثُ. لكنّني خشيتُ أن يكتفي بمعاتبة غاربوس، ليمنحهُ بذلك فرصة ضربي مجدّدا بسبب الشّكوى. خطّطتُ لفترة من الزّمن للهرب من القرية. ولكن هناك الكثيرُ من القواعد العسكريّة الألمانيّة في الأحياء المجاورة. وخفتُ أن أقع بين أيدي الألمان. فيحسبونني لقيطا غجريّا. وحينئذ، من يدري ما الذي يمكنهُ أن يحدث لي؟

سمعتُ الكاهن ذات يوم، وهو يشرحُ لرجل عجوز أنّ الرّبّ قد يهبُ للمرء، من أجل صلوات معيّنة، من مائة يوم إلى ثلاث مائة من الغفران والرّحمة. وعندما فشل المزارعُ في فهم معنى هذه الكلمات، راح الكاهنُ يقدّم له عرضا مطوّلا. ومن هذا كلّه فهمتُ أنّ أولئك الذين يتلون صلوات أكثر من غيرهم يكتسبون المزيد من أيّام المغفرة والرّحمة، وأنّه من المفترض أن يكون لذلك تأثير فوريّ على حيواتهم.

في الحقيقة، كلّما زاد عددُ الصّلوت المقدّمة كانت حياة المرء أفضل. وكلّما قلّ عددها زادت المتاعب والآلام التي يقاسيها.

فجأة، انكشف لي النّاموس المسيّر للعالم بوضوح رائع. وفهمتُ لم يكونُ النّاسُ أقوياء وضعفاء، أحرارا وعبيدا، أغنياء وفقراء وأصحّاء ومرضى. لقد كان المُنعَمون، ببساطة، أولئك الذين فهموا قبل غيرهم الحاجة إلى الصّلاة وإلى جمع أكبر عدد ممكن من أيّام الرّحمة. في مكان مّا بعيد في الأعلى، تُصنّفُ كلّ هذه الصّلوات القادمة من الأرض بشكل دقيق، على نحو يكتسبُ فيه كلّ شخص سلّتهُ حيثُ تمّ تخزينُ أيّام رخائه.

تخيّلتُ المراعي السّماويّة اللاّنهائيّة مليئة بالسّلال بعضُها كبير ومُكوّمٌ بأيّام البركة وبعضها الآخر صغير ويكادُ يكون فارغا. وفي مكان آخر، رأيتُ السّلال التي لم تُستعمل بعدُ مُهيّأة لاستقبال أولئك الذين هم مثلي لم يكتشفوا بعدُ قيمة الصّلاة.

توقّفتُ عن لوم الآخرين. فالذّنبُ ذنبي وحدي كما خمّنتُ. لقد كنتُ أغبى بكثير من أن أعثر على المبدإ المُسيّرِ لعالم النّاس والحيوانات والأحداث. ولكن، ها إنّ هناك نظاما في عالم البشر وعدلا كذلك. يحتاجُ المرءُ فقط إلى أن يتلو الصّلوات، مركّزا على تلك التي تملكُ أكبر عدد من أيّام اليُسر. وسيدوّنُ أحدُ مساعدي الرّبّ على الفور العضو المؤمن الجديد. ويحجز له مكانا تبدأُ فيه أيّام يُسره في التّراكم مثل أكياس القمح أثناء الحصاد. كنتُ واثقا بقوّتي. وأيقنتُ أنّني خلال فترة وجيزة سأجمع أيّام رخاء أكثر من النّاس الآخرين، وأنّ سلّتي ستمتلئ سريعا، وأنّ السّماوات ستعيّنُ لي واحدة أكبر. وحتّى هذه سوف تفيضُ. فأحتاج بعد ذلك إلى أخرى أكبر منها، بحجم الكنيسة نفسها.

طلبتُ من الكاهن، وأنا أتظاهر باهتمام عرضيّ، أن يريني كتاب الصّلوات. وسريعا، التقطتُ الصّلوات المسجّلة بأكبر عدد من أيّام المغفرة والرّخاء. وسألته أن يعلّمني إيّاها. وقد تفاجئ على نحو مّا بتفضيلي لبعض الصّلوات وتجاهلي لأخرى. ولكنّه وافق. وقرأها عليّ عدّة مرّات. بذلتُ جهدا كبيرا لتركيز كلّ قواي العقليّة والجسديّة من أجل حفظها. وقد تمّ ذلك سريعا. كنتُ مستعدّا لبداية حياة جديدة. وكان لديّ كلّ ما هو مطلوب ومُعظّم إلى درجة أنّ أيّام العقاب والذّلّ ستصير قريبا من الماضي. عشتُ حتّى الآن بقّةً صغيرة يمكن لأيّ كان أن يسحقها. ولكن من الآن فصاعدا، ستصيرُ البقّةُ المتواضعةُ ثورًا منيعا.

لم يكن هناك أيّ وقت لأضيّعه. كلّ لحظة فراغ يمكنُ أن تُستخدم لصلاة أخرى إضافيّة، وبالتّالي لكسب المزيد من أيّام البركة من أجل حسابي السّماويّ. سأُكافأُ قريبا برحمة الرّبّ. ولن يتمكّن غاربوس بعد الآن من تعذيبي.

أصبحتُ أكرّسُ وقتي كلّه للصّلوات. ألهجُ بها في عجلة ، الواحدة تلو الأخرى، ممرّرا من حين إلى آخر صلاة تقلّ أيّامُ بركتها. إذ لم أرغب في أن تعتقد السّماءُ أنّني أتجاهل كلّيًا الصّلوات الأكثر تواضعا. ففي النّهاية لا يمكن للمرء أن يخدع الرّبّ.

لم يستطع غاربوس أن يفهم ما يحدث لي. وكلّما رآني وأنا أتمتم باستمرار شيئا مّا تحت نفَسي وأكادُ لا أعير انتباها لتهديداته، شكّ أنّني ألقي عليه سحرا غجريّا. لم أرد أن أبوح له بالحقيقة. كنتُ أخشى أن يحرّم عليّ، بشكل مّا لا أعلمهُ، تلاوة الأدعية والصّلوات وأن

يستعمل نفوذه في السّماء، بما أنّه مسيحيّ أكبر منّي سنّا، ليبطل صلواتي مثلا أو يحوّل بعضا منها إلى سلّته الفارغة دون شكّ.

لقد بدأ يضربني بشكل مطّرد أكثر من قبلُ. وفي بعض الأحيان عندما يطلبُ منّي شيئا مّا وأكون منغمسا في الصّلاة، لا أجيبهُ على الفور خشية أن أخسر أيّام الرّحمة التي أكون بصدد تحصيلها. اعتقد غاربوس أنّني صرتُ وقحا. وأراد أن يحطّمني. كما أنّه خشي أن أمتلك الجرأة الكافية لإخبار الكاهن بضربه لي. وهكذا انقضت حياتي بين الصّلاة والتّعرّض للضّرب.

أتممتُ الصّلوات باستمرار من الفجر حتّى الغسق، فاقدا حساب أيّام الرّحمة التي أكتسبها. ولكنّني أكادُ أرى كومتها تتنامى دون انقطاع إلى أن يتوقّف بعضُ القدّيسين أثناء نزهتهم في المراعي السّماويّة وينظروا بإعجاب إلى أسراب الصّلوات المرتفعة من الأرض مثل عصافير الدّوري، قادمة كلّها من طفل صغير بشعر أسود وعينين سوداوين. رأيتُ اسمي وهو يُذكرُ في مجالس الملائكة، ومن ثمّ في مجالس القدّيسين الصّغار فالقدّيسين الكبار، ثمّ أقرب فأقرب وصولا إلى العرش السّماويّ.

اعتقد غاربوس أنّني أفقدُ احترامي له. فحتّى عندما يضربني بشكل أعنف، لا أهدرُ وقتي. بل أواصلُ تحصيل أيّام بركتي. ففي النّهاية، يأتي الألم. ويمضي. لكنّ الرّحمة والمغفرة تقبعان في سلّتي إلى الأبد. كان حاضري سيّئا لأنّني لم أكن أعلمُ من قبلُ بهذه الطّريقة المذهلة في تحسين مستقبلي. لم أستطع أن أتحمّل تبذير المزيد من الوقت. وكان عليّ أن أعوّض السّنوات التي ضاعت.

أصبح غاربوس متيقّنا الآن أنّني منغمسٌ في غيبوبة غجريّة لا يمكن لها أن تأتي بأيّ خير. أقسمتُ له أنّني كنتُ أصلّي فحسبُ. ولكنّه لم يصدّقني.

لقد تأكّدت مخاوفهُ بشكل سريع. ففي إحدى الأيّام، كسرت بقرةٌ باب الحظيرة. ودخلت حديقة أحد الجيران، مُحدثة ضررا هائلا. غضب الجارُ. واندفع إلى بستان غاربوس وفي يده فأس. فقطع انتقامًا كلّ أشجار الكمثرى والتّفّاح. وكان غاربوس نائما، ميّتا من السّكر، بينما اهتاج يهوذا بلا جدوى في سلسلته. ولتكتمل الكارثة، تسلّل ثعلب إلى بيت الدّجاج في اليوم التّالي. وقتل إحدى أفضل الدّجاجات البيوضة. وفي نفس المساء، دمّر يهوذا بضربة واحدة من مخالبه فخر غاربوس، ذاك الدّيك الرّوميّ الفاخر الذي اشتراهُ مؤخّرا بثمن باهض.

انهار غاربوس تماما. وشرب الفودكا المنزليّة حتّى ثمل. فكشف لي سرّهُ. قال إنّه كان ليقتلني منذ زمن بعيد لولا خوفه من مولاه القدّيس آنثوني. كان يعرفُ أيضا أنّني أحصيتُ أسنانهُ، وأنّ موتي سيكلّفهُ الكثير من سنوات حياته. وطبعا، إذا قتلني يهوذا عن طريق الخطإ – أردف – فإنّه سيكون في مأمن من تعاويذي. ولن يعاقبه القدّيس.

في الأثناء، كان الكاهنُ مريضا ورابضا في مقرّ الكهنة. ويبدو أنّهُ أصيب بنزلة برد في الكنيسة المتجمّدة. وها هو يرقدُ في غرفته في حالة من الحمّى والهذيان، يحدّثُ نفسه أو يحدّثُ الرّبّ. حملت ذات مرّة بعض البيض هديّةً للكاهن من عند غاربوس. تسلّقتُ السّياج لرؤيته. كان وجهه شاحبا. تطوفُ أخته الكبرى، وهي امرأة قصيرةٌ ممتلئة الجسم ذات شعر مكوّم في كعكة، قلقةً حول السّرير، بينما تُخرجُ حكيمةُ القرية دمهُ وتضعُ عليه علقا ينتفخُ كلّما التصق بجسده.

مكثتُ مندهشا لما أراهُ. فالكاهنُ قد راكم عددا مهولا من أيّام الرّحمة والبركة أثناء حياته الورعة. ومع ذلك، يرقدُ الآن مريضا مثل أيّ شخص آخر.

جاء كاهنٌ جديدٌ إلى مقرّ الكهنة. وقد كان عجوزا وأصلع. وله وجه رقيقٌ جدّا يشبهُ الورق. يرتدي شريطا بنفسجيّا حول ثوبه. عندما رآني عائدا والسّلّة في يدي، ناداني وسألني من أين جئتُ، وأنا أملك هذا المنظر الذّاكن. وإذْ رآنا عازفُ الأرغن معا، وشوش بسرعة بعض الكلمات للكاهن. فمنحني بركته. وانصرف.

أخبرني عازف الأرغن أنّه يريدني ألاّ أجعل نفسي مكشوفا تماما في الكنيسة. فالعديدُ من النّاس يزورون المكان. ورغم أنّهُ يعتقدُ أنّني لستُ غجريّا ولا يهوديّا، إلاّ أنّ الألمان المفعمين بالشّكّ قد يرون غير ذلك. فينتقمون من الأبرشيّة.

اندفعتُ بسرعة إلى مذبح الكنيسة. وشرعتُ أتلو الصّلوات دون توقّف. ومرّة أخرى، اقتصرتُ على تلك التي تملكُ أكبر عدد ممكن من أيّام الرّحمة المقترنة بها. لم يكن لديّ الكثير من الوقت المتاح. ومن جهة أخرى، من يدري، ربّما تحملُ الصّلواتُ عند مذبح الكنيسة نفسه، تحت عين ابن الرّبّ الدّامعة والنّظرة الأموميّة لمريم العذراء وزنا أثقل من تلك التي تُتلى في مكان آخر. قد تملكُ طريقا مختصرة للسّفر إلى الجنّة، أو قد تُحمل على الأرجح من قبل رسول خاصّ يستخدمُ وسيلة نقل أسرع، مثل قطار على سكك الحديد. رآني عازفُ الأرغن وحيدا في الكنيسة. وذكّرني مرّة أخرى بتحذير الكاهن الجديد. ولهذا السّبب ألقيتُ تحيّة الوداع على المذبح وكلّ أشيائه الأخرى المألوفة.

كان غاربوس ينتظرني في البيت. وما أن دخلتُ حتّى جرّني إلى غرفة فارغة في إحدى أركان المنزل. هناك في أعلى نقطة من السّقف، تمّ غرزُ خُطّافين في العوارض الخشبيّة، تفصلهما مسافة أقلّ من قدمين بقليل. أُرفق في كلّ منهما حزام جلديّ يصلح مقبضا.

صعد غاربوس على مقعد. ورفعني إلى أعلى. ثمّ طلب منّي أن أمسك كلّ مقبض بيد. تركني بعد ذلك معلّقا. وجلب يهوذا إلى الغرفة. وفي طريقه إلى الخارج، أغلق الباب.

رآني يهوذا متدلّيا من السّقف. فقفز على الفور مُحاولا أن يمسك بقدمي. رفعتُ ساقيّ إلى الأعلى. فأفلتَهما عن بعد إنشات قليلة. انطلق يعدو مجدّدا. وحاول مرّة أخرى. لكنّه فشل كذلك. وبعد محاولات أخرى قليلة، أقعى على الأرض. ومكث ينتظرُ.

وجب عليّ أن أراقبه. فعندما أكون متدلّيا تماما في ارتخاء، لا يجاوز قدماي ستّة أقدام فوق الأرضيّة. وبإمكان يهوذا أن يدركهما بسهولة. لم أكن أعرفُ كم من الوقت يمكنني أن أتعلّق هكذا. خمّنتُ أنّ غاربوس يتوقّع منّي أن أسقط في النّهاية. فيهاجمني حينئذ يهوذا. يمكنُ لهذا الأمر أن يحبط كلّ الجهود التي قمتُ بها خلال الأشهر الأخيرة المنقضية، وأنا أحصي أسنان غاربوس بما في ذلك الصّفراء منها وتلك التي لم تنبت بشكل جيّد في الجزء الخلفيّ من فمه. مرّات عديدة، كان غاربوس ينامُ ثملا وهو يشخرُ بفم مفتوح. فأحصي أسنانه المقرفة بعناية شديدة. وقد كان ذلك سلاحي ضدّهُ. فكلّما أطنَب في ضربي، أذكّرهُ بعدد أسنانه. وإن لم يصدّقني، بإمكانه أن يتثبّت من ذلك بنفسه. إنّني أعرفُ جيّدا كلّ واحدة منها، مهما كانت

متذبذبةً أو متعفّنة أومختفية تحت اللثّة. إذا قتلني، لن تتبقّى له سوى بضع سنوات قليلة ليعيشها. في المقابل، إن وقعتُ بين أنياب يهوذا، سيكونُ ضميرُ غاربوس مرتاحا. ولن يخشى شيئا. وقد يُبرّئهُ مولاهُ القدّيسُ آنثوني من موتي الحادث.

أصبح كتفاي خدِرَين. رفعتُ ثقلي إلى الأعلى. فتحتُ قبضتيّ. وأغلقتهما. وببطء، أرحتُ ساقيّ، مُخفضا إيّاهما بشكل خطير قرب الأرضيّة. وكان يهوذا في الرّكن، يتظاهر بالنّوم. ولكنّني أعرفُ حيله مثلما يعرفُ هو حيلي. يدركُ جيّدا أنّني مازلتُ أملك شيئا من القوّة، وبإمكاني أن أرفع ساقيّ بشكل أسرع ممّا يتيحُ له أن يمسك بهما. ولذلك ظلّ ينتظر إعيائي ليهزمني.

ركض الألمُ في جسدي في اتّجاهين اثنين، من اليدين نحو الكتفين والرّقبة ومن السّاقين إلى الخصر. لقد كانا نوعين مختلفين من الألم يتململان باتّجاه وَسطي، مثل خُلدين يحفران نفقين يُفضيان بعضُهما إلى الآخر تحت الأرض. الألمُ في يديّ أكثر قابليّة للتّحمّل. وقد استطعتُ التّعامل معهُ عن طريق إمساك مقبض بيدٍ وإطلاق الثّانية، مُرخيا ثقلي ومُريحا عضلاتي. ومن ثمّ أرفع الحِمْل من جديد، متدلّيا من يد واحدة، بينما يعودُ الدّم جاريا إلى الأخرى. أمّا ألمُ ساقيّ ومعدتي، فقد كان أكثر ثباتا. وما أن يتركّز في بطني حتّى يرفض المغادرة. يشبهُ الأمر دودة خشب تعثر على مكان دافئ ومريح خلف عقدة في الخشب. فتمكث هناك إلى الأبد.

لقد كان ألما غريبا وباهتا يخترق الجسد. لا بدّ أنّه يُشبه ألم رجل ذكرهُ غاربوس، وهو يهدّدني من قبلُ. يبدو أنّ هذا الرّجل قد قتل غدرا ابن

مزارع وجيه في القرية وذي نفوذ. وقرّر هذا المزارعُ أن يعاقب القاتل على الطّريقة القديمة. أحضر المجرمَ رفقة اثنين من أبناء عمومته إلى الغابة. وهناك أعدّوا معا عمودا يبلغ طوله اثنتي عشرة قدما. وقد تمّ شحذهُ من جهة واحدة حتّى صار مسنّنا كقلم رصاص عملاق. وضعوه أرضا. وأسندوا الطّرف المسنّن إلى شجرة. ثمّ ربطوا حصانين قويّين بكلّ قدم من قدمي الضّحيّة، بينما يواجهُ ما بين ساقيه الطّرف المُهيّأ. تقدّم الحصانان بقوّة، دافعين الرّجل إزاء العمود الحادّ، الذي غرق تدريجيّا في اللّحم المتمزّق. وعندما غاص الطّرفُ المسنّنُ في أحشائه، رفع الرّجال العمود وفوقه المبقور. وغرزوه جيّدا في خندق حُفِر سلفا. وفي النّهاية، تركوهُ هناك ليموت بشكل بطيء.

والآن، وأنا أتدلّى من السّقف، أكادُ أتمكّنُ من رؤية الرّجل وسماعه وهو يعوي ألما في اللّيل، مُحاولا أن يرفع إلى السّماء اللاّمبالية ذراعيه المتدلّيتين من جذع جسده المتفخ. لا شكّ أنّه يُشبهُ طائرا أصابهُ مقلاع. فسقط مُرتخيا على عمود جافّ ومُسنّن.

استيقظ يهوذا من تحتي، مُستمرّا في ادّعاء اللاّمبالاة. تثاءب. وحكّ ما خلف أذنيه. ثمّ حاول صيد البراغيث في ذيله. كان يلقي من حسن إلى آخر نظرة خاطفة وماكرة عليّ. ثمّ يُشيحُ بوجهه عنّي متقزّزا، كلّما رأى ساقيّ المحنيّتين إلى أعلى.

لقد تمكّن من خداعي مرّة واحدة فقط. حسبتُ أنّه قد ذهب للنّوم. فأطلقتُ ساقيّ. وقفز يهوذا على الفور من الأرض باتّجاهي، مُندفعا مثل جرادة. إحدى ساقيّ لم ترتفع بالسّرعة الكافية. ولذلك مزّق بعض الجلد عند الكعب. وكاد الخوفُ والألمُ يدفعانني إلى

السّقوط. لعق يهوذا نفسهُ بزهو. ثمّ تراجع إلى الخلف حذو الحائط. وظلّ يراقبني من خلال شقّي عينيه، وهو ينتظرُ متأهّبا.

اعتقدتُ أنّني لن أستطيع التّماسك أكثر. فقرّرتُ أن أقفز إلى الأسفل وأخطّط عمليّة الدّفاع ضدّ يهوذا، رغم أنّني أعرفُ سلفا ألاّ قدرة لي لأشكّل قبضةً، قبل أن يكون هو عند حنجرتي. لم يكن هناك أيّ وقت للخسارة. وفجأة، تذكّرتُ الصّلوات.

أخذتُ أراوحُ ثقلي بين يد وأخرى. أحرّكُ رأسي. وأهزّ ساقيّ إلى أعلى فأسفل. نظر إليّ يهوذا، مُحبطا لاستعراض القوّة هذا. وفي النّهاية، التفت باتّجاه الحائط. ومكث غير مبال بما يحدث.

مرّ الوقتُ. وتضاعفت صلواتي. كانت الآلافُ من أيّام الرّحمة تعبر سقف القشّ باتّجاه الجنّة.

جاء غاربوس في وقت متأخّر من المساء إلى الغرفة. نظر إلى جسدي المبلّل وبركة العرق فوق الأرضيّة. نحّى يديّ عن الخطّافين بعنف. وركل الكلب إلى الخارج. ولم أستطع طيلة ذلك المساء، أن أمشي أو أحرّك ذراعيّ. تمدّدتُ على الفراش. وصلّيتُ. قدِمَت أيّام الرّحمة مئاتٍ وآلافا. من المؤكّد الآن أنّ لديّ منها في الجنّة ما هو أكثر من حبوب القمح في الحقل. وسيتمّ الإشعار بهذا الأمر في الجنّة، في أيّ يوم وأيّ دقيقة. وربّما يلاحظُ القدّيسون في هذه اللّحظة أيضا بعض التّحسّن الجذريّ في حياتي.

ظلّ غاربوس يعلّقني في الأعلى كلّ يوم. أحيانا يفعل ذلك في الصّباح، وأحيانا أخرى في المساء. ولو لم يكن خائفا من الثّعالب واللّصوص ويحتاجُ إلى يهوذا في الفناء من أجل صدّهم، لفعل الشّيء نفسه في اللّيل أيضا.

بقي الأمر على حاله في كلّ مرّة. بينما أظلّ متماسكا بعض الشّيء، يتمدّدُ الكلبُ على الأرضيّة بهدوء، مُتظاهرا بالنّوم أو اصطياد البراغيث بشكل عرضيّ. وعندما يحتدُّ ألمُ ذراعيّ وساقيّ، يزدادُ تأهّبهُ، كما لو أنّهُ يتحسّسُ جيّدا ما يحدثُ في جسدي. يسيلُ العرقُ منّي جاريا في نُهيرات صغيرة، فوق عضلاتي المتوتّرة، واقعا على الأرض في قطرات متعاقبة ومنتظمة. وما أن أطلق ساقيّ حتّى ينقضّ يهوذا عليهما.

مرّت أشهر على هذا النّحو. وأصبح غاربوس يحتاجني في الأنحاء أكثر من قبلُ، لأنّه كان ثملا في أغلب الأحيان. ولم يعد يرغب في العمل. ولهذا السّبب يعلّقني في السّقف عندما يشعر فقط أنّه ليس بحاجة إليّ. وعندما يستيقظُ فيسمعُ صوت الخنازير الجائعة والبقرات البطيئة، يُطلقُ سراحي ويرسلني إلى العمل. تكيّفت عضلاتُ ذراعيّ مع التّعلّق. وأصبح بإمكاني أن أتحمّلهُ لعدّة ساعات دون جهد كبير. كما أنّ الألم الذي يصيبُ بطني بدأ يحلّ متأخّرا الآن. إلاّ أنّني أصابُ بتشنّجات تُخيفني. ولم يُفلت يهوذا أيّ فرصة للانقضاض عليّ، رغم أنّه يرتابُ الآن، ودون شكّ، في قدرته على أن يفاجئني ولو لمرّة واحدة.

معلّقا في الأحزمة، ركّزتُ فقط على صلواتي دون أيّ شيء آخر. أقول لنفسي كلّما نفدت قواي إنّه يجدرُ بي أن أصمد لعشر صلوات أو عشرين أخرى قبل أن أسقط. وبعد أن أتلوها، أعدُ نفسي مجدّدا بعشر صلوات أو خمس عشرة واحدة. كنتُ أعتقدُ أنّ شيئا مّا يمكنهُ أن يحدث، وأنّ كلّ ألفيّة من أيّام الرّحمة الإضافيّة يمكنها أن تنقذ حياتي، ربّما في هذه اللّحظة بعينها.

كنتُ أشاكسُ يهوذا من حين إلى آخر، كي أشتّت انتباهي عن ألم عضلات ذراعيّ الخدرة. في البداية، أؤرجحُ ذراعيّ كما لو أنّني أوشكُ على السّقوط. فينبحُ الكلبُ. ويقفزُ. ويهتاجُ غضبا. وعندما يذهبُ للنّوم، أوقظهُ بالصّراخ وتمطّق الشّفاه وشحذ الأسنان بعضها ببعض. لم يستطع أن يفهم ما يحدثُ. وإذ يعتقدُ أنّ نهاية تحمّلي قد حلّت، يندفعُ قافزا في الأرجاء بشكل جنونيّ، ضاربا الجدران بجسمه في الظّلام، مُسقطا المقعد على الأرضيّة وواقفا في تأهّب أمام الباب. كان ينخرُ ألما. ينتصبُ بتثاقل. ثمّ يستريحُ مجدّدا. انتهزتُ الفرصة لأقوّي عضلات ساقيّ. حين تدوّي الغرفةُ بشخير الوحش المنهك، أدّخرُ قوّتي واهبا المكافآت لنفسي مقابل تحمّلي ومقاومتي. أطلقُ ساقا من أجل كلّ ألفيّة جديدة من أيّام الرّحمة المتحصّل عليها. وأريحُ ذراعا من أجل كلّ عشر صلوات. وأغيّر تماما وضع جسدي بعد خمس عشرة صلاة أتمّها.

وفي لحظة غير متوقّعة، أسمعُ قعقعة المزلاج. ويدخل غاربوس. عندما يراني حيّا، ينطلقُ في لعن يهوذا وركله وضربه إلى أن يئنّ الكلبُ وينشج مثل جرو صغير.

كان غضبهُ هائلا إلى درجة أنّني أتساءل إذا ما كان الرّبُّ نفسهُ من أرسلهُ في هذه اللّحظة. ولكن حين أنظرُ في وجهه، لا أتمكّنُ من رؤية أيّ أثر لحضور إلهيّ.

صرتُ أُضربُ بشكل أقلّ من قبل. يستغرقُ التّعليقُ الكثير من الوقت. والمزرعةُ في حاجة إلى الانتباه والرّعاية. تساءلتُ لم يستمرُّ في تعليقي. هل يتوقّعُ فعلا أن يقتلني الكلبُ بعد كلّ هذه المحاولات الفاشلة؟

أحتاجُ بعد كلّ تعليق إلى فترة من الوقت لأتعافى. تتمطّطُ العضلاتُ مثل خيط الغزل على العجلة الدّائرة حين يمتنعُ عن التّقلّص إلى حجمه المعتاد. كنتُ أتحرّكُ بصعوبة. وأحسّ كما لو أنّني سويقة متيبّسةٌ وهشّةٌ تحاولُ أن تُسند عبء إزهار عبّاد الشّمس.

اعتاد غاربوس أن يركلني عندما أبطئُ في العمل. يقول إنّه لن يُؤوي مُتخاذلا. ويهدّدني بإرسالي إلى القوّات الألمانيّة. حاولتُ أن أعمل بجهد أكبر من أيّ وقت مضى كي أقنعهُ بفائدتي. لكن لا شيء يرضيه أبدا. وكلّما ثمل وضعني في الخطّافين، تاركا يهوذا منتظر بصبر في الأسفل.

مرّ الرّبيعُ. وقد بلغتُ سنّي العاشرة. وراكمتُ ما لا يُقدّرُ من أيّام الرّحمة لكلّ يوم في حياتي. اقترب موعد عيد كنسيّ عظيم. فانشغل النّاس في القرى بإعداد ملابس الاحتفال. صنعت النّساءُ أكاليل من الزّعتر البرّيّ ونبات ندى الشّمس والزّيزفون وأزهار التّفّاح والقرنفل البرّيّ المُبارَك في الكنيسة. زُيّن صحنُ الكنيسة والمذبحُ بأغصان البتولا الخضراء وشجر الحور والصّفصاف. تكتسبُ هذه الأغصانُ بعد العيد قيمة عظيمة. وتزرعُ بين الخضر والكرنب والقنّب وحقول الكتّان، حتّى تُؤمّن النّموّ السّريع والوقاية من الآفات.

ذهب غاربوس يوم العيد إلى الكنيسة في الصّباح الباكر. ومكثتُ في المزرعة مكدوما ومتألّما بعد آخر مرّة ضربني فيها. تدحرج الصّدى المكسورُ لرنين أجراس الكنيسة فوق الحقول. وحتّى يهوذا نفسه توقّف عن الاسترخاء في الشّمس. وأصغى له.

لقد كان جسد المسيح(18). ويُقال إنّه في يوم العيد هذا، يكون الحضور الجسديّ لابن الرّبّ محسوسا داخل الكنيسة أكثر من أيّ عيد آخر. الجميعُ ذهبوا إلى الكنيسة في ذلك اليوم: المذنبون والصّالحون، أولئك الذين يصلّون باستمرار وأولئك الذين لم يُصلّوا أبدا، الأغنياءُ والفقراء والمرضى والأصحّاء. لكنّني تُركتُ وحيدا مع كلب لا يملكُ أيّ فرصة ليحقّق حياة أفضل، رغم أنّه واحد من مخلوقات الرّبّ.

اتّخذتُ قرارا سريعا. إنّ خزّان الصّلوات التي جمّعتُها يمكن أن ينافس دون شكّ خزّانات قدّيسين أصغر سنّا. ورغم أنّ صلواتي لم تحقّق نتائج ملموسة، إلاّ أنّهُ قد انتُبه إليها في الجنّة دون شكّ، حيثُ العدل هو القانون.

لم يكن لديّ ما أخشاهُ. اتّخذتُ طريقي في اتّجاه الكنيسة، ماشيا على امتداد المسالك الوعرة التي تفصل ما بين الحقول.

كان فناءُ الكنيسة قد غصّ بحشد ملوّن من النّاس لا مثيل له. تُصاحبهم عرباتهم المزركشة بألوان البهجة وأحصنتهم. جثوتُ في ركن مخفيّ، مُنتظرا اللّحظة المواتية حتّى أنزلق إلى الكنيسة من أحد الأبواب الجانبيّة.

فجأة، لمحتني خادمة الكاهن. وقالت لي إنّ أحد صبية المذبح الذين تمّ اختيارهم لهذا اليوم أصيب بتسمّم. وعليّ أن أذهب على الفور إلى حجرة ارتداء الملابس. فأغيّر ثيابي. وأتّخذ مكانه عند المذبح. لقد أمر بذلك الكاهنُ الجديد نفسه.

---

(18) جسد المسيح تعريب لعبارة Corpus Christi اللاّتينيّة. وهي اسم عيد كنسيّ كاثوليكيّ. يقوم على إحلال جسد المسيح، بوصفه ابن الرّبّ وأقنوما من الأقانيم المقدّسة الثّلاثة والاحتفال، بحضوره الحقيقيّ في العالم. (المترجم)

اجتاحتني موجة حرارة. ونظرتُ إلى السّماء. أخيرا، شخصٌ مّا هناك في الأعلى قد لاحظ وجودي. لقد رأى صلواتي ممدّدة في ركام هائل، مثل قطع البطاطا المكدّسة عاليا أيّام الحصاد. وخلال لحظة واحدة، سأكون قريبا منه، عند مذبحه، وتحت حماية كاهنه. وليست هذه سوى البداية. من هنا فصاعدا، تبدأُ معي حياة مختلفة أكثر يسرا. كنتُ قد رأيتُ نهاية الرّعب التي تخضُّ المعدة فتفرغها من القيء، كزهرة خشخاش مثقوبة يفتحها مهبُّ الرّيح. لا مزيد من ضربات غاربوس. ليس هناك تعليق بعد الآن. وليس هناك يهوذا. هناك حياة جديدة تنفتحُ أمامي، حياة ناعمة مثل حقول القمح الصّفراء المتموّجة تحت نفَس النّسيم النّاعم. ركضتُ إلى الكنيسة.

لم يكن من السّهل الوصول إلى الدّاخل. لقد طفح الحشدُ الصّاخبُ بكثافة حول باحة الكنيسة. رآني شخصٌ مّا على الفور. وأثرتُ انتباههُ. اندفع المزارعون باتّجاهي. وأخذوا يجلدونني بأغصان الصّفصاف وسياط الخيل. ضحك المزارعون الأكبر سنّا إلى درجة أنّهم تمدّدوا على الأرض. سُحبتُ تحت عربة. وقيّدتُ إلى ذيل حصان. قُبض عليّ سريعا بين القضبان. صهل الحصانُ. وانتصب على قائمتيه الخلفيّتين. ثمّ ركلني مرّة أو مرّتين قبل أن أتمكّن من تحرير نفسي.

أدركتُ حجرة الملابس، وأنا أرتجفُ وجسدي يؤلمني. تأهّب الكاهن الذي لم يصبر على تأخّري للانطلاق. وأنهى خادمو المذبح ارتداء ملابسهم أيضا. كنتُ أرتعشُ من التّوتّر حين لبستُ رداء الصّبية الذي بلا أكمام. كلّما نظر الكاهنُ بعيدا، عثّرني الصّبيةُ

الآخرون أو لكزوني في ظهري. تحيّر الكاهنُ من بطئي. وغضب غضبا شديدا، حتّى أنّه دفعني بعنف. فوقعتُ على مقعد. وأصبتُ ذراعي. وأخيرا، أصبح كلّ شيء جاهزا. انفتحت أبوابُ الحجرة. وفي سكون الكنيسة المزدحمة، اتّخذنا أمكنتنا أسفل المذبح، ثلاثة منّا في كلّ جانب من جانبي الكاهن.

لقد انطلق القدّاس بكلّ جلاله.

كان صوتُ الكاهن شجيّا أكثر من العادة. دوّى الأرغن بقلوبه الألف المُرعدة. وقد نفّذ صبية المذبح باتّزان شديد مهامّهم المحدّدة بدقّة كبيرة.

فجأة، وخزني صبيّ المذبح المُجاور لي في ضلوعي. وأومأ برأسه متوتّرا باتّجاه المذبح. حدّقتُ عاجزا عن الفهم والدّمُ يختضُّ في صدغيّ. أومأ لي مجدّدا. فلاحظتُ أنّ الكاهن نفسه كان يلقي عليّ نظرات ترقّب. من المفترض أن أفعل شيئا مّا. ولكن، ما هو؟ أصبتُ بالذّعر. وانقطعت أنفاسي. التفت مُساعدُ الكاهن إليّ. وهمس لي قائلا إنّه ينبغي عليّ حمل كتاب القدّاس.

اكتشفتُ بعد ذلك أنّ واجبي يتمثّل في نقل الكتاب من جهة في المذبح إلى الجهة الأخرى. لقد رأيت هذا الأمر يحدث مرّات عديدة من قبل. يقتربُ الصّبيّ من المذبح. يمسك الكتاب والقاعدة التي يستندُ إليها. يتراجعُ إلى الخلف نحو مركز العتبة السّفلى في المذبح. ثمّ يركعُ ممسكا بالكتاب بين يديه. ويقفُ حاملا إيّاهُ إلى الجهة الأخرى. وفي النّهاية، يعيدهُ إلى مكانه.

لقد حان دوري الآن لأؤدّي كلّ هذا.

شعرتُ بنظرات الحشد كلّه تحطّ عليّ. وفي الآن نفسه، توقّف عازفُ الأرغن فجأةً عن العزف، كما لو أنّه يحيطُ بأهمّيّة مقصودة مشهد الغجريّ وهو يخدم في هيكل الرّبّ.

عمّ الصّمتُ المطلق في الكنيسة.

تحكّمتُ بارتجافِ ساقيّ. وصعدت أدراج المذبح. كان الكتابُ المقدّسُ المليء بالصّلوات المقدّسة التي جمّعها القدّيسون والرّجال العارفون على مرّ القرون من أجل مجد الرّبّ الأعظم، يرتاح في طبق خشبيّ ثقيل ذي أرجل مائلة بكرات نحاسيّة. وحتّى قبل أن أضع يديّ عليه، كنتُ أعرفُ مُسبقا أنّني لن أملك القوّة الكافية لرفعه وحمله إلى الجهة الأخرى من المذبح. فالكتاب نفسهُ ثقيل جدّا حتّى من دون الطّبق.

ولكن، تأخّر وقتُ الانسحاب. وقفتُ عند منصّة المذبح، ولهبُ الشّموع الفاتر يومضُ في عينيّ. فيجعلُ ارتعاشهُ المُضطربُ جسدَ المسيح المصلوب، المعذّب والمحتضر يبدو نابضا بالحياة أو يكادُ. ولكنّني حين تفحّصتُ وجهه، لم يبدُ لي أنّه يحدّق فيّ. كانت عينا يسوع مثبّتتين في مكان آخر في الأسفل تحت المذبح وتحتنا جميعا.

سمعتُ هسهسة متعجّلة من خلفي. وضعتُ راحتيّ المتعرّقتين تحت الطّبق البارد. تنفّستُ عميقا. وبقصارى جهدي، رفعته. تراجعتُ إلى الخلف في حذر، مُتحسّسا حافّة الدّرج بأصابع قدميّ. فجأة، وفي لحظة وجيزة من الزّمن مثل وخز الإبرة، أصبح ثقل الكتاب ساحقا. ودفعني إلى الخلف. تهاويتُ. ولم أتمكّن من استعادة توازني. تمايل سقفُ الكنيسة أمامي. وتدحرج الكتاب وطبقه أرضا

على الأدراج. انطلقت من حنجرتي صيحةٌ لا إراديّة. وفي اللّحظة ذاتها تقريبا، اصطدم رأسي وكتفاي بالأرض. عندما فتحتُ عينيّ، كانت وجوهٌ حمراءُ غاضبة تطلُّ من فوقي.

اقتلعتني أياد قاسية من الأرضيّة. وسحبتني باتّجاه البوّابة. وانقسم الحشدُ في ذهول. صرخ صوت رجاليّ من الشّرفة: "مصّاص دماء غجريّ". وتلقّفت النّشيدَ أصواتٌ أخرى عديدة. أمسكت الأيادي بجسدي في قوّة طاحنة تمزّق لحمي. في الخارج، أردتُ أن أبكي وأتوسّل الرّحمة. لكن لم يخرج أيّ صوت من حنجرتي. حاولتُ مرّة أخرى. ولم يكن هناك أيّ صوت في داخلي.

لفح الهواءُ الباردُ جسدي المُسخنَ. وجرّني المزارعون مباشرة نحو حفرة روث كبيرة. لقد تمّ حفرها قبل ستين أو ثلاث. وقد كان المرحاضُ الصّغير المنتصب إلى جانبها، بنوافذ صغيرة في شكل صلبان، موضع فخر مميّز للكاهن. إنّه الوحيد في المنطقة كلّها. اعتاد المزارعون على تلبية احتياجات الطّبيعة بشكل مباشر في الحقل. ولم يستخدموه من قبلُ إلاّ عند القدوم إلى الكنيسة. في المقابل، هناك حفرة جديدة تمّ حفرها في الجهة الأخرى من بيت الكهنة لأنّ الحفرة القديمة قد امتلأت تماما. وصارت الرّيح تحملُ في أغلب الأحيان روائح كريهة إلى الكنيسة.

عندما أدركتُ ما سيحدثُ لي، حاولتُ أن أصرخ مجدّدا. ولكن لا صوت غادر حنجرتي. كنتُ في كلّ مرّة أحاولُ فيها أن أقاوم، تحطّ عليّ يدُ مزارع ثقيلة، لتكمّم فمي وأنفي. تصاعدت الرّائحة العفنة من الحفرة. صرنا الآن قريبين جدّا منها. حاولتُ مرّة أخرى أن أتحرّر. لكنّ الرّجال أمسكوني بسرعة، دون أن يتوقّفوا عن التّحدّث عمّا وقع في الكنيسة. لم يكن لديهم أدنى شكّ أنّني مصّاص دماء وأنّ انقطاع القدّاس لا يمكنُ إلاّ أن ينذر بحلول الشّرّ على القرية.

توقّفنا عند حافّة الحفرة، حيثُ يتصاعدُ التّنّنُ من سطحها البنّيّ المجعّد مثل قشرة رهيبة على سطح كوب من حساء الحنطة السّوداء الحارّ. وعلى هذا السّطح احتشد عددٌ لا يُحصى من اليرقات البيضاء الصّغيرة يناهزُ طولها ظفر الإصبع. ومن فوق، تتجمّعُ سحبٌ من الذّباب الذي يطنُّ بشكل رتيب مع أجسام جميلة زرقاء وبنفسجيّة تتلألأ في الشّمس. تتصادمُ. وتسقطُ للحظة باتّجاه الحفرة. ثمّ تحلّقُ في الهواء مجدّدا.

تراجعتُ إلى الخلف. ولكنّ المزارعين رموني يدا وساقا. سبحت الغيومُ الشّاحبةُ في السّماء الزّرقاء أمام عينيّ. لقد قُذف بي تحديدا في مركز القذارة البنّيّة، التي انشطرت تحت جسدي لتبتلعني بعد ذلك.

اختفى ضوءُ النّهار من فوقي. وبدأتُ أختنقُ. تقلّبتُ بشكل غريزيّ في المادّة الكثيفة، وأنا أخبطُ بذراعيّ وساقيّ. لمستُ القاع. ووثبتُ منه إلى الأعلى بأسرع ما يمكنُ. رفعتني موجةٌ إسفنجيّة متصاعدةٌ إلى السّطح. فتحتُ فمي. والتقطتُ دُفعة هواء. جُذبتُ مجدّدا أسفل السّطح. فدفعتُ نفسي مرّة أخرى من القاع. كانت مساحةُ الحفرة إثنتي عشرة قدما مربّعا فحسبُ. ومرّة أخرى، اندفعتُ من الأسفل ولكن باتّجاه الحافّة هذه المرّة. في اللّحظة الأخيرة وقبل أن أنسحب إلى العمق، أمسكتُ بالحشائش الكثيفة الطّويلة التي تنمو حول حافّة الحفرة. قاومتُ امتصاص البالوعة العنيدة لي. وسحبتُ نفسي إلى الضّفّة، وأنا أرى بصعوبة من خلال عينيّ اللّتين يحجبهما الوحلُ.

سحبتُ نفسي خارج المستنقع. وتملكّتني على الفور تشنّجات القيء، التي خضّتني لفترة طويلة إلى أن نفدت قواي. وانزلقتُ منهكا تماما على الشّجيرات الشّائكة، والسّرخس واللّبلاب اللاّسعين الحارقين.

سمعتُ صوت الأرغن قادما من بعيد ممتزجا بالغناء البشريّ. وفكّرتُ أنّ النّاس سيخرجون بعد القدّاس من الكنيسة. وسيدفعونني مجدّدا إلى الحفرة إذا رأوني حيّا على الشّجيرات. كان عليّ أن أهرب. ولذلك اندفعتُ مسرعا إلى الغابة. لقد خبزت الشّمسُ القشرة البنّيّة التي تغلّفني. وحاصرتني غيومٌ من الذّباب الكبير والحشرات.

ما أن وجدتُ نفسي تحت ظلال الأشجار حتّى شرعتُ أتمرّغُ في الطّحالب الرّطبة. وأخذتُ أتمسّحُ بالأوراق الباردة. وبواسطة قطع من اللّحاء، كشطتُ بقيّة الوحل والقذارة عنّي. فركتُ الرّمل في شعري. وتدحرجتُ على العشب. ثمّ تقيّأتُ مرّة أخرى.

فجأة، اكتشفتُ أنّ شيئا مّا قد حدث لصوتي. حاولتُ أن أصرخ. لكنّ لساني خفق بلا جدوى في فمي المفتوح. لم يكن لديّ أيّ صوت. كنتُ مذعورا تماما، ومكسوّا بالعرق البارد. رفضتُ أن أصدّق ما يحدث. وحاولتُ أن أقنع نفسي أنّ صوتي سيعودُ لاحقا. انتظرتُ للحظات. ثمّ صرختُ مجدّدا. لم يحدث أيّ شيء. ولم يكسر صمتَ الغابة إلاّ طنينُ الذّباب من حولي.

جلستُ على الأرض. مازالت آخر صيحة أطلقتُها تحت كتاب الصّلوات، أثناء سقوطه، تتردّدُ في أذنيّ. هل كانت تلك آخر صرخة بالنّسبة إليّ؟ هل فرّ صوتي معها مثل نداء بطّة وحيدة ضلّت طريقها فوق بركة هائلة؟ وأين هو الآن إذن؟ كان بإمكاني أن أرى صوتي وهو يطيرُ

وحيدا تحت سقف الكنيسة المقوّس العالي ذي الضّلوع المقبّبة. رأيتهُ وهو يطرقُ الجدران الباردة والصّور المقدّسة وألواح الزّجاج الملوّن العريضة في النّوافذ التي تخترقُها أشعّة الشّمس بصعوبة. تتبّعتُ تسكّعه العبثيّ بين الممرّات المظلمة، حيثُ يطفو من المذبح إلى المنبر، ومن المنبر إلى الشّرفة ومنها إلى المذبح مجدّدا، يقودُهُ صوتُ الأرغن ذي الحبال الكثيرة وغناءُ الحشد الجيّاش.

كلّ البكم الذين رأيتهم في حياتي قد مرّوا في تلك اللّحظة من تحت جفنيّ. لم يكن عددهم كبيرا. وقد جعلهم فقدانهم للكلام يبدون متشابهين. يُحاولُ ارتعاشُ وجوههم العبثيّ أن يحلّ محلّ أصواتهم المفقودة، بينما تتّخذُ حركةُ أطرافهم المسعورة مكان كلماتهم التي لا تأتي. ينظر إليهم النّاس الآخرون بارتياب دائما. ويظهرون مثل مخلوقات غريبة، وهم يهتزُّون ويُقطّبُون ويسيلُ لعابهم على ذقونهم.

لا بدّ أنّ هناك سببا مّا لفقداني الكلام. قوّةٌ عظيمة لم أتوصّل بعدُ إلى التّواصل معها قد حكمت عليّ بهذا القدر. وبدأتُ أشكُّ أنّها الرّبُّ أو أحد قدّيسيه. ولكن، مع ذلك الحساب المُؤمّن بعدد هائل من الصّلوات، لا بدّ أنّ أيّام الرّحمة عندي لا تُحصى. ولهذا ما من سبب يجعلُ الرّبّ يلحقُ بي عقوبة فظيعة كهذه. ربّما أثرتُ على الأرجح سخط بعض القوى الأخرى، التي نشرت مخالبها على أولئك الذين هجرهم الرّبُّ لسبب أو لآخر.

مشيتُ أبعدَ فأبعد عن الكنيسة. وغصتُ في أعماق الغابة الكثيفة. تبزغُ في الأرض السّوداء التي لا تدركها الشّمسُ مطلقا جذوعُ أشجار قد قُطعت منذ زمن بعيد. أصبحت هذه الجذوع الآن أشخاصا

مقعدين غير قادرين على ارتداء أجسادهم القزمة المشوّهة. كانت تقفُ مفردةً ووحيدة. محنيّةً جاثمةً، تنقصُها القوّة الكافيةُ لترتفع باتّجاه النّور والهواء. وما من قوّة يمكنها أن تغيّر وضعها هذا. لن يرتفع نُسغها أبدا ليصل إلى أطراف الأوراق. تُشبهُ الحفر الكبيرةُ أسفل سيقانها عيونا ميّتة تُحدّقُ إلى الأبد ببآبئ شفّافة للقمم المتموّجة لأخواتها الحيّة. لن تمزّقها الرّيحُ أبدا. ولن تلقيها بعيدا. لكنّها ستتعفّنُ ببطء، مهزومةً أمام رطوبة تربة الغابة وتحلّلها.

12

عندما قبض عليّ صبية الغابة الذين كانوا متمدّدين في انتظاري، توقّعتُ أن يحدث لي أمر فظيع. وعوضا عن ذلك، حُملتُ إلى زعيم القرية، الذي تثبّت إن كانت هناك أيّ تقرّحات على جسدي وإن كان بإمكاني أن أرسم علامة الصّليب أم لا. وبعد عدّة مُحاولات فاشلة ليضعني مع مزارعين آخرين، سلّمني إلى فلاّح يُدعى مكار.

يعيشُ مكار مع ابنه وابنته في مزرعة منفصلة عن بقيّة المنازل. ويبدو أنّ زوجتهُ قد توفّيت منذ زمن بعيد. وهو نفسهُ لم يكن معروفا بشكل جيّد في القرية. قدم إليها قبل سنوات قليلة فحسبُ. وتمّ التّعامل معه بصفته أجنبيّا. ولكنّ الإشاعات تقول إنّه يتجنّبُ النّاس لأنّه ارتكب الخطيئة مع الفتى الذي يدّعي أنّه ابنه ومع الفتاة التي يزعم أنّها ابنتهُ. لقد كان مكار قصيرا وبدينا، وذا رقبة عريضة. وهو يشكّ أنّني أدّعي الخَرَس فحسبُ، كي لا أخون لهجتي الغجريّة. يندفعُ أحيانا في اللّيل إلى العلّيّة الصّغيرة التي أنامُ فيها. فيحاول أن يستنطق منّي صرخة خوف. وأستيقظُ مرتجفا، فاتحا فمي مثل كتكوت صغير يُريدُ أن يُطعَم. ولكن لا صوت يخرجُ منّي. فيتفرّجُ فيّ في انتباه. وتبدو عليه خيبةُ الظّنّ. وبعد أن كرّر المحاولة من حين إلى آخر، استسلم في النّهاية.

كان ابنهُ آنتون في العشرين من عمره، أحمر الشّعر ذا عينين شاحبتين وبلا رموش. ولطالما تجنّبه أهل القرية تماما مثل أبيه. وعندما يُكلّمهُ شخصٌ مّا، يُحدّق هو دون مبالاة إلى محدّثه. ثمّ يُشيحُ بهدوء وجههُ عنه. يلقّبه الجميعُ بالسّمّان، لأنّه تعوّد مثل ذلك الطّائر أن يتحدّث مع نفسه فقط وألاّ يجيب الأصوات الأخرى.

أمّا ابنتهُ إوْكا، فقد كانت أصغر بسنة واحدة من السّمّان، طويلةً، شقراء ونحيلة بنهدين يشبهان حبّتي كمثرى لم تنضجا بعدُ، ووركين يسمحان لها أن تنسلّ بيسر من بين عصيّ السّياج. لم تزر إوْكا القرية من قبلُ أبدا. وعندما يذهبُ مكار مع السّمّان لبيع الأرانب وجلودها في القرى المجاورة، تمكثُ هي وحيدة في المنزل. وكانت تزورها من حين إلى آخر آنولكا، متعهّدةُ التّطبّب في القرية.

لا يحبُّ أهلُ القرية إوْكا. يقولون إنّ لها حولا في عينيها. وكانوا يضحكون لتضخّم الغدّة الدّرقيّة الذي بدأ يشوّهُ عنقها، ولصوتها الأجشّ. يقولون كذلك إنّ البقرات تفقدُ حليبها بحضورها. ولهذا السّبب يحتفظُ مكار فقط بالأرانب والماعز.

لطالما سمعتُ المزارعين، وهم يتمتمون ملوّحين بطرد عائلة مكار الغريبة من القرية وحرقِ منزلها. ولكنّ مكار لم يكن يصغي لهذه التّهديدات. فهو يحملُ دائما سكّينا طويلة تحت كمّ قميصه. وبإمكانه أن يرميها بدقّة مثاليّة، حتّى أنّه سمّر مرّة صرصورا في الحائط على بعد خمس خطوات. كما أنّ السّمّان يحملُ في جيبه قنبلة يدويّة، كان قد عثر عليها عند عضو كتيبة ميّت. ودائما ما يهدّد بها أيّ شخص أو عائلة تُضايقهُ أو تضايق أباه وأخته.

يحتفظ مكار في الفناء الخلفيّ بكلب ذئبيّ يُسمّيه ديتكو. توجدُ هناك أقفاصُ الأرانب مرتّبة في صفوف داخل المباني الخارجيّة المُحيطة بالفناء. ولا يفصلُ شيء بين هذه الأقفاص سوى شبكة من الأسلاك. كانت الأرانب تتشمّم بأنوفها وتتواصل فيما بينها، بينما يتمكّنُ مكار من مراقبتها كلّها بنظرة واحدة.

لقد كان خبير أرانب. يملكُ في أقفاصه العديد من الأنواع الرّائعة والباهضة حتّى بالنّسبة إلى المزارعين الأكثر ثراء. لهُ في المزرعة أربعُ عنزات وجدْي، يعتني بها السّمّانُ ويقدّم لها الحليب ويصطحبها إلى المراعي. كما أنّه يحبسُ نفسهُ معها أحيانا في الإسطبل. عندما يعودُ مكار إلى المنزل بعد صفقة بيع ناجحة، يسكر هو وابنهُ معا. ويذهبان سويّا إلى مكان الماعز. اعتادت إوْكا أن تلمّح حينئذ إلى أنّهما يستمتعان بوقتهما هناك. وفي هذه الحالة، يُقيّدُ ديتكو قرب الباب ليمنع أيّ شخص من الاقتراب.

لم تكن إوْكا تحبّ شقيقها وأباها. وفي بعض الأحيان، تمتنعُ عن مغادرة المنزل لأيّام خشية أن يجبرها مكار والسّمّان على أن تقضي المساء كلّه معهما في إسطبل الماعز.

كانت تفضّل أن أكون موجودا بالجوار حين تنهمكُ في الطّبخ. أساعدُها في تقشير الخضروات. أجلبُ الحطب. وأحملُ الرّماد إلى الخارج.

أحيانا تطلب منّي أن أجلس قرب ساقيها، فأقبّلهما. اعتدتُ أن أتشبّث بربلتي ساقيها النّحيلتين. وأشرع في تقبيلهما ببطء شديد من الكاحلين، بلمسة طفيفة من الشّفتين في البداية ومن ثمَّ بنقرات

طفيفة من يدي على امتداد العضلات المشدودة، مُقبّلا التّجويف النّاعم تحت ركبتها ووصولا إلى الفخذين الأبيضين النّاعمين. وشيئا فشيئا أرفع تنّورتها. كانت تحثّني بنقرات خفيفة على ظهري. وتستعجلُ صعودي إلى أعلى، حيثُ أقبّل بما يُشبه العضّ لحمها النّاعم. وحين أصلُ إلى التّلّة الدّافئة، يبدأ جسدُ إوْكا في الارتعاش بشكل متقطّع. تمرّرُ أصابعها بقوّة خلل شعري. تمسّح على رقبتي. وتقرصُ أذنيّ، وهي تلهثُ بشكل متسارع. ثمّ تضغطُ وجهي بقوّة إزاءها. وبعد لحظات من الغيبوبة، تتهاوى على المقعد، مستنفدة القوى.

أحببتُ أيضا ما تلا ذلك. جلست إوْكا على المقعد، مُمسكةً بي بين ساقيها المفتوحتين، وهي تحضنني وتُداعبني وتقبّلني على عنقي ووجهي. سقط شعرها الجافُّ الشّبيهُ بالخلنج على وجهي، بينما أحدّق في عينيها الشّاحبتين وألمحُ حمرةً قرمزيّة تنتشرُ من وجهها إلى رقبتها وكتفيها. انتعشت يداي وفمي مرّة أخرى. وأخذت إوْكا ترتعشُ وتتنفّسُ بقوّة حتّى صار فمُها باردا، وسحبتني يداها المرتعشتان إلى جسدها.

عندما نسمع الرّجلين قادمين، تندفعُ إوْكا بسرعة إلى المطبخ لتعدّل شعرها وتنّورتها، بينما أفرّ أنا إلى أقفاص الأرانب لأقدّم لها وجبة المساء.

عندما يذهبُ مكار وابنهُ إلى النّوم في وقت لاحق، تُحضرُ لي طعامي. ألتهمهُ بسرعة، بينما تتمدّدُ هي عارية إلى جانبي، وهي تضربُ ساقيّ نافدة الصّبر. وتقبّل شعري. وتنزع ملابسي متعجّلة. نتمدّدُ معا. فتضغطُ إوْكا جسدها بقوّة إزاء جسدي. وتسألني أن أقبّلها وأمصّها هنا وهناك. كنتُ أستجيبُ لكلّ رغباتها. وأقوم بكلّ الأشياء على اختلافها حتّى لو كانت مؤلمة أو بلا معنى. أصبحت حركاتُها تشنّجات. وظلّت تنتفضُ من تحتي. ثمّ صعدت إلى أعلى. وجعلتني أجلسُ فوقها. أمسكتني بقوّة. وغرزت

أظافرها في ظهري وكتفيّ. كنّا نقضّي أكثر اللّيالي بهذه الطّريقة. نغفو من حين إلى آخر. ثمّ نستيقظُ لنستسلم لمشاعرها العارمة. بدا جسدها كلّهُ معذّبا بانفجارات وتوتّرات جُوّانيّة سرّيّة. يتزايدُ انشدادهُ مثل جلد أرنب مُمطّط على لوح كي يجفّ. ثمّ يرتخي من جديد.

أحيانا تأتي إليّ وأنا في أكواخ الأرانب أثناء النّهار، عندما يكون السّمّان وحيدا مع الماعز ومكار لم يعد بعدُ إلى المنزل. نقفزُ من فوق السّياج. ونختفي بين سنابل القمح العالية. تقودني إوْكا في الطّريق. وتختارُ مكانا آمنا للاختباء. نتمدّدُ معا على الأرضيّة المكسوّة بالقشّ، حيثُ تحثّني أن أنزع ملابسي بسرعة، وهي تسحبها متلهّفة. أغرقُ فيها. وأحاولُ أن أشبع كلّ نزواتها، بينما تتمايلُ سنابلُ القمح الثّقيلة من حولنا مثل تموّجات بركة ساكنة. وقد تنامُ هي أحيانا لفترة من الزّمن. أتفحّصُ جيّدا نهر السّنابل الذّهبيّة هذا، مُلاحظا الذّباب الأزرق وهو يحومُ بتثاقل تحت أشعّة الشّمس. وفي الأعلى، تعدُ عصافيرُ السّنونو بطقس جميل، من خلال التفافاتها الدّقيقة. تطوف الفراشاتُ ملاحقة بعضها البعض دون هاجس. ويتسمّرُ صقرٌ عاليا في السّماء، كأنّهُ تحذير أبديّ، مُنتظرا بعض الحمامات المطمئنّة.

شعرتُ بالأمان والسّعادة. تحرّكت إوْكا أثناء قيلولتها. وبحثت يدُها عنّي بشكل غريزيّ. فثنتْ سيقان القمح في طريقها إليّ. زحفتُ إليها. وتحسّستُ طريقي بين ساقيها. ثمّ قبلتُها.

حاولتْ إوْكا أن تُصيّرني رجلا. تزورني في اللّيل. وتدغدغُ أعضائي، وهي تدفعُ بشكل مؤلم قشّة رقيقة. وتضغطُ. ثمّ تلعقُ. فوجئتُ لكوني أدركُ شيئا جديدا لم أكن أعرفهُ من قبلُ. هناك أشياءُ ليس باستطاعتي التّحكّم فيها بدأت تحدث معي. وهي ماتزالُ

متقطّعة وغير متوقّعة، سريعة أحيانا وبطيئة أحيانا أخرى. ولكنّني عرفتُ أنّني لن أستطيع حبس هذا الشّعور بعد الآن.

عندما تغرقُ إوْكا في النّوم وهي تمتمُ في أحلامها، أستعيدُ كلّ تلك الأشياء وأتأمّلها، مُصغيا لأصوات الأرانب من حولنا.

ليس هناك شيء واحدٌ أمتنعُ عن القيام به من أجل إوْكا. نسيتُ قدري في أن أكون غجريّا أبكم مصيره النّار. توقّفتُ عن كوني عفريتا يسخرُ منه الرّعاة، فيما يلقي تعاويذه على الأطفال والحيوانات. تحوّلتُ في أحلامي إلى رجل طويل، وسيم، ذي بشرة فاتحة وعينين زرقاوين وشعر مثل أوراق الخريف الفاترة. أصبحتُ ضابطا ألمانيّا يرتدي زيّا أسود ضيّقا أو صائد طيور عليما بجميع المسالك السّرّيّة للغابات والمستنقعات.

في هذه الأحلام، أحدثت يداي الماهرتان أحاسيس وحشيّة في بنات القرية، وقد حوّلتاهنّ إلى لينا الشّبقة التي تطاردني عبر الفسحات المزهرة، مُتمدّدة معي على فُرُش من الزّعتر البرّيّ بين حقول من القضبان الذّهبيّة.

أتشبّثُ بإوْكا في أحلامي هذه، مُمسكا إيّاها مثل عنكبوت ومشبّكا سيقانا كثيرة حولها بقدر سيقان الحريشة. كبرتُ في جسدها مثل غُصين صغير يلقّمهُ بستانيٌّ ماهرٌ في شجرة تفّاح واسعةِ الأغصان.

كان هناك حلمٌ آخر يتكرّرُ باستمرار. فيجلبُ معهُ رؤية أخرى مختلفة تماما. تنجحُ على الفور محاولةُ إوْكا في أن تجعلني رجلا بالغا. ينمو عضوٌ من جسدي بشكل سريع حتّى يُصبح قضيبا هائلا ذا حجم لا يُصدّقُ، بينما تظلّ بقيّة الأعضاء على حالها. أصبحتُ غريب الخلقة، بشعا وسجينا في قفص بينما النّاس يتفرّجون فيّ عبر القضبان، ضاحكين بحماس كبير. ثمّ تجيءُ إوكا عارية وسط الحشد. فتنضمُّ إليّ في عناق رهيب. صرتُ

شيئا فظيعا ناميا على جسدها. وكانت السّاحرةُ آنولكا تترصّدُني في الجوار، مُختبئة وهي تحملُ سكّينا كبيرة وتتأهّبُ لتفصلني بواسطتها عن الفتاة وتقطّعني ومن ثمّ تلقي بي إلى النّمل.

أنهت أصواتُ الفجر كوابيسي. زعقت الدّجاجاتُ. وصاحت الدّيكةُ. وداست الأرانبُ بأقدامها جائعة، بينما شرع ديتكو المنزعجُ من كلّ هذا في الهدير والنّباح. سارعت إوْكا عائدة إلى البيت، فيما تنازلتُ للأرانب عن العشب الذي أدفأهُ جسدانا.

يتفقّدُ مكار الأقفاص عدّة مرّات في اليوم. يعرفُ كلّ أرنب بالاسم. ولا شيء يتجاوزُ انتباهه. كان يملكُ أيضا بعض الإناث المفضّلة لديه، والتي يهتمُّ برعايتها قبل نفسه. ولا يغادرُ أقفاصها عندما تكون لديها فضلات. هناك واحدةٌ من الإناث يحبّها مكار بشكل خاصّ، بيضاء عملاقة بعينين ورديّتين. ولم تنجب بعد. اعتاد أن يصطحبها معه إلى المنزل. ويحتفظ بها هناك لعدّة أيّام، تبدو بعد انقضائها مريضة. وبعد عدد من الزّيارات، أخذت الأرنبُ البيضاءُ الكبيرة تنزفُ من تحت ذيلها. رفضت أن تأكل. وبدا عليها المرضُ.

ذات يوم، ناداني مكار. أشار إليها. وأمرني أن أقتلها. ولم أصدّق أنّه يعني ذلك حقّا. فقد كانت الأنثى البيضاءُ قيّمةً جدّا، لأنّ جلود هذا النّوع نادرة. وهي بالإضافة إلى ذلك كبيرة الحجم. ولا شكّ أنّها ستكون خصبة ولودةً. كرّر مكار أمرهُ لي دون أن ينظر إليّ أو إلى الأرنب. لم أعرف ما الذي ينبغي عليّ فعلهُ. لطالما قتل مكار الأرانب بنفسه، خشية ألاّ أكون قويّا بما يكفي لإهلاكها بسرعة ودون ألم. كانت مهمّتي أن أسلخها وأتبّلها فحسب. ثمّ تعدّها إوْكا بعد ذلك

أطباقا لذيذة. وإذ لاحظ مكار تردّدي، صفعني على وجهي. وأمرني مجدّدا أن أقتل الأرنب.

لقد كانت ثقيلة. وسحبتُها بصعوبة إلى الفناء. ظلّت تكافحُ وتزعقُ، حتّى لا أتمكّن من رفعها عاليا بما يكفي من رجليها الخلفيّتين ومن ثمّ أسدّد لها ضربة قاتلة خلف الأذنين. لم يكن لديّ أيّ خيار سوى قتلها دون رفعها. انتظرتُ اللّحظة المواتية. ثمّ ضربت الحيوان بكلّ قوّتي. فسقط على الأرض. ولأتأكّد تماما، ضربتُها مجدّدا. وعندما اعتقدتُ أنّها قد هلكت، علّقتُها في مكان مخصوص. شحذتُ سكّيني على حجر. وشرعتُ في سلخها.

في البداية، نحّيتُ الجلد عن السّاقين، فاصلا النّسيج بعناية عن العضلات ومتجنّبا إحداث أيّ ضرر فيه. بعد كلّ ضربة من السّكّين، أسحبُ الجلد إلى الأسفل، إلى أن وصلتُ إلى الرّقبة. كانت تلك البقعة عسيرة، لأنّ الضّربة خلف الأذنين قد تسبّبت في نزيف كبير ممّا جعل تمييز الجلد من العضلة أمرا صعبا. وبما أنّ أيّ ضرر لأرنب ثمين يمكنهُ أن يشعل غضب مكار، فإنّني لم أجرؤ على تخيّل ما سيحدثُ إذا شققتُ هذا الجلد.

أخذتُ أسلخُهُ بمزيد من العناية والانتباه، ساحبا إيّاهُ ببطء في اتّجاه الرّأس. وفجأةً، اخترقت هزّةٌ مفاجئة الجسمَ المعلّق. اكتسحني العرقُ الباردُ. وانتظرتُ لوهلة. لكنّ الجثّة ظلّت ساكنة. فشعرتُ بالاطمئنان. وحسبتُ الأمر توهّما منّي. ثمّ استأنفتُ مهمّتي. ولكن انتفض الجسمُ مجدّدا. لا بدّ أنّ الأرنب قد صُعق فحسبُ.

عدوتُ لألتقط الهراوة. فأقتلها. لكنّ صراخا فظيعا أوقفني. لقد كان الجسمُ مسلوخُ الجلد جزئيّا يختضُّ ويتلوّى في مكانه، حيثُ علّقتهُ. شعرتُ بالارتباك. ولم أعرف ما الذي يجدر بي فعلهُ. فأطلقتُ الأرنب المكافحة للهروب. سقطتْ على الأرض. وأخذت تركضُ على الفور، مرّةً إلى الأمام ومرّةً أخرى إلى الوراء. تدحرجت بجلدها المتدلّي من خلفها على الأرض، وهي تطلق زعيقا لا ينتهي. التصقت نُشارة الخشب وأوراق الأشجار والوسخُ والرّوثُ باللّحم العاري والمكسوّ دماء. كانت تتلوّى بعنف يتزايدُ أكثر فأكثر. وقد فقدت تماما إحساسها بالاتّجاهات، إذ أعماها خفقانُ الجلد السّاقط فوق عينيها. وهي تلتقطُ التّويجات والحشائش معها مثل جورب سُحب إلى النّصف.

أحدثت صرخاتها الثّاقبةُ جلبة عظيمة في الفناء. جُنّت الأرانبُ المذعورة في أقفاصها. وسحقت الإناثُ المفزوعةُ صغارها. أمّا الذّكور فقد تقاتلت فيما بينها، وهي تزعق وتضرب بأردافها على الحيطان. كان ديتكو يقفزُ ويشدّ سلسلته في توتّر. أمّا الدّجاجاتُ فقد رفرفت بأجنحتها، في محاولة يائسة للطّيران بعيدا. لكنّها انهارت مُستسلمةً ومُهانة وسط الطّماطم والبصل.

مازالت الأرنبُ التي أصبحت الآن حمراء تماما تركضُ باستمرار. اندفعت فوق العشب. وعادت إلى الأقفاص. حاولت أن تشقّ طريقها عبر بقعة الفاصوليا. وفي كلّ مرّة ينشدُّ فيها جلدها المسلوخُ والمتدلّي إلى عقبة مّا، تتوقّفُ مُحدثة صراخا مروّعا، والدّمُ يتفجّرُ منها.

خرج مكار في النّهاية مُسرعا من المنزل، حاملا فأسا في يده. ركض خلف المخلوق الدّامي. وشطره بضربة واحدة نصفين اثنين. ثمّ ضرب كومة الدّم مرّات عديدة. كان وجههُ أصفر شاحبا، وهو يطلقُ لعنات فظيعة.

وحين لم يبق من الأرنب إلاّ نواة من الدّم، لاحظني مكار. واندفع باتّجاهي، وهو يرتعشُ غضبا. لم يكن هناك متّسع من الوقت لأراوغه. وقد حطّت على معدتي ركلةٌ قويّة أسقطتني منقطع الأنفاس على السّياج. بدا لي أنّ العالم يُدوّمُ أمام عينيّ. لقد عميتُ كأنّ جلدي نفسه يسقطُ من فوق رأسي حجابا أسود.

جعلتني الرّكلةُ مُقعدا لعدّة أسابيع. أتمدّدُ في قفص أرانب قديم. ومرّة في اليوم يحضر لي السّمّانُ أو إوْكا شيئا من الطّعام. أحيانا تأتي إوْكا بمفردها. لكنّها تغادر دون أن تنطق بكلمة حين ترى حالتي.

ذات يوم، أحضرت لي آنولكا التي سمعت بإصابتي خُلدا حيّا. مزّقتهُ أشلاء أمام عينيّ. ووضعته على عضلات بطني، إلى أن برُد جسمُ الحيوان من فوقي. وعندما أنهت عملها، كانت متيقّنة من أنّ علاجها سيجعلني قريبا في حالة حسنة.

اشتقتُ إلى حضور إوْكا، صوتها، لمستها وابتسامتها. وحاولتُ أن أتعافى بسرعة. ولكنّ القوّة وحدها لم تكن كافية. كلّما حاولتُ أن أقف، شلّني تشنّجُ ألم في بطني لعدّة دقائق. كان الزّحفُ إلى خارج القفص لأتبوّل احتضارا حقيقيّا. وفي أغلب الأحيان، كنتُ أستسلمُ وأفعلها حيثُ أنامُ.

في النّهاية، أطلّ مكار نفسهُ. وقال لي إذا لم أعد إلى العمل في غضون يومين، فإنّه سيسلّمني إلى المزارعين. وقد كانوا على وشك تسليم حصص المؤونة في محطّة القطار. وسيسعدهم أن يقدّموني إلى الشّرطة العسكريّة الألمانيّة.

بدأتُ التّدرّب على المشي. لم تكن ساقاي تطيعانني. وينالُ منّي التّعبُ سريعا.

سمعتُ في إحدى اللّيالي ضوضاء في الخارج. فاسترقتُ النّظر من بين الألواح الخشبيّة. كان السّمّانُ يقودُ الجدي إلى غرفة أبيه، حيثُ يشتعل مصباحٌ زيتيّ بشكل خافت.

نادرا ما يُؤخذُ الجديُ إلى الخارج. كان حيوانا ضخما كريه الرّائحة، عنيفا ولا يهابُ أحدا. وحتّى ديتكو كان يفضّل ألاّ يحتكّ به. يُهاجمُ الجديُ الدّجاجات والدّيكة الرّوميّة. وينطحُ رأسهُ إزاء الأسوار وجذوع الأشجار. لقد لاحقني ذات مرّة. لكنّني اختبأتُ في أقفاص الأرانب إلى أن جاء السّمّانُ واقتاده بعيدا.

أصابني الفضول إزاء هذه الزّيارة غير المتوقّعة لغرفة مكار. فتسلّقتُ وصولا إلى السّقف، حيثُ يمكنني أن أرى داخل الكوخ. جاءت إوْكا بُعيد ذلك ملفوفة في إزار. اقترب مكار من الذّكر. وداعب أسفل بطنه بواسطة أغصان البتولا حتّى استُثير الحيوان بما فيه الكفاية. ثمّ أجبرهُ بضربات خفيفة من عصاه على الوقوف، مُسندا قائمتيه الأماميّتين إلى رفّ. ألقت إوْكا إزارها. وانزلقت عارية، إزاء دهشتي العظيمة، تحت الجدي، مُتشبّثة به كما لو كان رجلا. كان مكار من حين إلى آخر يدفعها جانبا. ويزيدُ في إثارة الحيوان. ثمّ يسمحُ لإوْكا أن تُضاجع الجدي بحماس، وهي تتلوّى وتهتزُّ. ثمّ تعانقهُ.

انهار شيء مّا في داخلي. وتداعت أفكاري. وتحطّمت شذراتٍ وشظايا مثل إبريق مهشّم. شعرتُ بالفراغ، كما لو أنّني مثانةُ سمكة ثُقبت مرّات ومرّات. فغرقت في المياه الموحلة العميقة.

فجأة، أصبحت كلّ هذه الأحداث واضحة جليّة. فهي تشرحُ العبارة التي لطالما سمعتُ النّاس يستخدمونها فيما يخصّ أولئك النّاجحين جدّا في الحياة: "إنّهم يعقدُون تحالفا مع الشّيطان".

يتّهمُ المزارعون كذلك بَعضهم البعض بقبول المساعدة من شياطين كثيرة مثل لوسيفر، كادافير، مامون، المُهلك وآخرين كثيرين. لو كانت قوى الشّرّ متاحة بسهولة للمزارعين، لاختبؤوا على الأرجح قرب أيّ شخص، مستعدّين للوثوب على أيّ علامة تشجيع أو ضعف.

حاولتُ أن أتخيّل الطّريقة التي تعمل بها الأرواحُ الشّرّيرةُ. تنفتحُ عقولُ النّاس وأرواحهم أمام هذه القوى مثل حقل محروث. وفي هذا الحقل، ينثر الأشرارُ بلا انقطاع بذورهم الخبيثة. وفي حال نمت بذورهم بالحياة وشعروا بالتّرحاب، فإنّهم يهبون كلّ أشكال المساعدة التي قد يُحتاجُ إليها، شرط أن تُستخدم لأغراض أنانيّة وعلى حساب الآخرين. ومنذ اللّحظة التي يوقّع فيها المرءُ ميثاقا مع الشّيطان، بإمكانه أن يتوقّع المزيد من المساعدة كلّما زاد الأذى والبؤسُ والألمُ والمرارةُ التي يُلحقها بالمحيطين به. أمّا إذا تراجع عن إحداث الأذى بالآخرين واستسلم لمشاعر الحبّ والصّداقة والتّعاطف، فإنّه يصيرُ أضعف على الفور. بل ستتشرّبُ حياتهُ العذاب والمعاناة التي جنّبها الآخرين.

لا تُراقبُ هذه المخلوقاتُ التي تسكنُ الرّوح البشريّة كلَّ أفعال المرء بدقّة فحسبُ، وإنّما أيضا دوافعهُ وعواطفه. المهمّ هو أن يروّج الشّخصُ عن وعي للشّرّ، وأن يجد المتعة في إيذاء الآخرين ورعاية القوى الشّيطانيّة

واستخدامها، تلك التي تؤمّنها له الأرواحُ الشّرّيرة بشكل مدروس لتحقيق أكبر قدر ممكن من البؤس والمعاناة من حوله.

ووحدهم أولئك الذين يملكون من الشّغف الكبير بالكراهية والجشع والانتقام والتّعذيب لغايات معيّنة ما فيه الكفايةُ، ينجحون في الحصول على صفقة جيّدة مع قوى الشّرّ. أمّا أولئك المتحيّرون، المتردّدون في بلوغ هدفهم والتّائهون بين اللّعنات والصّلوات وبين الحانة والكنيسة، يكافحون طريق حياتهم وحيدين، دون مساعدة من الرّبّ أو الشّيطان.

حتّى هذه اللّحظة، كنتُ واحدا من هؤلاء. شعرتُ بالانزعاج من نفسي، لأنّني لم أفهم عاجلا القوانين الحقيقيّة لهذا العالم. فالأشرار قد اختاروا دون شكّ أولئك الذين عرضوا سلفا دفعة كافية من الكراهية الجوّانيّة والخبث.

إنّ الرّجل الذي باع نفسهُ للأشرار يمكثُ خاضعا لسلطتهم طيلة حياته. ومن حين إلى آخر، ينبغي عليه أن يعرض عددا متزايدا من السّيئات. لكنّها لا تُقيّم بالتّساوي من قبل رؤسائه. فالعمل الذي يؤذي شخصا واحدا تقلّ قيمته دون شكّ عن عمل آخر يصيب الكثير من النّاس. كما أنّ نتائج الأفعال الشّرّيرة مهمّة أيضا. من المؤكّد أنّ تدمير حياة شابّ يافع هو أكثر قيمة من فعل الشّيء نفسه مع رجل عجوز لم يتبقّ له الكثير ليعيشه على أيّة حال. بالإضافة إلى ذلك، إذا كان السّوءُ الموجّهُ إلى شخص مّا ينجحُ في تغيير طباعه بطريقة تجعلهُ يتّخذُ الشّرّ نمطَ حياة، فستكونُ هناك مكافأة مميّزة ومُستحقّة. وبهذا الشّكل يكونُ ضرب رجل بريء أقلّ قدرا من دفعه إلى كراهية

الآخرين. ولا بدّ أنّ كراهية مجموعات كبيرة من النّاس هو الأكثر قيمة على الإطلاق. أكادُ أتخيّلُ بصعوبة الجائزة التي يتحصّلُ عليها الشّخصُ الذي توصّل إلى أن يغرس في النّاس الشُّقر ذوي العيون الزّرقاءِ الكراهيةَ المؤبّدة لأولئك ذوي البشرة القاتمة.

بدأتُ أفهمُ أيضا سرّ نجاح الألمان الخارق للعادة. ألم يقل الكاهنُ مرّة لبعض المزارعين إنّ الألمان كانوا يستمتعون بشنّ الحروب، حتّى في الأزمنة القديمة؟ لم يسترْعِ السّلامُ اهتمامهم أبدا. لم يرغبوا في حرث الأرض. ولم يكن لهم صبر لانتظار الحصاد سنة كاملة. بل كانوا يفضّلون الهجوم على القبائل الأخرى وافتكاك المحاصيل منها. ويبدو أنّ الألمان قد لفتوا حينئذ انتباه الأرواح الشّريرة. وبما أنّهم متحمّسون لتحقيق الأذى للآخرين، فقد وافقوا أن يقدّموا لهم صفقة بيع بالجملة. ولهذا السّبب مُنِحوا كلّ هذه الملكات والمواهب المذهلة. لهذا السّبب أمكنهم أن يفرضوا على الآخرين أساليبهم المدروسة في الشّرّ. كان النّجاحُ حلقةً مُفرغةً. كلّما تسبّبوا بأذى أكبر، أمّنوا قوى سرّيّة من الشّرّير. وكلّما اكتسبوا قوى شيطانيّة جديدة، استطاعوا تحقيق المزيد من الشّرّ.

لا أحد تمكّن من إيقافهم. فقد كانوا لا يُقهرون. وقاموا بأداء مهمّتهم بمهارة عظيمة. كما أنّهم أصابوا الآخرين بعدوى الكراهية. وحكموا بالإبادة على أمم بأكملها. لا بدّ أنّ كلّ ألمانيّ قد باع روحه للشّيطان عند الولادة. وهذا هو مصدر سلطتهم وقوّتهم.

تصبّب العرقُ البارِدُ منّي في القفص المظلم. أنا نفسي كرهتُ الكثير من النّاس. وكم مرّة حلمتُ بالزّمن الذي أكبر فيه، عندما أصير قويّا بما يكفي لأعود إليهم، فأحرق مبانيهم، وأسمّم أبناءهم وماشيتهم،

وأحوّلهم إلى مستنقعات ميّتة؟ وبمعنى مّا، لقد انتُدبتُ سلفا من قبل قوى الشّرّ. ووقّعتُ ميثاقا معهم. ما أحتاجُه الآن هو مساعدتهم لي لنشر الشّرّ. وفي النّهاية، مازلتُ صغيرا جدّا. وهذا ما يمنحُ الأرواح الشّرّيرة سببا لتعتقد أنّ لديّ مُستقبلا لأمنحه لهم، وأنّ كراهيتي وشاهيتي للشّرّ ستكبر في النّهاية مثل عشبة ضارّة تنشرُ بذورها على حقول كثيرة.

شعرتُ بنفسي أقوى وأكثر ثقة. لقد انتهى زمنُ السّلبيّة. الإيمانُ بالخير، قوّة الصّلاة، المذابحُ، الكهنةُ، والرّبُّ، كلّ هذا قد حرمني من كلامي. حبّي لإوْكا ورغبتي في أن أفعل أيّ شيء بإمكاني فعلهُ من أجلها، قد التقيا أيضا بمكافأتهما الخاصّة.

الآن، سأنضمّ إلى أولئك الذين تساعدهم الأرواحُ الشّرّيرةُ. لم أقدم حتّى الآن على أيّ مساهمة حقيقيّة في عملهم. ولكن يمكنني مع مرور الوقت أن أصبح عضوا بارزا مثل أيّ واحد من القادة الألمان. يمكنني أن أتوقّع لنفسي التّميّز والجوائز وكذلك المزيد من القوى التي تتيحُ لي أن أدمّر الآخرين بأكثر الطّرق براعة. وأولئك النّاس الذين كانوا على اتّصال بي سيصيبهم الشّرّ أيضا. يمكنهم أن يواصلوا مهمّة التّدمير. وكلّ نجاح يحقّقونهُ سيكسبني المزيد من السّلطة.

ليس هناك وقت لأضيّعه. عليّ أن أبني لنفسي قدرات للكراهية تدفعني إلى العمل وجلب انتباه الأرواح الشّرّيرة. إن كانت موجودة بالفعل، فهي لن تفوّت فرصة الاستفادة منّي.

لم أعد أشعر بالألم. زحفتُ إلى البيت. وظللتُ أسترقُ النّظر عبر النّافذة. كانت اللّعبة مع الجدي في الغرفة قد انتهت. تقفُ الدّابّة الآن

بهدوء في إحدى الزّوايا، فيما تلعبُ إوْكا مع السّمان. كان كلاهما عاريا، وهما يتبادلان ركوب بعضهما البعض، قافزيْن مثل الضّفادع، مُتدحرجين على الأرضيّة ومُحتضنيْن بعضهما بتلك الطّريقة التي علّمتني إيّاها إوْكا. كان مكار نفسه عاريا، يقفُ جانبا ويشاهدهما من فوق. وعندما بدأت الفتاةُ تركل وتهتزّ وبدا السّمان جامدا مثل عمود سياج، ركع مكار فوقهما قريبا من وجه ابنته. وحجب جسده الضّخم المشهد عن عينيّ.

واصلتُ التّفرّج فيهم للحظات. ثمّ بدأ المشهدُ يتقاطرُ من ذهني الخدر كقطرة ماء متجمّدة تنزلقُ من قطعة ثلج.

قرّرتُ فجأة أن أفعل شيئا مّا. وشرعتُ في المشي خارجا. هدر ديتكو المتعوّدُ بحركاتي قليلا. ثمّ استسلم للنّوم. اتّجهتُ صوب كوخ آنولكا في الطّرف الآخر من القرية. تسلّلتُ إليه باحثا في كلّ مكان عن المذنّب. أجفلت الدّجاجاتُ لوجودي هناك. وأحدثت جلبة في المكان. استرقتُ النّظر عبر البوّابة الصّغيرة.

استيقظت المرأة العجوزُ في تلك اللّحظة. جثوتُ خلف صندوق كبير. وعندما خطت آنولكا في الخارج، أطلقتُ عواء مُرعبا. وضربتها بعصا في ضلوعها. ركضت السّاحرةُ العجوزُ، وهي تسأل النّجدة من الرّبّ والقدّيسين جميعا، وتتعثّر فوق الأعمدة التي تسند نباتات الطّماطم في الحديقة.

انسللتُ إلى الغرفة المزدحمة. وسرعان ما عثرتُ على المذنّب القديم بجوار الموقد. سحبتُ بعض الجمرات المشتعلة إلى المذنّب. وركضتُ إلى الغابة. سمعتُ من خلفي صوت آنولكا الصّاخب ممتزجا بأصوات الكلاب الفزعة والنّاسِ الذين بدؤوا يستجيبون شيئا فشيئا لصراخها.

13

لم يكن الهروب من القرية صعبا جدّا في تلك الفترة من السّنة. كنتُ أراقبُ الفتيان في كثير من الأحيان، وهم يوثقون بأحذيتهم مزالج مصنوعة يدويّا. وينشرون قطعا من القماش على رؤوسهم. ثمّ يستسلمون للرّيح، وهي تدفعهم على سطح الجليد النّاعم الذي يغطّي المستنقعات والمراعي.

تنتشرُ المستنقعات على امتداد أميال كثيرة بين القرى. ترتفعُ المياهُ في الخريف. وتغمرُ القصب والأجمات. وتتكاثرُ الأسماكُ الصّغيرة ومخلوقاتٌ أخرى بسرعة فائقة في الأهوار. يمكنُ للمرء أن يرى في بعض الأحيان ثعبانا، يرفعُ رأسهُ عاليا ويسبحُ بتصميم كبير. لا تتجمّدُ الأهوارُ بسرعة البرك المحلّيّة والبحيرات. يبدو الأمر كما لو أنّ الرّياح والقصب يدافعان عن نفسيهما بتحريك المياه.

ومع ذلك، يسيطرُ الجليدُ في النّهاية على كلّ شيء. وتظلُّ فقط أطرافُ القصب الطّويل وبضعةُ أغصان غريبة ناتئةً هنا وهناك، مكسوّة بغطاء ثلجيّ، تجثمُ فوقه بهشاشة ندفُ الثّلج الصّغيرة.

تأتي الرّياحُ وحشيّة وبلا لجام. تتجاوزُ البنايات البشريّة. وتتزايدُ سرعتها عبر أراضي المستنقعات الخفيضة، وهي تدوّمُ معها سُحبا من الثّلج المسحوق، مُجرجرة معها الأغصان القديمة وسويقات البطاطا

المجفّفة وحانية رؤوس الأشجار الطّويلةِ المشرئبّة والنّاتئة عبر الجليد. عرفتُ أنّ هناك أصنافا مُختلفة من الرّياح تتعاركُ فيما بينها وتتناطحُ وتتصارعُ، كلّ واحدة منها تحاولُ أن تفتكّ المزيد من الأراضي.

كنتُ قد صنعتُ لي من قبل مزلاجا، على أمل أن أتمكّن في يوم مّا من مغادرة القرية. ربطتُ بعض الأسلاك المتينة بقطعتي خشب طويلتين ومقوّستين في طرفيهما. ثمّ قمتُ بربط الأشرطة عبر الزّلاّجات. وأوثقتها بقوّة إلى فردتي الجزمة التي صنعتها هي الأخرى بمفردي. تتكوّنُ هذه الجزمةُ من بواطن خشبيّة مُستطيلة ومِزقٍ من جلد الأرانب مدعومة بالقماش من الخارج.

قمتُ بتثبيت المزلاج إلى جزمتي عند طرف المُستنفعات. علّقتُ المذنّب المُشتعل فوق كتفي. ونشرتُ الشّراع فوق رأسي. فبدأت يدُ الرّيح الشّفّافةُ في دفعي. تزايدت سرعتي مع كلّ هبّة ريح تضربُ بي بعيدا عن القرية. انزلق مزلاجي على الجليد. وأحسستُ بحرارة مذنّبي. أصبحتُ الآن في منتصف سطح جليديّ شاسع. قادتني الرّيحُ المدويّةُ. وتسابقت من حولي خلال رحلتي غيومٌ رماديّة مظلمةٌ ذاتُ حوافّ فاتحة اللّون.

بينما أطيرُ في ذلك السّهل الأبيض اللاّنهائيّ، شعرتُ بنفسي حرّا ووحيدا مثل زرزور يحلّقُ في الهواء، تقذفهُ كلّ هبّة ريح وهو يقتفي التّيّار غير مدرك لسرعته، إذْ يُسحبُ إلى رقصة لا حدود لها. بسطتُ شراعي أكثر من قبل، مُسلما نفسي لقوّة الرّيح المسعورة. كان من الصّعب عليّ أن أصدّق أنّ أهل القرية يعتبرون الرّيح عدوّا، يغلقون النّوافذ في وجهه خشية أن يجلب لهم الطّاعون والشّلل والموت. كانوا يقولون دائما إنّ الشّيطان هو سيّد الرّياح التي تنفّذُ أوامره الشّرّيرة.

أصبح الهواءُ المتموّجُ يدفعني الآن دفعا ثابتا مستمرّا. طرتُ فوق الجليد، متفاديا السّويقات المتجمّدة من حين إلى آخر. كانت الشّمسُ شاحبة. وعندما توقّفتُ أخيرا، شعرتُ بكتفيّ وكاحليّ مُتيبّسيْن وباردين. ولذلك قرّرتُ أن أستريح وأدفئ نفسي. ولكنّني حين لمستُ مذنّبي وجدتهُ منطفئا. لم تبق فيه شرارة واحدة. ارتجفتُ من الخوف، لا أعرف مالذي ينبغي عليّ فعله. لا يمكنني أن أعود إلى القرية. كما لم تعد لديّ القوّة لمقاومة الرّيح طويلا. لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا إذا كانت هناك مزارع في المناطق المجاورة، وما إذا كان بإمكاني أن أدركها قبل هبوط اللّيل، أو حتّى إذا كانوا سيوفّرون لي ملجأ في حال عثرتُ على أصحابها.

سمعتُ شيئا مّا، بدا كأنّه ضحكةٌ مكتومةٌ في صفير الرّيح. وارتجفتُ لفكرة أنّ الشّيطان نفسهُ كان يختبرني إذ يُطوِّف بي في دوائر، مُنتظرا اللّحظة التي أقبل فيها عرضهُ. وبينما كانت الرّيحُ تجلدني، أمكنني أن أسمع همساتٍ أخرى وتمتمات وأنينا. يبدو أنّ الأرواح الشّرّيرة قد اهتمّت بأمري أخيرا. ومن أجل أن تدرّبني على الكراهية، قامت في البداية بانتزاعي من والديّ. ثمّ أخذت منّي مارتا وأولغا. وضعتني بين يدي النّجّار. سرقت منّي الكلام. ووهبت إؤكا للجدْي. هاهي تجرّني الآن عبر برّيّة متجمّدة. تلقي الثّلج على وجهي. وتخضّ أفكاري. فتربكني. كنتُ خاضعا لسلطتها، وحيدا على قطعة جليد زجاجيّة نشرتها الأرواحُ الشّرّيرة نفسها بين القرى النّائية. لقد كانت تتشقلبُ فوق رأسي. وبإمكانها أن ترسلني حيثُ تشاء.

أخذتُ أمشي على قدميّ اللّتين تؤلمانني، غافلا عن الوقت. كانت كلّ خطوة موجعة. واضطررتُ إلى الاستراحة بعد فواصل متكرّرة. جلستُ على الجليد مُحاولا أن أحرّك ساقيّ المتصلّبتين من البرد.

وأخذتُ أفركُ وجنتيّ وأنفي وأذنيّ بواسطة الثّلج المتساقط عن شعري وملابسي وأدلّكُ أصابعي المتيبّسة، مُحاولا أن أستشعر حسّا مّا في أصابع قدميّ الخدرتين.

انخفضت الشّمسُ في الأفق. وكانت أشعّتها المائلةُ باردة كأشعّة القمر. جلستُ على الأرض. وبدا العالمُ من حولي شبيها بمقلاة لمّعتها بعناية ربّةُ بيت مجدّة.

بسطتُ القماش فوق رأسي مُحاولا أن ألتقط كلّ هبّة ريح، بينما أتّجهُ مباشرة نحو الشّمس الغاربة. وحين أوشكتُ أن أفقد الأمل، لمحتُ حوافّ الأسقف المكسوّة بالقشّ. وبعد لحظات قليلة، عندما لاحت القريةُ بوضوح، رأيتُ مجموعة من الفتيان يقتربون منّي على مزالجهم. من دون مذنّبي، كنتُ خائفا منهم. وحاولتُ أن أشقّ طريقي إلى ضاحية المستوطنة. ولكن فات الأوان. فقد لاحظوني سلفا.

توجّهت المجموعة نحوي. وأخذتُ أركضُ عكس تيّار الرّيح. ولكنّني كنتُ منهكا وأكاد لا أتحمّل الوقوف على قدميّ. جلستُ على الجليد، مُتمسّكا بمقبض المذنّب.

اقترب الأولادُ منّي. كانوا عشرة أو أكثر. تقدّموا بثبات عكس الرّيح، مُؤرجحين أذرعتهم ومستندين بعضهم إلى بعض. ألقى الهواءُ أصواتهم إلى الوراء. ولم أستطع أن أسمع شيئا.

عندما أصبحوا قريبين جدّا، انقسموا إلى مجموعتين. وأحاطوا بي في حذر. انقبضتُ على الجليد. وغطّيتُ وجهي بشراع القماش، آملا أن يتركوني بسلام.

لقد طوّقوني مرتابين في أمري. وتظاهرتُ أنّني لم ألاحظهم، إلاّ أنّ ثلاثة من بين أشدّهم قوّة اقتربوا أكثر. "إنّه غجريّ"، قال أحدهم. "لقيط غجريّ".

وقف الآخرون جانبا في هدوء. ولكن عندما حاولتُ النّهوض، قفزوا عليّ. ولوّوا ذراعيّ خلف ظهري. أصبحت المجموعةُ متحمّسةً. وقام أفرادها بضربي على وجهي ومعدتي. تجمّد الدّمُ على شفتي. وغلّق إحدى عينيّ. قال أطولهم شيئا مّا. وبدا أنّ الآخرين قد وافقوه بحماس كبير. أمسكني بعضهم من ساقيّ، فيما بدأ الآخرون ينزعون عنيّ سروالي. وعرفتُ ما كانوا يريدون فعله. لقد رأيتُ مجموعة من الرّعاة من قبلُ وهم يغتصبون صبيّا من قرية أخرى، صادف أن تجوّل في أراضيهم. وأدركتُ ألاّ شيء سينقذني سوى أمر غير متوقّع ومفاجئ.

سمحتُ لهم بخلع سروالي مُتظاهرا أنّني كنتُ منهكا ولا قدرة لي على القتال. وخمّنتُ أنّهم لن ينزعوا عنّي جزمتي ومزلاجي، لأنّهم كانوا متمسّكين بقوّة بقدميّ. وإذ لاحظوا أنّني كنتُ مُرتخيا ولم أقاومهم، أرخوا قبضاتهم من حولي. وجثا اثنان من بين أكبرهم حجما على بطني العارية. ولكماني بواسطة قفّازين متجمّدين.

شددتُ عضلاتي. سحبتُ إحدى ساقيّ قليلا. وركلتُ واحدا من الولديْن الجاثيين فوقي. فرْقَع شيءٌ مّا في رأسه. وحسبتهُ في البداية المزلاج. لكنّه كان كاملا عندما سحبتهُ من عين الفتى. حاول آخر أن يمسكني من ساقيّ. فركلته أيضا عند حنجرته بواسطة المزلاج. وسقط كلاهما على الجليد، وهما ينزفان بغزارة. أصيب بقيّة الأولاد

بالذّعر. وشرع معظمهم في جرّ المصابيْن باتّجاه القرية، مُخلّفين مسلكا من الدّماء على الجليد. بقي منهم أربعة في الخلف.

سمّرني هؤلاء أرضا بواسطة عمود يُستخدمُ للصّيد عبر ثقوب الجليد. وعندما توقّفتُ عن المقاومة، سحبوني باتّجاه فتحة قريبة. قاومتُ بشدّة عند حافّة الماء. لكنّهم كانوا جاهزين. وسّع اثنان منهما الفتحة. ثمّ ارتقوا جميعا. ودفعوني إلى تحت الجليد بواسطة الطّرف المسنّن للعمود. حاولوا بعد ذلك التثبّت من عدم قدرتي على الخروج مجدّدا.

غمرني الماءُ المُثلجُ. فأغلقتُ فمي. وحبستُ أنفاسي، مُستشعرا طعنة العمود المؤلمة وهي تدفعني إلى أسفل. انزلقتُ تحت الجليد الذي كان يفركُ رأسي وكتفيّ ويديّ العاريتين. ومن ثمّ، أصبح العمودُ الحادّ يتقلقلُ بين أصابعي دون أن يطعنني. فقد أسلمهُ الصّبيةُ من بين أيديهم.

غلّفني البردُ. وبدأ ذهني يتجمّدُ. كنتُ أغوص إلى الأسفل، مُختنقا. وكانت المياهُ هنا ضحلة. لم تتملّكني سوى فكرة وحيدة وهي أن أستخدم العمود لأدفع به إزاء القاع. وأرفع نفسي إلى فتحة الجليد. أمسكتُ العمود. واستندتُ إليه، وأنا أتحرّك تحت طبقة الجليد. وعندما أوشكت رئتاي على الانفجار وكنتُ مستعدّا لأن أفتح فمي وأبتلع أيّ شيء، وجدتُ نفسي قرب الفوهة. وبدفعة أخرى وحيدة، أطلّ رأسي خارجا. وابتلعتُ الهواء الذي بدا كأنّه تيّار حساء مغليّ. أمسكتُ حافّة الجليد النّاتئة. وتشبّثتُ بها بطريقة تسمح لي بالتّنفّس دون أن أكون مكشوفا تماما. لم أكن أعرفُ إلى أيّ مدى ابتعد الأولادُ. وفضّلتُ أن أنتظر لبعض الوقت.

كان وجهي وحدهُ ما يزالُ حيّا، بينما لم أستطع أن أحسّ ببقيّة جسدي، الذي بدا لي أنّه ينتمي إلى الجليد. وبذلتُ جهودا كبيرة كي أحرّك ساقيّ وقدميّ.

استرقتُ النّظر من فوق الحافّة. فرأيتُ الأولاد يختفون في المسافة. ويتضاءلون مع كلّ خطوة يخطونها. وعندما ابتعدوا بما فيه الكفاية، تسلّقتُ إلى السّطح. تصلّبت ملابسي من البرد. وأصبحت تطقطقُ مع كلّ حركة أقوم بها. ظللتُ أقفزُ مرارا. وأمدّد ساقيّ المتيبّستين وذراعيّ. وأفركُ نفسي بالثّلج. لكنّ الدّفئ ظلّ يعود للحظات قليلة فحسبُ. ثمّ يختفي من جديد. ربطتُ بقايا سروالي الممزّقة على ساقيّ. ثمّ سحبتُ العمود من فتحة الجليد. واستندتُ بثقلي إليه. لفحتني الرّيحُ من كلّ جانب. وقاومتُ كي أحافظ على اتّجاهي. كنتُ كلّما شعرتُ بالإنهاك، أضعُ العمود بين ساقيّ وأدفعُ مرتكزا عليه، كما لو كنتُ أركبُ ذيلا صلبا.

ابتعدتُ ببطء عن الأكواخ، مُتّجها نحو الغابة التي تلوح من بعيد. كان المساءُ في آخره وقرصُ الشّمس البنّيُّ تقطعهُ الأشكال المربّعة للسّقوف والمداخن. كلّ هبّة ريح تسرقُ من جسدي بقايا الدّفء الثّمينة. كنتُ أعرفُ جيّدا أنّه يجب عليّ ألاّ أستريح أو أتوقّف ولو للحظة واحدة قبل أن أصل إلى الغابة. وبدأتُ أرى علامات اللّحاء على الأشجار. قفز أرنب خائف من تحت شجرة صغيرة.

كنتُ أشعر بالغثيان عندما بلغتُ أولى الشّجرات في الغابة. شُبّه إليّ أنّه أوجُ الصّيف، وسنابلُ القمح الذّهبيّةُ تتموّجُ حول رأسي، بينما تلمسني إوْكا بيدها الدّافئة. تخيّلتُ طعاما كثيرا، صحنا هائلا من لحم البقر المتبّل بالخلّ والثّوم والفلفل والملح، وعاء من عصيدة تتخلّلها أوراق كرنب ملفوفة بقطع من لحم خنزير مقدّد وقطعا أخرى متساوية من خبز الشّعير المنقوع في حساء البرش مع البطاطا والذّرة.

خطوت بضع خطوات قليلة فوق الأرض المتجمّدة. ودخلتُ إلى الغابة. علق مزلاجي بالجذور والأجمات. فتعثّرتُ مرّة. ثمّ جلستُ على جذع شجرة. وأخذتُ على الفور أغرقُ في سرير دافئ، مليء بالوسائد النّاعمة الملساء وريش الطّيور. شخص مّا انحنى من فوقي. وسمعتُ صوت امرأة. لقد حُملتُ إلى مكان آخر. وتحلّل كلّ شيء إلى ليلة صيف قائظة، مليئة بضباب رطب عبق.

14

استيقظتُ على سرير منخفض واسع، يستندُ إلى جدار، ومغطّى بجلود الغنم. كان الجوّ حارّا في الغرفة. ويكشفُ النّورُ المرتجفُ لشمعة كبيرة أرضيّة وسخةً، حيطانا بيضاء بلون الطّبشور وسقفا مغطّى بالقشّ. هناك صليبٌ يتدلّى من المدخنة وامرأة جالسةٌ تحدّقُ في ألسنة النّار المرتفعة. كانت حافية، ترتدي تنّورة ضيّقة من الكتّان الخشن. جُرْكِينَتُها[19] المصنوعة من جلود الأرانب بثقوبها العديدة لم تُزرَّر عند الخصر. حين لاحظتْ أنّني استيقظتُ، اقتربت منّي. وجلست على السّرير الذي أطلق صريرا تحت ثقلها. رفعت ذقني. وتأمّلتني بانتباه. كانت عيناها بزرقة المياه. وعندما ابتسمت، لم تغطّ فمها بيدها كما هي العادةُ هنا. بل كشفت عن صفّين من الأسنان المصفرّة غير المستوية.

تحدّثت إليّ بلهجة محلّيّة لم أتمكّن من فهمها تماما. وظلّت تناديني بغجريّها المسكين ولقيطها اليهوديّ الصّغير. لم تصدّق في البداية أنّني كنتُ أبكم. ومن حين إلى آخر، تتطلّعُ إلى داخل فمي. وتضربُ

(19) الجُرْكِينةُ Jerkin : سترة رجاليّة ضيّقة، تكون عادةً من دون كمّين. وتُصنعُ من فراء الحيوانات وجلودها. (المترجم)

حنجرتي. وتحاولُ أن تفاجئني. ولكنّها توقّفت عن ذلك بعد فترة وجيزة حين مكثتُ صامتا في كلّ مرّة.

كانت تُطعمني حساء البرش الحارّ. وتتفحّصُ بعناية أذنيّ المتجمّدتين ويديّ وقدميّ. أخبرتني أنّ اسمها لابينا. شعرتُ بالرّضا والأمان معها. وأحببتها كثيرا.

أثناء النّهار، تُغادر لابينا للعمل في منازل بعض المزارعين الأثرياء، خصوصا أولئك الذين تكون زوجاتهم مريضات أو لديهم أطفال كثيرون. وكانت تصطحبني معها مرارا حتّى أنعم بوجبة لائقة، رغم أنّه يُشاع في القرية أنّه يجبُ تسليمي إلى الألمان. كانت لابينا تردّ على هذه الملاحظات بسيل من الشّتائم، هاتفة أنّنا جميعا متساوون أمام الرّبّ وأنّها ليست يهوذا لتبيعني بقطع من فضّة.

اعتادت لابينا أن تستقبل في المساءات ضيوفا في كوخها. يأتي الرّجال الذين يتوصّلون إلى مغادرة أكواخهم إليها، مُحمّلين بزجاجات الفودكا وسلال الطّعام.

يحتوي الكوخُ على سرير واحد ضخم يمكنهُ أن يستوعب بسهولة ثلاثة أشخاص. بين حافّة هذا السّرير والحائط يوجدُ فضاء واسع، كدّست فيه لابينا أكياسا وخرقا قديمة وجلود غنم، حتّى توفّر لي مكانا أنامُ فيه. كنتُ أذهبُ للنّوم دائما قبل قدوم الضّيوف. ولكن يوقظني في أغلب الأحيان غناؤهم وأنخابهم الصّاخبةُ. ومع ذلك، أتظاهر بكوني نائما. لم أرد أن أتعرّض للضّرب الذي تقول لي لابينا عادة، وبفتور، إنّني أستحقّهُ. بعينين شبه مغمضتين، كنتُ أشاهدُ ما يحدثُ في الغرفة.

ينطلقُ سباق السّكر. ويستمرّ إلى آخر اللّيل. وعادة، يمكثُ رجل واحد بعد أن يغادر الآخرون. يجلسُ هو ولابينا أمام الموقد. فيشربان من نفس الكأس. وحين تترنّحُ مُتقلقلة وتنحني باتّجاه الرّجل، يضعُ هو يدا كبيرة مائلة إلى السّواد حول فخذيها المترهّلين. ثمّ يحرّكها ببطء تحت تنّورتها.

تبدو في البداية غير مبالية. ثمّ تقاومُ قليلا. تنزلقُ يدُ الرّجل الأخرى من تحت رقبتها إلى أسفل، داخل سترتها. فتضغطُ ثدييها بقوّة كبيرة، إلى درجة أنّها تطلق صرخة وتشرع في اللّهاث بحدّة. أحيانا، يركعُ الرّجلُ على الأرضيّة. ويدفعُ وجههُ بعنف بين فخذيها، وهو يعضّهُ عبر التنّورة ويعصر ردفيها بكلتا يديه. في معظم الأحيان، كان ينقر ما بين فخذيها بطرف يديه وبشكل مفاجئ. وكانت هي تنحني بجسدها. وتئنُّ.

تنطفئُ الشّمعةُ. فيخلعان ملابسهما في الظّلام، ضاحكين وقاذفين الشّتائم، متعثّرين بالأثاث وجسديهما، متخلّصين من ملابسهما بصبر نافد وقالبين الزّجاجات التي تتدحرجُ عبر الغرفة. كنتُ أخشى أن يتداعى السّرير عندما يهويان عليه. وبينما أفكّرُ في الجرذان التي تعيشُ معنا، تتقلّبُ لابينا وضيفها في السّرير، وهما يصفّران بلهاثهما ويتعاركان ويناديان الرّبّ والشّيطان. يعوي الرّجل مثل كلب. وتنخر المرأة مثل خنزير.

عادةً ما أستيقظُ بشكل مفاجئ، في منتصف اللّيل وأثناء حلمي، لأجد نفسي على الأرضيّة بين السّرير والحائط. يرتعشُ السّرير من فوقي. وينزلقُ من مكانه بسبب الجسدين اللذين يتنازلان مُحدثيْن

اهتزازاتٍ متكرّرة. وفي النّهاية، يبدأ في التّحرّك على الأرضيّة المائلة باتّجاه مركز الغرفة.

ولأنّني أعجزُ عن الزّحف إلى السّرير الذي سقطتُ منه، كان عليّ أن أتسلّل من تحته وأدفعه مجدّدا إزاء الحائط. أعودُ بعد ذلك إلى فراشي. كانت الأرضيّةُ المتّسخة تحتهُ باردة ورطبة ومكسوّة ببراز القطط وفضلات الطّيور التي جلبتْها إلى الدّاخل. مرّاتٍ وأنا أتقدّمُ في الظّلام، مزّقتُ شبكات عنكبوت سميكة. فركضت العناكبُ الخائفةُ على وجهي وشعري. وفرّت أجسامُ الفئران الدّافئة إلى حفرها، مُصطدمةً بي في طريقها إليها.

لطالما ملأني لمسُ هذا العالم المظلم بلحمي بالاشمئزاز والخوف. أزحفُ خارجا من تحت السّرير. أمسحُ خيوط العنكبوت عن وجهي. وأنتظر مُرتجفا اللّحظة المناسبة لدفع السّرير مجدّدا باتّجاه الحائط.

تعوّدتْ عيناي شيئا فشيئا على الظّلام. كنتُ أنظر فيه، بينما يركبُ جسدُ الرّجل الضّخم والمتعرّق المرأةَ المرتعشة، التي تعانقُ برجليها ردفيه الممتلئين. وكان المشهدُ شبيها بجناحي طائر مسحوقين تحت صخرة.

يئنُّ المزارعُ. ويتنهّدُ بقوّة. يجمعُ جسد المرأة تحتهُ. يرفع نفسه. ويضربُ ثدييها بقفا يده. كانا يتلاطمان بعنف، مثل قطعة قماش مبلّلة تُضرب إزاء صخرة. ينقضُّ عليها. ويمدّدها على السّرير. تبكي لابينا. وتضربُ ظهره بيديها. أحيانا يرفعُ الرّجل المرأة. ويجبرها على أن تركع عند السّرير، مُستندة إلى كوعيها. فيركبها من الخلف. ويظلّ ينقرها بشكل موقّع ببطنه وفخذيه.

نظرتُ إلى الهيكلين البشريّين المتفضين والمتشابكيْن بخيبة أمل وتقزّز. هذا هو الحبّ إذن؟ متوحّش مثل ثور هُمِز بشيء حادّ، ذو رائحة كريهة ويضوعُ عرقا. يُشبهُ هذا الحبُّ عراكا ينتزعُ فيه الرّجل والمرأة اللّذّة من

بعضهما، وهما يتقاتلان، عاجزين عن التّفكير، شبه ذاهلين، ويصفّران بلهاثهما في منزلة دون ما هو إنسانيّ.

تذكّرتُ اللّحظات التي قضّيتُها مع إوْكا. كم كنتُ أعاملها بشكل مختلف تماما. كانت لمستي لطيفة. يُرفرفُ يداي وفمي ولساني بوعي على بشرتها، بنعومة ورهافة، كخيط حرير يطفو في هواء دافئ دون رياح. أبحثُ باستمرار عن أمكنة حسّاسة جديدة تجهلها هي نفسها. فأعيد لها الحياة بلمستي، كما تحيي أشعّةُ الشّمس المشرقة فراشة أبردها هواءُ ليلة خريفيّة رطبة. تذكّرتُ كلّ مُحاولاتي المدروسة، كيف تطلقُ في جسد الفتاة شيئا من اللّهفة والاهتزازات التي كانت لتظلّ من دونها، حبيسة هناك إلى الأبد. كنتُ أحرّرها، راغبا فقط في أن تجد اللّذّة في نفسها.

تنتهي مغامرات لابينا وضيفها سريعا. فقد كانا مثل أمطار رعديّة وجيزة في الرّبيع، تبلّلُ الأوراق والعشب. لكنّها لا تصلُ أبدا إلى الجذور. تذكّرتُ كيف أنّ ألعابي مع إوْكا لم تكن تتوقّفُ أبدا. بل تخفتُ فقط عندما يتطفّل مكار والسّمّان على حياتينا. تتواصلُ طيلة اللّيل مثل نار من الخثّ تُسوّطها الرّيحُ بلطف. ومع ذلك، يُخمَدُ حتّى هذا الحبُّ بالسّرعة التي يُطفِئ بها غطاءُ حصانِ الرّاعي الحطبَ المشتعل. فما أن أصبحتُ عاجزا بشكل مؤقّت عن اللّعب معها، نسيتني إوْكا. لقد فضّلت على دفء جسدي وعناقِ ذراعيّ الرّقيقِ ولمسات أصابعي وفمي النّاعمة جدْيا غزير الشّعر، كريه الرّائحة وإيلاجَه العميق المقرف.

أخيرا، توقّف السّريرُ عن الارتجاف. وغرق الهيكلان المتراخيان والمنبطحان هناك، مثل الماشية الذّبيحة، في النّوم. بعد ذلك، دفعتُ السّرير مجدّدا إلى الجدار. تسلّقته. وتمدّدتُ في ركني البارد، ساحبا كلّ جلود الغنم فوقي.

خلال المساءات المطرة، تُصبحُ لابينا كئيبة. وتتحدّثُ عن زوجها الميّت لابا. قبل سنوات عديدة، كانت فتاة جميلة يتودّد إليها أثرياءُ المزارعين. ولكن خلافا للمنطق، وقعت في حبّ لابا وتزوّجته، وهو أفقر عامل زراعيّ في القرية والمعروف كذلك بكونه الأشدّ وسامة.

كان لابا وسيما بالفعل، طويلا مثل صفصافة وخفيفا مثل قمّة. يتلألأُ شعرهُ في الشّمس. عيناهُ أكثر زرقة من السّماء. وبشرته ناعمة كبشرة طفل. عندما ينظر إلى امرأة، تشتعلُ دماؤها وتتسابقُ في رأسها أفكار شبقة. وكان لابا يعرفُ جيّدا أنّه حسنُ المنظر ويثير الإعجاب والشّهوة عند النّساء. يحبّ أن يتسكّع في الغابات ويستحمّ في البرك عاريا. يلقي نظراته بين الأحراش. فيعرفُ أنّ العذارى الفتيّات والنّساء المتزوّجات يراقبنه من بعيد.

لكنّه كان أفقر عامل زراعيّ في القرية. يعمل لدى المزارعين الأثرياء. وعليه أن يتحمّل الكثير من الإهانات. يدركُ هؤلاء الرّجال أنّ لابا مرغوب فيه من قبل زوجاتهم وبناتهم. ومن أجل ذلك يذلّونه باستمرار. يُضايقون لابينا كذلك، عارفين أنّ زوجها المفلس يعتمد عليهم لكسب قوته وأنّه سيكتفي بالنّظر إليهم عاجزا.

ذات يوم لم يعد لابا من الحقل إلى البيت. ولم يعد في اليوم التّالي أو اليوم الذي يليه. لقد اختفى كحجر يُلقى في قاع بُحيرة.

وظنّ النّاسُ أنّه غرق في مُستنقع أو طعنه عاشقٌ مّا بسكّين. ودفنه ليلا في الغابة.

استمرّت الحياةُ من دون لابا. ولم يبق حيّا في القرية سوى عبارة: "وسيم مثل لابا".

مرّت سنةٌ من الوحدة دونه. ونسيهُ النّاسُ. وحدها لابينا ظلّت تعتقدُ بكونه حيّا، وأنّه سيعود في يوم مّا. وفي أحد أيّام الصّيف، حين كان أهل القرية يستريحون في ظلال الأشجار القصيرة، برزت من الغابة عربةٌ يجرّها حصان قويّ. وعليها صندوقٌ كبير مغطّى بقطعة قماش. وإلى جانبها، يتمشّى لابا الوسيمُ في سترة جلديّة جميلة بزخارف الجنود الفرسان على كتفيه وسروال من أجود أنواع القماش وجزمة طويلة لامعة.

ركض الأطفال بين الأكواخ، حاملين الأنباء. واندفع الرّجالُ والنّساء نحو الطّريق. لوّح لابا لهم بشكل فاتر، وهو يمسحُ العرق عن جبينه ويحثُّ حصانه.

كانت لابينا تنتظره سلفا عند المدخل. قبّل زوجته. وأفرغ صندوقه الكبير. وتجمّع الجيرانُ أمامهُ، يتأمّلون الحصان والعربة بإعجاب.

وبعد أن انتظر القرويّون بنفاد صبر ظهور لابا ولابينا من جديد، شرعوا في المزاح والتّهكّم. كان قد اندفع إليها مثلما يندفعُ الوعلُ إلى أنثاهُ. وجديرٌ بهما أن يُسكب عليهما الماءُ البارِدُ.

فجأة، انفتح باب الكوخ. فشهق الحشدُ من الدّهشة. عند العتبة، يقفُ لابا الوسيمُ مُرتديا بدلة فخمة بشكل لا يُصدّقُ. يلبسُ قميصا حريريّا ذا ياقة بيضاء فاقعة حول عنقه وربطة عنق زاهية الألوان.

كانت بدلتهُ الفانيلا النّاعمةُ تتوسّلُ النّاظر ليلمسها. منديلهُ الساتان عالق في جيب الصّدر مثل زهرة. وإلى هذا كلّه تنضافُ جزمة سوداءُ صقيلة، فيما تتدلّى، تتويجا لمجده، ساعةٌ ذهبيّةٌ من جيبه الآخر.

فغرت أفواهُ المزارعين. لا شيء مثل هذا قد حدث من قبلُ خلال تاريخ القرية كلّه. فمن عادة أهلها أن يلبسوا سترات منزليّة وسراويل خيطت من قطعتي قماش طويلتين وجزما من الجلد الخشن المدبوغ والمسمّر إلى نعل خشبيّ سميك. أخرج لابا من صندوقه سترات ملوّنة لا عدّ لها وذات قطْع غير مألوف، سراويل، قمصانا، أحذية جلديّة أصيلة تُشرقُ بلمعان يجعلها تصلح مرايا، مناديل، ربطات عنق، جوارب وملابس داخليّة. أصبح لابا الوسيمُ موضوع الاهتمام الأسمى في القرية. شاعت قصص غريبة عنه. ونشأت تكهّنات عديدة حول مصدر كلّ هذه الأشياء التي لا تقدّر بثمن. غُمرت لابينا بأسئلة لم تكن تعرفُ إجاباتها. فقد اقتصر لابا على تقديم بعض الرّدود المُبهمة، مُساهما بشكل أكبر في نماء أسطورته.

أثناء المراسم الكنسيّة، لم يكن أحد ينظر إلى الكاهن أو المذبح. بل كانوا جميعا يتأمّلون الرّكن الأيمن لصحن الكنيسة، حيثُ يجلسُ الوسيمُ لابا بثبات مع زوجته في سترته الساتان السّوداء وقميصه المزركش بالأزهار. يلبسُ في معصمه ساعة متلألئة ينظر إليها من حين إلى آخر بتفاخر. أصبحت ملابسُ الكاهن التي كانت من قبلُ قمّة الفخامة، باهتة مثل سماء شتويّة. يستمتع أولئك الذين يجلسون قرب لابا بالرّوائح الزّكيّة غير المعتادة التي تضوعُ منه. وقد أكّدت لابينا أنّها مخبّأة في عدد من القوارير الصّغيرة والجِرار.

انتقل الحشدُ بعد القدّاس إلى باحة الكنيسة. وتجاهلوا القسّ الذي حاول أن يشدّ انتباههم. لقد انتظروا لابا، وهو يتمشّى نحو المخرج بخطوة متراخية واثقة، ينقرُ كعبهُ أرضيّة الكنيسة مُحدثا صوتا عاليا. أخلى النّاسُ الطّريق له باحترام كبير. واقترب منه المزارعون الأثرياء. وحيّوهُ بألفة. ودعوهُ إلى منازلهم لتناول العشاء على شرفه. ودون أن يحني رأسه، تلقّى لابا بإهمال الأكفّ الممدودة إليه. تعترضُ النّساء طريقه، متجاهلات حضور لابينا. يرفعن تنانيرهنّ حتّى تظهر أفخاذهنّ. ويسحبن أثوابهنّ ليجعلن أثداءهنّ أكثر بروزا.

لم يعد الوسيمُ لابا يعمل في الحقول. بل صار يمتنع أيضا عن مساعدة زوجته في المنزل. يُقضّي أيّامه وهو يستحمّ في البحيرة. يعلّقُ ملابسه المزركشة على شجرة قرب الشّاطئ. وعلى مقربة منه، تجلسُ النّساء المتحمّسات، وهنّ يتفرّجن في جسده ذي العضلات البارزة. ويُقال إنّ لابا كان يسمح لبعضهنّ بلمسه في ظلال الشّجيرات. كما أنّهنّ كنّ مُستعدّات لاقتراف أفعال مخزية معه، ممّا قد يؤدّي إلى فرض عقوبة رهيبة عليهنّ.

في المساء، عندما يعودُ المزارعون من الحقول، والعرقُ يتصبّبُ منهم والغبار يُرمّدُ بشرتهم، يلتقون بلابا الوسيم، يتبختر في الجهة الأخرى. يخطو بعناية على الجزء الصّلب من الطّريق، حتّى لا يُوسّخ حذاءهُ. يُعدّلُ ربطة عنقه. ويلمّعُ ساعته بواسطة منديل ورديّ.

تُرسَلُ الخيول في المساءات إلى لابا. فيغادرُ من أجل حفلات الاستقبال التي تبعدُ غالبا عشرات الأميال. أمّا لابينا، فتمكثُ في البيت ميّتة من الإرهاق والإهانة، لتعتني بالمزرعة والأحصنة وكنوز

زوجها. لقد توقّف الزّمن بالنّسبة إلى لابا الوسيم. ولكنّ لابينا كانت تهرمُ بسرعة إذ تترهّل بشرتها ويتراخى فخذاها.

مرّت سنة على هذا النّحو.

وفي يوم خريفيّ، عادت لابينا من الحقول، مُتوقّعة أن تجد زوجها في العلّيّة مع جميع كنوزه. فقد كانت العلّيّةُ مملكة لابا الحصريّة. وهو يحتفظ في صدره مع ميداليّة للعذراء المقدّسة بمفتاح القفل الكبير الذي يؤمّنُ بابها. ولكن، أصبح المنزلُ الآن هادئا تماما. لا دخان يتصاعدُ من المدخنة ولا صوت لابا وهو يدندنُ، بينما يرتدي إحدى ستراته الدّافئة.

هرعت لابينا خائفة إلى الكوخ. وجدت باب العلّيّة مفتوحا. تسلّقت صاعدة إليها. وما رأته حينئذ أذهلها. كان الصّندوق على الأرض، وقد اقتُلع غطاؤه وظهر قعرهُ المبيضُّ. زوجها الآن مُثبَّتٌ في الخطّاف الكبير، حيث اعتاد أن يضع ستراته. يتأرجحُ الوسيمُ لابا مثل بندول ساعة يبطئ شيئا فشيئا، وهو مُعلّق بواسطة ربطة عنق مزخرفةٍ بأشكال زهريّة. ثمّت ثقب في السّقف حمل اللّصُّ من خلاله مُحتويات الصّندوق. تنيرُ الأشعّةُ الرّقيقة للشّمس الغاربة وجهَ لابا الوسيم الشّاحب، فيما يطلّ لسانهُ المزرقُّ خارج فمه. ومن حوله يطنّ الذّباب قزحيُّ اللّون.

خمّنت لابينا ما حدث. عندما عاد لابا من الاستحمام في البحيرة ليرتدي بدلة التّنزّه، وجد الثّقب في سقف العلّيّة والصّندوق الفارغ. اختفت كلّ ملابسه الفخمة. ولم يبق منها إلاّ ربطة عنق وحيدة، تتمدّدُ كزهرة مقطوعة في قشٍّ مُداس.

لقد اختفى معنى الحياة لدى لابا مع اختفاء محتويات صندوقه. وكانت تلك نهايةَ حفلات الزّفاف التي لا ينظر فيها أحد إلى العروس،

نهايةَ مراسم الدّفن التي يلتقي فيها الوسيمُ لابا بنظرات التّقديس من الحشد كلّما وقف أمام القبر المفتوح ونهايةَ الاستعراض المتفاخر في البحيرة ولمسة الأيادي الأنثويّة المتلهّفة.

وبحركة متأنّية ومدروسة لا يمكنُ لشخص آخر في القرية أن يُحاكيها، ارتدى لابا ربطة عنقه للمرّة الأخيرة. ثمّ سحب إليه الصّندوق المُفرَغ. وبلغ خُطّاف السّقف.

لم تكتشف لابينا أبدا كيف اكتسب زوجها كنوزه. لم يكن يتحدّثُ مُطلقا عن فترة غيابه. ولا أحد عرف أين كان، وما الذي فعلهُ هناك وأيّ ثمن دفعه مقابل كلّ تلك الخيرات. كلّ ما عرفتهُ القريةُ بأسرها هو ما كلّفتهُ خسارة أشيائه.

لم يتمّ العثور على اللّصّ أو الأشياء المسروقة. وحين كنتُ ما أزالُ هناك، تردّدت الإشاعاتُ القائلة إنّ اللّصّ زوجٌ أو خطيب تمّت خيانته. يعتقدُ آخرون أنّ المسؤول عن السّرقة هو امرأة مّا غيورة بشكل جنونيّ. وهناك الكثير من النّاس في القرية قد اشتبهوا في لابينا نفسها. عندما سمعت هي بهذا الاتّهام، شحُب وجهها وارتعشت يداها وطلعت من فمها رائحةُ المرارة الكريهة. تتحوّل أصابعها إلى مخالب. وتلقي بنفسها على المتّهم. فيُضطرّ المتفرّجون إلى فصلها. ومن ثمّ، تعود لابينا إلى البيت. فتستغرقُ في الذّهول والخدر. ثمّ تشدّني إلى صدرها، وهي تبكي وتنشج.

وخلال واحدة من هذه المعارك، انفجر قلبها. عندما رأيتُ عدّة رجال يحملون جثّتها إلى الكوخ، عرفتُ أنّ عليّ الهرب. ملأتُ مذنّبي بجمرات مُشتعلة. التقطتُ ربطة العنق الثّمينة التي كانت لابينا قد

خبّأتها تحت السّرير والتي شنق لابا الوسيمُ نفسه بها ورحل. كان الاعتقادُ سائدا أنّ حبل الانتحار يجلبُ الحظّ السّعيد. ولهذا رجوتُ ألاّ أفقد أبدا ربطة العنق.

15

أوشك الصّيفُ على الانتهاء. وتكدّست حِزمُ القمح في الحقول. عمل المزارعون بأقصى جهد ممكن. ولكن لم يكن لديهم ما يكفي من الخيول أو الثّيران لجلب الحصاد بسرعة.

امتدّ جسرُ سكّة الحديد المرتفعُ من فوق منحدرات نهرٍ كبير قرب القرية. وقد كان محروسا بأسلحة ثقيلة وُصعت في ملاجئ عسكريّة خرسانيّة.

في اللّيل عندما تهدر الطّائرات المحلّقة عاليا في السّماء، يسودُّ كلّ شيء على الجسر. ثمّ تُستأنفُ الحياةُ صباحا. يرتدي الجنودُ خوذاتهم. ويشحنون مدافعهم. ومن أعلى نقطة في الجسر، يلوحُ الصّليبُ المعقوفُ، المنسوج في العلم وهو يهتزُّ في الرّيح.

سُمع في إحدى اللّيالي الحارّة صوتُ إطلاق النّار قادما عن بعد. واكتسح الصّوتُ المكبوت الحقول، مُنذرا الرّجال والطّيور. كان الوميضُ يبرُقُ من بعيد. تجمّع النّاسُ أمام منازلهم. وشاهد الرّجال البروق البشريّة، وهم يدخّنون غلايين الذّرة ويقولون: "الجبهةُ قادمة"، فيما يُضيفُ آخرون: "الألمان يخسرون الحرب". وينطلقون في جدالات طويلة.

قال بعضُ المزارعين إنّ المفوّضين الرّوس سيوزّعون حين قدومهم الأراضي بعدل على الجميع. يأخذون من الغنيّ. ويعطون للفقير. ستكون حينئذ نهايةُ ملاّك الأراضي الانتهازيّين والمسؤولين الفاسدين ورجال الشّرطة المتوحّشين.

ويخالفهم في ذلك آخرون بقوّة. يُقسمون لهم بحقّ صلبانهم المقدّسة أنّ السّوفييت سيؤمّمون كلّ شيء، بما في ذلك الزّوجات والأبناء. ينظرون إلى وهج السّماء الشّرقيّة. ويصرخون قائلين إنّ مجيء الحُمر يعني أن يضِلّ النّاسُ عن المذبح وينسوا تعاليم أسلافهم وأن يهبوا أنفسهم لحيوات آثِمة، إلى أن تحوّلهم عدالة الرّبّ إلى أعمدة من الملح.

تعارك الأخ مع أخيه. ولوّح الآباءُ بفؤوس في وجوه أبنائهم وأمام أمّهاتهم. كانت هناك قوّة مّا غير مرئيّة تقسِمُ النّاس وتشقّ العائلات وتُفسدُ العقول. ولم يسلم من هذا سوى العجائز الذين ظلّوا يتقلّبون من جانب إلى آخر، يتوسّلون المُتقاتلين أن يعودوا للسّلم. يصرخون بأصواتهم الحادّة قائلين إنّ العالم مليء بالحروب وليس يحتاجُ حربا أخرى في القرية.

كان الرّعدُ يقتربُ من خلف الأفق. وقد أخْفتَ تدفُّقهُ الخصومات. ونسي النّاسُ فجأة أمر المفوّضين السّوفييت أو الغضب الإلهيّ، وهم يندفعون لحفر الحُفر في حظائرهم وأقبيتهم.

لقد خزّنوا الزّبدة ولحم الخنزير والعجول والذّرة والقمح. استُخدمت بعضُ الخرق المصبوغةُ بالأحمر بشكل سرّيّ لتحيّة الحكّام الجدد، بينما خبّأ آخرون في أماكن آمنة صلبانا معقوفةً وصور يسوع ومريم ورموزا أخرى.

لم أفهم أيّ شيء من كلّ ذلك. لكنّني كنتُ أحسُّ بالتّوتّر في الهواء. لم يعد أحد يعيرني أيّ انتباه. أتسكّعُ بين الأكواخ. فأسمع أصوات الحفر والوشوشات المتوتّرة والصّلوات. وبينما أتمدّدُ في الحقول وأضعُ أذني على الأرض، أسمعُ صوت جلجلة مكتومة.

هل كان ذلك قدوم الجيش الأحمر؟ يُشبهُ الخفقانُ في الأرض دقّات القلب. تساءلتُ في سرّي لم كان الملحُ باهضا جدّا إذا كان الرّبُّ قادرا على تحويل المذنبين إلى أعمدة من الملح بسهولة كبيرة. ولماذا لا يُحوَّلُ بعض المذنبين إلى لحم أو سكّر؟ فالقرويّون يحتاجونه مثل حاجتهم إلى الملح.

أستلقي على ظهري، متأمّلا الغيوم، وهي تطفو بطريقة تجعلني أبدو أنا الآخر طافيا. إذا كان صحيحا أنّ النّساء والأطفال يمكن أن يصيروا مَشاعا، فسيكونُ لكلّ طفل حينئذ العديدُ من الآباء والأمّهات وما لا حصر له من الإخوة والأخوات. بدا لي ذلك أكثر ممّا يمكن أن يُرجى: أن أنتمي إلى الجميع. وأينما ذهبتُ يمسّحُ آباء كثيرون على رأسي بأياد مُطمئِنة راسخة وتضمّني أمّهات كثيرات إلى صدورهنّ ويحميني العديدُ من الإخوة الأكبر منّي سنّا من الكلاب. وسيكون عليّ أن أعتني بإخوتي وأخواتي الصّغار. يبدو إذن ألاّ حاجة للمزارعين ليشعروا بالخوف.

ذابت الغيومُ بعضُها في بعض، وقد صارت الآن أشدّ قتامة وأخفّ من قبل. في مكان مّا فوقها كلّها، يديرُ الرّبّ كلّ شيء. لقد فهمتُ الآن لم يُوشكُ ألاّ يجد الوقت الذي يُخصّصهُ لبرغوث صغير أسود مثلي. فلديه جيوش هائلة ورجال لا يُحصون وحيوانات وآلات

تتقاتل من تحته. وكان عليه أن يقرّر من سيربحُ ومن سيخسرُ، من سيحيا ومن سيموت.

ولكن إذا كان الرّبُّ قد قرّر سلفا ما سيحدثُ، لِمَ يقلقُ المزارعون بشأن إيمانهم والكنائس ورجال الّدين؟ إذا كان السّوفييت عازمين حقّا على تدمير الكنائس وتدنيس المذابح وقتل الكهنة واضطهاد المؤمنين، فلن يكون للجيش الأحمر أدنى فرصة لكسب الحرب. فحتّى أكثر الآلهة إنهاكا وانشغالا، لا يمكنهُ أن يتغاضى عن تهديد كهذا يُوجَّه إلى شعبه. ولكن، ألا يعني هذا أنّ الألمان الذين هدموا الكنائس وقتلوا النّاس أيضا، قد أثبتوا بذلك انتصارهم؟ من وجهة نظر الرّبّ، سيبدو منطقيّا أكثر أن يخسر الجميعُ الحرب، بما أنّهم قد اقترفوا القتل جميعا.

"الملكيّةُ المشاعة للنّساء والأطفال"، هكذا قال المزارعون. ويبدو الأمر في الحقيقة مُحيّرا. وعلى أيّة حال، فقد فكّرتُ أنّه بقليل من النّوايا الحسنة يمكنُ للمفوّضين السّوفييت ربّما أن يدمجوني ضمن الأطفال. ورغم أنّني أصغرُ حجما من معظم أطفال الثّامنة، إلاّ أنّني الآن أوشكُ على بلوغ الحادية عشرة. وقد أزعجني إمكانُ أن يعتبرني الرّوس واحدا من البالغين أو ألاّ ينظروا إليّ على الأقلّ بوصفي طفلا. بالإضافة إلى ذلك، أنا أبكم. ولديّ مُشكلةٌ مع الطّعام الذي يغادرُ معدتي أحيانا غير مهضوم. إنّني أستحقُّ دون شكّ أن أصبح ملكيّة مشاعة.

في صباح مّا، لاحظتُ نشاطا غير عاديّ على الجسر. كان جنودٌ يلبسون خوذاتهم ويحتشدون فوقه، يفكّكون المدافع والأسلحة الرّشّاشة. ثمّ أسقطوا العلم الألمانيّ. وبينما تتّجه شاحناتٌ كبيرة غربًا من الجانب الآخر من الجسر، أخذ الصّوتُ المزعجُ للأناشيد الألمانيّة يبهتُ شيئا

فشيئا. "إنّهم يهربون"، قال المزارعون. "لقد خسروا الحرب"، صرخ أكثرهم جرأة.

في اليوم التّالي عند الظّهيرة، تقدّمت مجموعة من الرّجال الذين يمتطون الأحصنة إلى القرية. لقد كانوا مائة أو أكثر ربّما. ويبدو الواحدُ منهم متّحدا بحصانه. يتقدّمون بيسر كبير، دون أيّ نظام مفروض عليهم. يرتدون أزياء ألمانيّة خضراء ذات أزرار لامعة. وقبّعاتُ العلف المسحوبةُ إلى أسفل تحجب عيونهم.

تعرّف إليهم المزارعون على الفور. وصرخوا قائلين إنّ القلموقيّين[20] قد وصلوا. وعلى النّساء والأطفال أن يختبئوا قبل أن يُمسك بهم. وخلال أشهر في القرية، ظلّت حكاياتٌ فظيعة تُروى عن هؤلاء الفرسان الذين يُشار إليهم عادة بلقب القلموقيّين. يقول المزارعون أيضا إنّ الجيش الألمانيّ الذي لا يقهر قد احتلّ من قبلُ منطقة واسعة من الأراضي السّوفياتيّة. وحين تمّ ذلك، انضمّ إليه العديد من القلموقيّين الذين كانوا متطوّعين في معظمهم أو فارّين من الجيش السّوفياتيّ. ولأنّهم يكرهون الحمر، فقد انضمّوا إلى الألمان الذين سمحوا لهم بالنّهب والاغتصاب على طريقتهم في الحرب ووفق التّقاليد الإنسانيّة. لهذا تمّ إرسالُ القلموقيّين إلى القرى والمدن التي ينبغي معاقبتها لعدم الامتثال، أو بشكل خاصّ، تلك التي تقع في طريق تقدّم الجيش الأحمر.

---

(20) نسبة إلى قالميقيا وهي جمهوريّة ذات استقلال ذاتيّ في الاتّحاد الرّوسيّ. وهي المنطقة الوحيدةُ في أوروبا التي تتّخذ البوذيّة دينا رسميّا. (المترجم)

تقدّم القلموقيّون بخبب سريع، مُنحنين على أحصنتهم، مُستخدمين مهاميزهم ومطلقين صرخات خشنة. وتحت أزيائهم مفتوحة الأزرار يُمكن للمرء أن يرى بشرة سمراء عارية. يمتطي بعضهم أحصنتهم دون سرج وبعضهم الآخر يعلّق سيوفا ثقيلة في أحزمتهم.

تملّك القريةَ ارتباكٌ عظيم. لقد فات أوان الهروب. حدّقتُ في الفرسان باهتمام شديد. كانوا جميعا يملكون شعرا أسود دهنيّا يتلألأ في الشّمس. ويكادُ يكون أزرق أسود في آن، أكثر قتامة من شعري حتّى. وكذلك لون عيونهم وبشرتهم الدّاكنة. كانت لهم أسنان بيضاءُ كبيرة، عظام ناتئة في خدودهم ووجوه عريضة تبدو منتفخة.

ولوهلة، بينما كنتُ أنظر إليهم، شعرتُ بفخر ورضا كبيرين. ففي النّهاية، هؤلاء الفرسانُ المتباهون لهم شعر أسودُ وعينان سوداوان وبشرة داكنة. وهم مختلفون عن أهل القرية اختلاف اللّيل عن النّهار. يكادُ وصول هؤلاء القلموقيّين داكني اللّون إلى القرية يقودُ أهلها إلى الجنون خوفا.

في الأثناء، سحب الفرسان خيولهم بين المنازل. وكان واحد منهم، وهو رجل جالسٌ في مكانه بزيّ نظاميّ مزرّر وقبّعة ضبّاط، يطلق الأوامر. نزلوا عن أحصنتهم. وربطوها في الأسيجة. ومن سروجهم سحبوا قطعا من اللّحم مطبوخة بحرارة الفارس وحصانه. أكلوا هذا اللّحم الرّماديّ الأزرق بأيديهم. وشربوا من القرع، وهم يسعلون ويبصقون أثناء الابتلاع.

أصبح بعضهم ثملا حتّى الآن. واندفعوا إلى الأكواخ. أمسكوا بالنّساء اللّواتي لم يختبئن. فحاول الرّجال الدّفاع عنهنّ بمناجلهم. قطع

قلموقيّ واحدا منهم بضربة من سيفه. وحاول الآخرون الفرار. لكنّ الطّلقات النّاريّة قد أوقفتهم.

انتشر القلموقيّون في جميع أنحاء القرية. وامتلأ الهواءُ بالصّرخات القادمة من كلّ ركن. هرعتُ إلى كتلة كثيفة صغيرة من شجيرات التّوت التي توجد في مركز السّاحة الكبرى. وانبطحتُ على الأرض مثل دودة.

كنت أراقبُ القرية بانتباه وهي تنفجرُ رعبا. حاول الرّجالُ أن يحموا المنازل التي دخلها القلموقيّون سلفا. فرقع المزيدُ من الطّلقات النّاريّة. وركض رجل مصاب في الرّأس مترنّحا في دوائر، وقد أعماهُ دمه النّازفُ. فأخمده قلموقيّ آخر. انفرط الأطفال بقوّة، متعثّرين بالخنادق والأسيجة. ركض واحد منهم إلى الشّجيرات حيث أختبئ. ولكنّه حين رآني بدّل وجهته راكضا من جديد ليدوسه خببُ الخيل.

يسحبُ القلموقيّون امرأة نصف عارية خارج منزلها. ظلّت تقاومُ وتصرخ، محاولة عبثا أن تصيب معذّبيها برجليها. جمّع فرسانٌ ضاحكون حلقة من النّساء والفتيات بواسطة سياط الخيل. ركض آباؤهنّ وأزواجهنّ وإخوتهنّ متوسّلين الرّحمة. لكنّ السّياط والسّيوف صدّتهم بعيدا. فرّ مزارع آخر في الطّريق الرّئيسيّة بيد مقطوعة. كان الدّم ينزّ بقوّة من عقبها، فيما ظلّ هو يبحث عن عائلته.

على مقربة من هؤلاء، مدّد جنود امرأةً على الأرض بالقوّة. أمسكها جنديّ من حنجرتها، فيما باعد الآخرون بين ساقيها. ركبها أحدهم. وظلّ يهتزّ من فوقها، صارخا بحماسة. قاومت المرأة. وانتحبت. وعندما أنهى الأوّل، اعتدى عليها الآخرون تباعا. وسرعان ما ارتخت. وكفّت عن المقاومة.

امرأة أخرى دُفعت إلى الخارج. صرخت. وتوسّلت. لكنّ القلموقيّين جرّدوها من ملابسها وألقوا بها على الأرض. واغتصبها رجلان في الآن نفسه، واحد منهما من فمها. وعندما حاولت أن تدير رأسها جانبا أو تغلق فمها، تمّ جلدها بالسّوط. وفي النّهاية، استنفدت قواها. واستسلمت بشكل سلبيّ. ظلّ جنودٌ آخرون يغتصبون من الأمام ومن الخلف فتاتين يافعتين، مُمرّرين إيّاهما من رجل إلى آخر. ويجبرونهما على القيام بحركات غريبة. وكلّما حاولت الفتاتان المقاومة جُلدتا هما أيضا ورُكلتا بالأقدام.

تُسمع صرخات النّساء المغتصَبات في كلّ المنازل. تمكّنت إحدى الفتيات من الهرب والرّكض نصف عارية في الخارج، والدّم ينزّ من بين فخذيها، وهي تعوي مثل كلب مجلود. لاحقها جنديّان نصف عاريان وهما يضحكان. طارداها حول السّاحة وسط ضحك رفاقهم ونكاتهم. أمسكاها في النّهاية، بينما يراقبُ الأطفال المنتحبون المشهد.

استمرّ القبضُ على الضّحايا الجدد في كلّ مرّة. وازداد هيجانُ القلموقيّين المخمورين شيئا فشيئا. ينضمّ بعضهم إلى البعض الآخر. فيتنافسون في اغتصاب النّساء بطرق غريبة: اثنان أو ثلاثة رجال لامرأة واحدة أو العديدُ من الرّجال في تتابع سريع. كانت الفتيات الأصغر سنّا والأجمل يُمزَّقن تقريبا. كما أنّ خصومات نشأت بين الجنود بسببهنّ. انتحبت النّساءُ. وصلّين بصوت عال. أمّا أزواجهنّ وآباؤهنّ وأبناؤهنّ وإخوتهنّ الذين أصبحوا الآن مقيّدين داخل المنازل، فقد تعرّفوا إلى أصواتهنّ. وردّوا عليها بصراخ مجنون.

في منتصف الميدان، يعرضُ بعض القلموقيّين مهاراتهم في اغتصاب النّساء على ظهور الخيل. نزع أحدهم زيّه النّظاميّ، مُحتفظا فقط بجزمته في

ساقيه المكسوّتين بالشّعر. ثمّ التفّ بحصانه مرّات ومرّات. والتقط من الأرض وبعناية امرأة عارية حملها من أجله الجنودُ الآخرون. جعلها تجلسُ على ظهر الحصان أمامه، وهو يقابلها. خبّ الحصانُ بشكل أسرع، فيما سحبها هو إليه وجعل ظهرها يتمدّدُ إزاء فروته. ومع كلّ اندفاعة من الجواد، يلجها هو من جديد، مطلقا صرخة انتصار مدويّة. حيّا الآخرون آداءه بالتّصفيق. فأدار الفارسُ المرأة بحركة بارعة حتّى أصبحت ملتفتة إلى الأمام. رفعها قليلا إلى أعلى. وكرّر إنجازه من الخلف، معتصرا ثدييها.

قفز قلموقيّ آخر بعد أن حفّزه رفاقه على نفس الحصان، خلف المرأة مُسندا ظهره إلى عنق الحيوان الذي تأوّه بسبب الثّقل وأبطأ قليلا، بينما اغتصب الجنديّان المرأة المغمى عليها في نفس الوقت.

تتابعت الإنجازاتُ الواحدة بعد الأخرى. فكانت النّساءُ العاجزاتُ يُنقلن من حصان مُسرع إلى آخر. وحاول أحد القلموقيّين أن يضاجع فرسا، بينما أثار آخرون فحلا من الخيول. وحاولوا أن يدفعوا بفتاة تحته، ممسكين بها من ساقيها.

انغرزْتُ أعمق بين الشّجيرات، يكتسحني الفزع والتّقزّز. لقد فهمتُ الآن كلّ شيء. وأدركتُ لِمْ لمْ يُصغ الرّبُّ إلى صلواتي، لم علّقتُ في خطّاف وضربني غاربوس وفقدتُ الكلام. إنّني أسودُ. شعري وعيناي سوداوان مثل هؤلاء القلموقيّين. لا شكّ أنّني انتميتُ إليهم في عالم آخر. وليس هناك رحمة تحلّ على من هو مثلي. إنّه مصير فظيع قضى عليّ بأن أكون أسود الشّعر والعينين مثل جماعة المتوحّشين هؤلاء.

فجأة، خرج رجل عجوز طويل القامة أبيض الشّعر من إحدى الحظائر. كان المزارعون يلقّبونه بالقدّيس. وربّما يعتبر نفسه كذلك. كان يُمسكُ بكلتا يديه صليبا خشبيّا ثقيلا، ويضع على رأسه الأبيض إكليلا من أوراق البلّوط المصفرّة. عيناهُ الفاقدتان للبصر مرفوعتان إلى السّماء. وساقاهُ الحافيتان المعوجّتان بسبب السنّ والمرض تبحثان عن مسلك. غادرت فمه الخالي من الأسنان كلماتُ مزمور منغّمة بترنيمة حداد، فيما كان يوجّه صليبه نحو أعدائه الذين لا يراهم.

صحا الجنود لوهلة من سكرهم. وحتّى المخمورون نظروا إليه بانزعاج مُتضايقين بشكل واضح. ثمّ ركض أحدهم نحو الرّجل العجوز. وعثّرهُ. فسقط أرضا. وانفكّ الصّليب من بين يديه. صرخ القلموقيّون بسخرية. وانتظروا ما سيحدث. حاول الشّيخُ بحركات ثابتة أن ينهض، وهو يتحسّس بيديه بحثا عن الصّليب. فتّشت يداهُ المجعّدتان بعظمهما النّاتئ الأرض بصبر، فيما قلب الجنديّ الصّليب بقدمه وهو يقترب منه. زحف العجوز متمتما، يئنّ بخفوت. ثمّ شعر بالإنهاك أخيرا. وتنهّد بصوت أجشّ. رفع القلموقيّ الصّليب الثّقيل. وأقامه منتصبا. تأرجح لوهلة. ثمّ سقط على الهيكل المنحني. أنَّ الرّجل العجوز. وتوقّف عن الحركة.

صوّب جنديّ سكّينا على إحدى الفتيات التي كانت تحاول أن تزحف بعيدا. فحُملت وهي تنزفُ إلى الوحل. ولم يُعرها أحدٌ أيّ انتباه. مرّر القلموقيّون السّكارى النّساء الملطّخات بالدّماء فيما بينهم، وهم يضربونهنّ ويجبرونهنّ على القيام بأعمال غريبة. اندفع واحد منهم إلى إحدى المنازل. وجلب معه فتاة صغيرة تناهز الخامسة من العمر. رفعها

عاليا حتّى يراها رفاقُه جيّدا. مزّق لباس الطّفلة. وركلها في بطنها، بينما زحفت أمّها في الغبار تتوسّل الرّحمة. فتح أزرار سرواله ببطء. وخلعه فيما يُمسكُ الفتاة الصّغيرة فوق خصره بيد واحدة. ثمّ انحنى. وولج الفتاة الصّارخة باندفاعة مُفاجئة. وعندما تراخت الفتاةُ، ألقى بها بعيدا بين الشّجيرات. وانصرف إلى أمّها.

عند بوّابة أحد المنازل، يقاتلُ بعض الجنودُ مزارعا قوّيّ البنية، يقف عند العتبة ويؤرجحُ فأسا بغضب وحشيّ. عندما تغلّب عليه الجنود في النّهاية، قاموا بجرّ نساء خدرات من الرّعب من شعورهنّ إلى خارج المنزل. جثم ثلاثة جنود على الزّوج، بينما عذّب البقيّةُ زوجته. واغتصبوها.

ومن ثمّ سحبوا اثنتين من بنات الرّجل اليافعات. انتهز المزارع ارتخاء قبضة القلموقيّين. فقفز. ووجّه ضربة إلى أقرب واحد إليه. سقط الجنديّ أرضا، وقدُسحِق رأسه مثل بيضة السّنونو. تسرّب الدّمُ مع قطع صغيرة من دماغه، تُشبه الجوز المتكسّر، من خلال شعره. أحاط الجنودُ السّاخطون بالمزارع. فتغلّبوا عليه. واغتصبوه. ثمّ أخصوهُ أمام زوجته وبناته. اندفعت المرأة المسعورة للدّفاع عنه، وهي تعضّ وتخدشُ بأظافرها. هدر القلموقيّون مستمتعين. وأمسكوا بها بسرعة. ثمّ فتحوا فمها غصبا. وألقوا بِمِزَق اللّحم الدّامية عبر حلقها.

اشتعلت النّيرانُ في إحدى المنازل. وخلال الفوضى التي نتجت عن ذلك، هرب بعضُ المزارعين إلى الغابة، يجرّون معهم نساء دائخات وأطفالا متعثّرين. كان القلموقيّون يطلقون النّار عشوائيّا،

وقد داسوا بعض النّاس بخيولهم. ثمّ أسروا ضحايا جددا، شرعوا في تعذيبهم على الفور.

اختبأتُ وسط شجيرات التّوت، فيما يتسكّع القلموقيّون المخمورون في الأنحاء. لقد تضاءلت فرص بقائي هناك دون أن يُلاحظني أحد. لم أعد قادرا على التّفكير. تجمّدتُ من الرّعب. وأغمضتُ عينيّ.

عندما فتحتُهما مجدّدا، رأيتُ أحد القلموقيّين، وهو يترنّحُ قادما باتّجاهي. التصقتُ بالأرض أكثر من قبل. وأوشكتُ أن أتوقّف عن التّنفّس. التقط الجنديّ بعض حبّات التّوت. وأكلها. خطا خطوة أخرى بين الشّجيرات. فداس على يدي الممدودة. وانغرز كعبُ حذائه ومخالبه في لحمي. كان الألمُ طاحنا. لكنّني لم أتحرّك. استند الجنديّ إلى بندقيّته. وتبوّل في هدوء. فجأة، فقد توازنه. خطا إلى الأمام. وتعثّر برأسي. وحين قفزتُ محاولا الهرب، أمسك بي. وضربني بعقب بندقيّته في صدري. تصدّع شيء بداخلي. وسقطتُ. لكنّني نجحتُ في أن أعثّر الجنديّ. وما أن وقع، حتّى عدوتُ متقلّبا في كلّ الاتّجاهات نحو المنازل. أطلق القلموقيّ النّار عليّ. لكنّ الرّصاصة ارتدّت في الأرض. وأطلقت طنينا قويّا. صوّب عليّ مجدّدا. وأخفق الهدف. اقتلعتُ لوحا من إحدى الحظائر. وانسللتُ، مُختبئا داخل القشّ.

كنتُ ما أزالُ قادرا في الحظيرة على سماع صراخ النّاس والحيوانات وطلقات البنادق وطقطقة الأكواخ والمنازل المحترقة وصهيل الخيول وضحك القلموقيّين الصّاخب. هناك امرأة تئنّ بصوت خافت من حين إلى آخر. غصتُ أكثر في القشّ رغم أنّ كلّ حركة تؤلمني كثيرا. تساءلتُ عمّ انكسر داخل صدري. وضعتُ يدي إزاء قلبي. وكان ما يزالُ ينبضُ.

لم أرغب في أن أصبح مُقعدا. غفوتُ رغم الضّجيج من حولي، مُنهكا ومرعوبا.

استيقظتُ مع انطلاقة جديدة. لقد هزّ الحظيرةَ انفجارٌ قويّ. فتداعت بعضُ العوارض الخشبيّة. وحجبت غيومُ الغبار كلّ شيء. سمعتُ طلقات البنادق المتفرّقة والفرقعة المتواصلة للأسلحة الرّشّاشة. استرقتُ النّظر في حذر. فرأيتُ الأحصنة مذعورةً تخبُّ بسرعة، بينما القلموقيّون شبه عراة يحاولون القفز فوقها. كان بإمكاني سماعُ صوت إطلاق النّار وهدير المحرّكات قادما من جهة النّهر والغابة. هناك طائرة بنجمة حمراء على جناحيها تحلّقُ بشكل منخفض فوق القرية. توقّف بعد لحظات قصفُ المدافع. لكنّ صوت المحرّكات ازداد قوّة. من الواضح أنّ السّوفييت قد صاروا على مقربة. لقد وصل الجيش الأحمر والمفوّضون.

سحبتُ نفسي إلى الخارج. لكنّ الألم في صدري كاد يسقطني هالكا. سعلتُ. وبصقتُ شيئا من الدّم. تحاملتُ على نفسي حتّى أتمكّن من المشي. وسرعان ما وصلتُ إلى التّلّة. لقد اختفى الجسر. ولا بدّ أنّ الانفجار العظيم قد دمّره. تزحفُ الدّبّاباتُ ببطء من الغابة، يعقبها جنود يرتدون خوذاتهم ويتمشّون بتراخٍ كأنّهم في نزهة مساء الأحد. اختبأ القلموقيّون عند القرية خلف أكوام التّبن. ولكنّهم حين رأوا الدّبّابات، خرجوا من مخابئهم مذهولين ورافعين أياديهم إلى أعلى. وألقوا بنادقهم وأحزمة مسدّساتهم أرضا. ثمّ ركع بعضهم توسّلا للرّحمة. وبشكل آليّ، تحلّق بهم الجنود الحمرُ، يلكزونهم بحراب

أسلحتهم. تمّ القبض على معظمهم خلال وقت وجيز، بينما كانت خيولهم ترعى بهدوء في الجوار.

توقّفت الدّبّاباتُ. لكنّ مجموعات جديدة من الرّجال استمرّت في الوصول. ولاحت عوّامة في النّهر. تفحّص خبراء الجسرَ المنهار. وحلّقت عدّة طائرات فوق الرّؤوس، مُخفضة أجنحتها للتّحيّة. شعرتُ على نحو مّا بالخيبة. إذ يبدو أنّ الحرب قد انتهت.

امتلأت الحقول التي تحيط بالقرية بالآلات. أقام الرّجال الخيام والمطابخ الميدانيّة. وثبّتوا أسلاك الهاتف. ثمّ أنشدوا الأغنيات. وتكلّموا بلغة تشبه اللّهجة المحلّيّة. ومع ذلك، لم تكن مفهومة تماما بالنّسبة إليّ. وخمّنتُ أنّها الرّوسيّة.

تأمّل المزارعون الزّائرين بقلق. وكلّما أبرز بعضُ الجنود الحمر وجوههم الأوزبكيّة أو التّتاريّة الشّبيهة بوجوه القلموقيّين، صرخت النّساءُ وتراجعت من الخوف، رغم أنّ وجوه القادمين الجدد كانت مُبتسمة.

سارت مجموعة من المزارعين إلى الحقل، وهي تحملُ أعلاما حمراء بمطارق ومناجل مرسومة بشكل مرتجل. حيّاهم الجنودُ مُهلّلين. وغادر قائدُ الفوج خيمته ليلتقي بهم. صافحهم. ودعاهم عنده. شعُر المزارعون بالإحراج. ونزعوا قبّعاتهم. لم يعرفوا ما الذي ينبغي عليهم فعله بالأعلام. وفي النّهاية، تركوها خارج الخيمة قبل دخولهم.

قرب شاحنة بيضاء رُسم على سقفها صليب أحمر، يعالجُ طبيب ذو معطف أبيض ومساعدوه النّساءَ والأطفال المصابين. تحلّق حشد من النّاس بسيّارة الإسعاف، مُتطلّعين لرؤية كلّ ما يحدث.

لحق الأطفال بالجنود طلبا للحلوى. وقد كان هؤلاء يحتضنونهم ويلاعبونهم.

عند الظّهيرة، علمت القرية أنّ الجنود الحمر قد علّقوا كلّ القلموقيّين الذين قبضوا عليهم من أرجلهم في أشجار البلوط، على امتداد النّهر. ورغم الألم في صدري ويدي، حملتُ نفسي إلى هناك لاحقا بحشد الفضوليّين من الرّجال والنّساء والأطفال.

يمكن للمرء أن يرى القلموقيّين من بعيد، معلّقين في الأشجار مثل أكواز الصّنّوبر المتثاقلة. كلّ واحد منهم مُثبّت إلى شجرة مختلفة، يتدلّى من كاحليه ويداه مقيّدتان خلف ظهره. تجوّل الجنودُ السّوفييت بهدوء في الأنحاء مبتسمين، وهم يلفّون السّجائر بورق الصّحف. ورغم أنّهم لم يسمحوا للمزارعين بالاقتراب، إلاّ أنّ بعض النّساء قد تعرّفن على معذّبيهنّ. وأخذن يلعنّهم ويلقين قطعا من الخشب والفضلات على الأجساد المتدلّية المتراخية.

زحف النّمل والذّباب على جثث القلموقيّين. اندسّ في أفواههم المفتوحة وأنوفهم وعيونهم. وأقام أعشاشا في آذانهم. واحتشد فوق شعورهم الخشنة. لقد جاء بالآلاف وتقاتل للحصول على أفضل المواقع.

تأرجح الرّجال في الرّيح. وتقلّب بعضهم ببطء مثل نقانق داخنةٍ في النّار. ارتجف بعضهم. وأطلق صراخا أجشّ أو همسة، فيما بدا آخرون مفرغين من الحياة. يتدلّون بعيون واسعة ثابتة، وعروق رقابهم منتفخة بشكل مخيف. أشعل المزارعون نارا في الجوار.

وجلست عائلات بأكملها تُشاهدُ القلموقيّين المعلّقين، وهي تستذكرُ قسوتهم. وتبتهج لنهايتهم هذه.

هزّت هبّةُ ريح الأشجار. فارتعشت الأجسادُ المتدلّيةُ في دوائر متنامية. ورسم المزارعون المتفرّجون علامة الصّليب. نظرتُ من حولي بحثا عن الموت. إذ شعرتُ بنفَسه في الهواء. كان لهُ وجه مارتا الميّتة، وهي تتخلّلُ أشجار البلّوط. تمرّرُ يدها برفق على المعلّقين. فتلفّهم بخيوط العنكبوت التي تخرج من جسدها الشّفّاف. همس في آذانهم كلمات غادرة. وأسال قشعريرة باردة في قلوبهم. ثمّ خنق حناجرهم.

لقد كان قريبا منّي أكثر من أيّ وقت مضى. كدتُ ألمسُ كفنه الهوائيّ وأحدّق في عينيه الضّبابيّتين. توقّف أمامي مُستعرضا نفسه في غنج وملمّحا إلى لقاء آخر. ولم أكن خائفا منه. كنتُ أودّ أن يأخذني معه إلى الجهة الأخرى من الغابة، إلى المستنقعات التي لا نهاية لها، حيثُ الأغصانُ تغوص في المراجل المُبخرة بفقاعاتها الكبريتيّة الدّاخنة وحيثُ يسمع المرء ليلا الصّوت الرّقيق الجّافّ لجماع الأشباح وهسيسَ الرّياح الحادّ في أطراف الأشجار الذي يُشبه كمانا في غرفة بعيدة.

مددتُ يدي أمامي. لكنّ الشّبح اختفى بين الأشجار المثقلة بأوراقها المتشابكة والمحصولِ الثّقيل من الجثث المتدلّية.

شيء مّا بدا كأنّه يحترق في داخلي. كان رأسي يدور والعرق يغطّي جسدي. مشيتُ باتّجاه ضفّة النّهر. فخفّف النّسيمُ الرّطبُ حرارتي. وجلستُ على الحطب.

كان النّهرُ واسعا هنا. يجرفُ تيّارهُ السّريعُ الخشب والأغصان المكسورة ومزقا من الخيش وحزما من القشّ في دوّامات متواصلة. ومن

حين إلى آخر، تطفو على مياهه جثّة حصان منتفخة. مرّةً، حسبتني رأيتُ جثّة بشريّة متعفّنة ومزرقّة تحوم تحت السّطح تماما. شفّت المياهُ للحظة. ثمّ برزت أكداس من الأسماك التي قضت عليها الانفجارات. كانت تتدحرجُ متدفّقة بعضها فوق بعض ومحتشدة معا، كأنّه لم يعد هناك مكان من أجلها في هذا النّهر الذي جلبها إليه منذ زمن بعيد قوس قزح.

كنتُ أرتجفُ. وقرّرتُ أن أقترب من الجنود الحمر، رغم أنّني لم أكن متيقّنا من الطّريقة التي سينظرون بها إلى ذوي الشّعر الأسود وعيون السّحرة. وبينما أمرّ بصفوف الجثث المعلّقة، خمّنتُ أنّني تعرّفت على الرّجل الذي ضربني بعقب بندقيّته. ظلّ يتأرجحُ في دوائر واسعة. فمهُ فاغر. ويمتطيه حشد من الذّباب. رفعتُ رأسي إلى أعلى كي أرى وجهه بشكل أوضح. وكان الألم ما يزال يخترقُ صدري.

16

مرّت أسابيع. وأُطلق سراحي من مُستشفى الفوج. كان ذلك خريف 1944. لقد اختفى الألم في صدري. ومهما كان ذلك الشّيء الذي تكسّر بعقب بندقيّة القلموقيّ، فقد شُفي الآن.

وخلافا لما كنتُ أخشاهُ، سُمح لي بالبقاء مع الجنود. ولكنّني عرفتُ أنّ هذا الأمر مؤقّت. لقد توقّعتُ أن أُترك في إحدى القرى، عندما يغادر الفوجُ إلى الجبهة الأماميّة. وفي الأثناء، خيّم عند النّهر، دون أن يوحي أيّ شيء برحيله الوشيك. إنّه فوج اتّصالات مُشكَّل أساسا من جنود يافعين جدّا وضبّاط مجنّدين حديثا، كانوا أطفالا عندما انطلقت الحربُ. المدافعُ والمدافعُ الرّشّاشة والشّاحنات والمعدّات التلغرافيّة والتّليفونيّة كانت كلّها جديدة تماما ومشحّمة بشكل جيّد. ومع ذلك، لم تختبرها الحرب حتّى الآن. أمّا قماش الخيام والأزياء الرّسميّة، فلم تجد الوقت بعد ليبهت لونها.

ما تزالُ الحربُ والجبهة الأماميّة بعيدين جدّا في أراضي العدوّ. تعلنُ الإذاعة بشكل يوميّ عن هزائم جديدة للجيش الألمانيّ وحلفائه المنهكين. يُصغي الجنودُ بانتباه إلى التّقارير، وهم يومئون برؤوسهم بفخر. ثمّ يواصلون تدريباتهم. كتبوا رسائل طويلة لأهاليهم وأصدقائهم، معربين

عن شكوكهم في أن تكون لهم فرصة المشاركة في المعركة قبل أن تنتهي الحرب. فالألمان قد تمّ رميهم في طريق الخروج من قبل إخوتهم الكبار.

الحياةُ مع الفوج هادئة ومنظّمة بشكل جيّد. تحطّ طائرة ثنائيّةُ السّطح كلّ بضعة أيّام على ميدان المطار المؤقّت. فتجلب معها البريد والصّحف. قدمت الرّسائلُ بأخبار الوطن، حيث شرع النّاس في إعادة بناء الأنقاض. وعرضت صور الصّحف المدن السّوفياتيّة والألمانيّة التي تعرّضت للقصف والحصون المحطّمة والوجوه الملتحية للسّجناء الألمان في صفوف لا نهاية لها. وازداد انتشار الشّائعات التي تعلنُ نهاية الحرب أكثر فأكثر بين الضّبّاط والجنود.

اعتنى بي رجلان اثنان معظم الوقت: غافريلا، وهو مسؤول سياسيّ في الفوج يُقال إنّه فقد عائلته كلّها خلال الأيّام الأولى من الغزو النّازيّ وميتْكا الملقَّبُ بـ"ميتْكا الوقواق"، مدرّبُ نخبة القنص وقنّاص من الطّراز الأوّل.

تمتّعتُ أيضا بحماية العديد من أصدقائهما. اعتاد غافريلا أن يقضّي معي بعض الوقت كلّ يوم في المكتبة الميدانيّة. وقد علّمني القراءة. ففي النّهاية، تجاوز سنّي الحادية عشرة، كما كان يقول لي. والأطفال الرّوس الذين هم في مثل سنّي لا يمكنهم أن يقرؤوا ويكتبوا فحسب، بل بإمكانهم أيضا قتال العدوّ إذا اقتضى الأمر ذلك. لم أرد أن يُنظر إليّ بوصفي طفلا. ولذلك درستُ بجدّ. وراقبتُ الجنود، مُحاكيا سلوكهم.

أعجبتني الكتبُ بشكل عظيم. فمن خلال صفحاتها المطبوعة ببساطة، يمكن للمرء أن يستحضر عالما حقيقيّا، كأنّه يُدركه بحواسّه. بالإضافة إلى ذلك، يُشبه عالم الكتب اللّحم الذي في العلب. فهو بطريقة مّا أكثر ثراء وبهارات من تقلّبات الحياة اليوميّة. في الحياة اليوميّة مثلا، يرى المرء أناسا كثيرين دون أن يتعرّف إليهم حقّا. ولكن في الكتب، بإمكانه أن يطّلع على ما يفكّرونه به ويخطّطون له.

قرأتُ كتابي الأوّل بمساعدة غافريلا. وعنوانهُ "الطّفولة". وقد فقد بطلهُ، وهو طفلٌ صغير مثلي، أباه في الصّفحة الأولى. قرأتُ هذا الكتاب مرّات عديدة. وقد ملأني بالأمل. فحتّى بطلُه لم تكن حياته سهلة أيضا. لقد تُرك وحيدا بعد وفاة أمّه. وعلى الرّغم من صعوبات كثيرة اعترضتهُ، فقد كبر ليصبح، كما قال غافريلا، رجلا عظيما. إنّه مكسيم غوركي، أحد أعظم الكتّاب الرّوس على الإطلاق. تملأ كتبُه العديد من رفوف المكتبة الميدانيّة. وهي مشهورة لدى النّاس في شتّى أنحاء العالم.

أحببتُ الشّعر أيضا. كان مكتوبا في شكل يُشبهُ الصّلوات. لكنّه أجمل بكثير ومفهوم بشكل أكبر. في المقابل، لا تؤمّنُ القصائدُ أيّام الرّحمة والبركة. ولكن، لا يحتاجُ المرءُ أن يتلو الشّعر تكفيرا لذنوبه. فالشّعر هدفه المتعة. تتناغمُ الكلماتُ المشذّبةُ النّاعمةُ بعضها مع بعض، مثلما يطحنُ حجر الرّحى المزيّتُ ما بداخله حتّى يخلص إلى مزيج مثاليّ. ولكنّ القراءة لم تكن شغلي الأساسيّ، لأنّ دروسي مع غافريلا أكثر أهمّيّة من ذلك.

تعلّمتُ منه أنّ نظام العالم لا علاقة له بالرّبّ وأنّ الرّبّ لا شأن له بالعالم. إنّ السبب فيما يحدث بسيط جدّا. وهو أنّ الرّبّ ليس موجودا. لقد اخترعه الكهنة الماكرون حتّى يخدعوا النّاس الأغبياء المولعين

بالخرافات. ليس هناك ربٌّ أو ثالوث مقدّس أو شياطين أو أشباح أو غيلانٌ تنهضُ من القبور. ليس هناك موتٌ يحلّقُ في كلّ مكان بحثا عن مذنبين جدد ليوقع بهم في شراكه. إنّها حكايات النّاس الجهلة الذين لم يفهموا النّظام الطّبيعيّ للعالم ولم يؤمنوا بقدراتهم الخاصّة. ولذلك اضطرّوا إلى اللّجوء إلى إيمانهم بإله مّا.

يُحدّدُ النّاس، وفق ما يقوله غافريلا، بأنفسهم مسارَ حيواتهم. وهم وحدهم أسيادُ مصائرهم. ولهذا السّبب يُعتبر كلّ إنسان مهمّا للغاية. وعليه لنفس السّبب، وبشكل مصيريّ، أن يعرف ما الذي يجدر به فعله وما هو هدفه. يمكنُ للفرد أن يعتقد أنّ أفعاله لا أهمّية لها. ولكنّ ذلك مجرّد وهم. إنّ أفعاله، مثل أفعال آخرين لا حصر لهم، تُشكّل طرازا عظيما لا يمكنُ تمييزهُ إلاّ من قبل نخبة المجتمع، تماما مثل حركات الإبرة في يد امرأة والتي تبدو في الظّاهر عشوائيّة، تُساهمُ في الطّراز الزّهريّ الجميل الذي يظهر في النّهاية على مفرش أو غطاء سرير.

وفي ارتباط بإحدى قواعد التّاريخ البشريّ، قد يبزغُ من حين إلى آخر، حسب ما يقوله غافريلا، رجل وسط أكوام النّاس الهائلة والتي لا تملك اسما، يريدُ صلاح الآخرين. وبفضل معرفته وحكمته الفائقة، يعرفُ أنّ انتظار المساعدة الإلهيّة لن يُسهم حقّا في حلّ المشاكل على الأرض. مثل هذا الرّجل يصبحُ قائدا، واحدا من العظماء يقود النّاس في أفكارهم وأفعالهم، مثلما يقودُ الحائكُ خيوطه الملوّنة عبر تعقيدات الطّراز.

تُعرضُ بورتريهات هؤلاء الرّجال العظماء وصورهم في مكتبة الفوج والمستشفى الميدانيّ وقاعة الاستراحة والخيام ومواقع الجنود. ولطالما تأمّلتُ وجوه هؤلاء الرّجال الحكماء العظماء. كان العديد منهم ميّتا. وبعضهم الآخر يملكُ أسماء قصيرة مدوّية ولحى كثيفة طويلة. أمّا آخرهم، فقد كان ما يزالُ حيّا. بورتريهاته أكبر حجما وأكثر لمعانا. وهو أشدّ وسامة من الآخرين. قال غافريلا إنّه تحت قيادته تمكّن الجيشُ الأحمر من أن يهزم الألمان ويحرّر الشّعوب، مُقدّما لها نمطا جديدا في الحياة يُساوي بين الجميع. لن يكون هناك غنيّ ولا فقير ولا مستثمِرون ولا مُستثمَر فيهم. لا اضطهاد من قبل الشّقر لداكني البشرة. ولن يُحكم على أحد بغرف الغاز. يدينُ غافريلا، مثل كلّ الضّبّاط والرّجال الآخرين في الفوج، بكلّ ما يملكه لهذا الرّجل: التّعليم والرّتبة والبيت. تدينُ المكتبة أيضا بكلّ كتبها المجلّدة المطبوعة بشكل جميل له. وأنا مدينٌ لهُ بعناية أطبّاء الجيش وشفائي. كلّ مواطن سوفياتيّ مدين لهذا الرّجل بكلّ ما يملكهُ.

واسمُ هذا الرّجل ستالين.

لهُ في البورتريهات والصّور وجه لطيف وعينان عطوفتان. بدا مثل جدّ أو عمّ محبّ لم يُر لفترة طويلة ويرغبُ في أن يحتضنك بين ذراعيه. قرأ لي غافريلا وحدّثني عن العديد من الحكايات التي تتعلّقُ بحياة ستالين. وكان ستالين في مثل سنّي قد ناضل من أجل حقوق المحرومين، مقاوما استغلال الفقراءِ الممتدَّ على قرون طويلة من قبل الأغنياء القساة.

شاهدتُ صوره في شبابه. كان لهُ شعرٌ كثيفٌ أسودُ فاحمٌ، عينان سوداوان، حواجبُ ثقيلة وفي وقت لاحق أيضا شاربٌ أسودُ. بدا غجريّا

أكثر منّي حتّى ويهوديّا أكثر من اليهوديّ الذي قتله الضّابط الألمانيّ ذو الزّيّ الأسود، يهوديّا أكثر من الفتى الذي عثر عليه المزارعون على مسلك السّكك الحديديّة. كان ستالين محظوظا لأنّه لم يعش طفولته في القرى التي مكثتُ فيها. لو كان قد ضُرب في طفولته طيلة الوقت بسبب ملامحه الدّاكنة، لما وجد الوقت الكافي ربّما ليساعد الآخرين، ولكان على الأرجح مشغولا دائما بصدّ فتيان القرية وكلابها.

لكنّ ستالين كان جورجيّا. لم يخبرني غافريلا إذا كان الألمان قد خطّطوا لحرق الجورجيّين. ولكنّني حين أتأمّل الأشخاص المحيطين بستالين في الصّور، لا أملكُ أدنى شكّ أنّه في حال قبض عليهم الألمانُ سيُلقَون معا في المحارق. لقد كانوا جميعا ذوي شعر أسود داكن وعينين قاتمتين أيضا.

ولأنّ ستالين يعيشُ في موسكو، فقد كانت قلب البلد كلّه والمدينة الموعودة للجماهير العاملة في العالم بأسره. يغنّي الجنودُ أغاني عن موسكو. يؤلّفُ الكتّابُ كتبا عنها. ويمجّدها الشّعراء في قصائدهم. أُنجزت أفلام عنها. وانتشرت حكايات مدهشة تخصّها. يبدو أنّ قطارات طويلة لامعة دُفنت عميقا تحت شوارعها مثل مناجذ عملاقة، وهي تتقدّمُ بسلاسة. ثمّ تتوقّف دون ضجّة في محطّات مزيّنة بفسيفساء ورخام أكثر رفعة من ذلك الموجود في أجمل الكنائس.

أمّا بيت ستالين فهو الكرِمْلين. قُصور قديمةٌ وكنائسُ عديدة تقفُ هناك في مجمع واحد خلف جدار عال. يمكنُ للمرء أن يرى فوقهُ القباب التي تُشبهُ حبّات فجل عملاقة بجذورها المُشيرة إلى السّماء. هناك صورٌ أخرى تعرضُ أنحاء من الكرملين حيثُ كان يعيشُ لينين، معلّمُ ستالين الرّاحل. كان بعضُ الجنود أكثر إعجابا بلينين وآخرون

بستالين، تماما كما يتحدّثُ بعض المزارعين أكثر عن الرّب الآب وآخرون عن الرّب الابن.

يقول الجنودُ إنّ نوافذ مكتب ستالين في الكرملين تظلُّ مُنارةً إلى وقت متأخّر في اللّيل، وإنّ أهل موسكو إلى جانب كلّ الجماهير العاملة في العالم تتطلّعُ نحو تلك النّوافذ فتجدُ إلهاما وأملا مُستجدّين من أجل المستقبل. هناك يرعاهم ستالين العظيم. ويعمل من أجلهم جميعا. ويبتكر الطّرق الأمثل لكسب الحرب وتدمير أعداء الجماهير العاملة. كانت رأسهُ ممتلئة بالقلق على كلّ النّاس المعذّبين، حتّى أولئك الذين ما زالوا يعيشون في بلدان بعيدة تحت سطوة الاضطهاد الفظيع. لكنّ يوم تحريرهم قد اقترب. وليقترب ذلك اليوم أكثر، كان على ستالين أن يعمل حتّى وقت متأخّر في اللّيل.

بعد أن عرفتُ كلّ هذه الأشياء من غافريلا، صرتُ أتمشّى غالب الأحيان في الحقول. وأتأمّلها في ذهني. ندمتُ على كلّ صلواتي. فقد كانت مهدورة تلك الآلاف المؤلّفة من أيّام الرّحمة التي حصّلتها بواسطتها. إذا كان صحيحا أنّه لا وجود للرّبّ والابن والأمّ المباركة ولا حتّى القدّيسين الصّغار، فما الذي حدث لجميع صلواتي؟ أتُحوّمُ ربّما في الجنّة الخاوية مثل سرب طيور أفسد الأولادُ أعشاشها؟ أم أنّها في مكان سرّيّ تُقاومُ مثل صوتي المفقود كي تتحرّر؟

حين تذكّرتُ بعض الجمل في تلك الصّلوات، شعرتُ بأنّه قد تمّ خداعي. لقد كانت، مثلما قال غافريلا، مليئة بكلمات لا معنى لها. لماذا لم أكتشف ذلك من قبل؟ ولكن في المقابل، وجدتُ صعوبة كبرى في أن أصدّق أنّ الكهنة أنفسهم لم يؤمنوا بالرّبّ. وظلّوا يستخدمونه لخداع

الآخرين فحسب. وماذا عن الكنائس الرّومانيّة والأرثوذكسيّة؟ هل تمّ بناؤها أيضا، على حدّ كلمة غافريلا، فقط لهدف ترهيب النّاس من قوّة الرّبّ المُفتَرضة، مُجبرين إيّاهم على مساندة رجال الدّين؟ ولكن، إذا كان الكهنة يتصرّفون من منطلق إيمانيّ صادق، فما الذي سيحدث لهم إن اكتشفوا فجأة أنّه لا وجود لربّ وأنّه فوق أعلى قبّة للكنيسة توجد سماءٌ لا حدود لها، حيثُ تطير الطّائراتُ ذات النّجوم الحمراء المرسومة على أجنحتها؟ وما الذي سيفعلونه إذا اكتشفوا أنّ جميع صلواتهم لا قيمة لها وأنّ كلّ شيء قاموا به عند المذبح وكلّ شيء قالوه للنّاس من المنبر ليس أكثر من دجل؟

إنّ اكتشاف هذه الحقيقة المُرعبة سيحلّ عليهم صدمة أسوأ من موت أبٍ أو لمحة أخيرة إلى جسده المفرغ من الحياة. لطالما أراحَ النّاسَ دائما اعتقادُهم في الرّبّ. كما أنّهم يموتون عادة قبل أبنائهم. هذا هو قانون الطّبيعة. وعزاؤهم الوحيدُ هو معرفتهم أنّه بعد موتهم سيقودُ الرّبّ أبناءهم خلال حيواتهم على الأرض، تماما مثلما يجد الأبناء السّلوى الوحيدة في فكرة أنّ الرّبّ سيحيّي آباءهم ما وراء القبر. لطالما كان الرّبّ في أذهان النّاس، حتّى حين يكون هو نفسه مشغولا جدّا بسماع صلواتهم أو اقتفاء أثر أيّام رحمتهم المتراكمة.

ملأتني دروسُ غافريلا في نهاية المطاف بثقة جديدة. هناك طرقٌ واقعيّة في هذا العالم لترويج الخير. وهناك أشخاصٌ قد كرّسوا كلّ حيواتهم من أجل ذلك. وهؤلاء هم أعضاء الحزب الشّيوعيّ الذين تمّ انتقاؤهم من بين الشّعب كلّه، ليتلقّوا تدريبا مميّزا وتوكل لهم مهامّ خاصّة. كانوا مستعدّين لتحمّل المشقّة بما في ذلك الموت إذا اقتضت

قضيّةُ الطّبقة الشّغّيلة ذلك. يقفُ أعضاء الحزب عند تلك القمّة الاجتماعيّة التي يمكنُ للأعمال البشريّة أن تُرى منها لا بوصفها فوضى لا معنى لها وإنّما جزءا من طراز محدّد. يرى الحزبُ أبعد من أفضل قنّاص. ولذلك لا يعرفُ كلّ عضو في الحزب معنى الأحداث فحسب، بل يُشكّلها أيضا ويوجّهها نحو أهداف جديدة. ولذلك أيضا لا يتفاجئ أيّ عضو في الحزب بأيّ شيء أبدا. الحزب بالنّسبة إلى النّاس العاملين مثل المُحرّك بالنّسبة إلى القطار. يقودُ الآخرين إلى أفضل الأهداف. ويُشير إلى المختصرات التي تؤدّي إلى تحسين حيواتهم. وستالين هو المهندسُ المشرف على الدّوّاسة في هذا المحرّك.

كان غافريلا يعودُ دائما مبحوحا ومنهكا من اجتماعات الحزب الطّويلة والصّاخبة. يقيّمُ أعضاءُ الحزب بعضهم البعض في هذه الاجتماعات المتكرّرة. كلُّ واحد منهم ينقد الآخرين ونفسَه. يوجّه المدح إذا استلزم الأمر. ويُشير إلى النّقائص. كانوا على وعي مخصوص بالأحداث التي من حولهم. ويحاولون دائما أن يُحبطوا الأنشطة المؤذية للنّاس الواقعين تحت تأثير الكهنة ومُلاّك الأراضي. ومن خلال يقظتهم المستمرّة، أصبح أفراد الحزب ذوي مزاج حادّ مثل الفولاذ. هناك من بين أعضاء الحزب شباب وشيوخ وضبّاط ومتطوّعون. وتكمنُ قوّة الحزب، كما شرح لي غافريلا، في قدرته على تخليص نفسه من أولئك الذين هم، مثل عجلة معطّلة أو معوجّة في عربة، يعيقون التّقدّم. يحدثُ هذا التّطهيرُ الذّاتيّ في الاجتماعات. وهناك تحديدا يكتسبُ الأعضاء الصّلابة الضّروريّة.

هناك شيء آسر للغاية في هذا الأمر. ينظرُ المرءُ إلى رجل يرتدي ملابس مثل الآخرين تماما. يعمل. ويناضل مثلهم جميعا. يبدو مجرّد

جنديّ آخر في جيش عظيم. لكنّه قد يكون عضوا في الحزب. قد يكون حاملا في جيب زيّه النّظاميّ وفوق قلبه، لبطاقة عضويّته في الحزب. حينئذ، يتبدّلُ أمام عينيّ مثلما تتبدّلُ الأوراق في الغرفة المظلمة لمصوّر الفوج. يصبحُ واحدا من الأفضل، واحدا من المختارين وواحدا من بين أولئك الذين يعرفون أكثر من غيرهم. يملكُ حكمُه قوّة أكبر من صندوق متفجّرات. ويصمتُ الآخرون حين يتكلّم أو يتكلّمون بحذر أكبر عندما يُصغي.

في العالم السّوفياتيّ يُقيَّم الرّجل بحسب رأي الآخرين فيه، وليس بحسب رأيه هو. مجموعةٌ واحدة تُلقّب بـ"الجماعة" بإمكانها أن تُحدّد قيمة رجل مّا وأهميّته. تُقرّرُ المجموعةُ ما الذي يجعلهُ أكثر فائدة وما الذي بإمكانه أن يُقلّص مقدار نفعه للآخرين. يتحوّل هو نفسه إلى مُجمل ما يقوله عنه الآخرون. قال غافريلا إنّ تعلّم كيفيّة معرفة الشّخصيّة الجوّانيّة لرجل مّا هو عمليّة لا تنتهي. وليست هناك طريقة نهائيّة للتّيقّن من أنّه لا يندسُّ في قاعه، مثلما هو الحال مع بئر عميقة، عدوٌّ للطّبقة العاملة أو عميل لمُلاّك الأرض. ولهذا السّبب كان يجبُ أن يُراقب كلّ شخص من قبل أولئك المحيطين به، أصدقاء كانوا أو أعداء.

في عالم غافريلا يبدو أنّ الفرد يحمل وجوها كثيرة. وقد يُصفعُ أحدها بينما يُقبّل الآخر. ويمكنُ أن يمرّ وجهٌ ثالثٌ دون أن يُلاحظ بشكل مؤقّت. يظلُّ يُقاس في كلّ لحظة بمقاييس الكفاءة المهنيّة والأصول العائليّة والنّجاح الحزبيّ أو الجمعيّ. ويُقارن برجال آخرين قد يتّخذون مكانه في أيّ لحظة أو قد يفعل هو ذلك. ينظر الحزبُ إلى

المرء في نفس الآن بعدسات مختلفة الحجم ولكن بدقّة ثابتة. ولا أحد بإمكانه أن يعرف أيّ صورة نهائيّة ستظهر.

يتمثّلُ الهدفُ تحديدا في أن يصبح المرءُ عضوا في الحزب. ولكنّ الطّريق إلى تلك القمّة ليست سهلة. وكلّما تعلّمت المزيد عن حياة الفوج أدركتُ تعقيد العالم الذي يتحرّكُ فيه غافريلا.

يبدو أنّه من أجل الوصول إلى القمّة، ينبغي على المرء أن يتسلّق سلالم كثيرة في الآن نفسه. ربّما يكون في منتصف الطّريق على السّلّم المهنيّ، بينما يشرع للتّوّ في تسلّق السّلّم السّياسيّ. وربّما كان يصعدُ واحدا ويهبطُ آخر. وهكذا تتغيّر فرص بلوغه القمّة. كما أنّ القمّة حسب غافريلا تكون غالبا خطوةً إلى الأمام واثنتين إلى الوراء. وإضافة إلى ذلك، يمكن للمرء حتّى بعد أن يصل إلى القمّة أن يسقط بسهولة. فيتعيّن عليه أن يبدأ التّسلّق من جديد.

ولأنّ تقييم شخص مّا يعتمدُ نسبيّا على جذوره الاجتماعيّة، فإنّ الخلفيّة العائليّة تُؤخذ بعين الاعتبار، بما في ذلك إذا كان والدا الشّخص ميّتين. وهو يملكُ حظوظا أوفر لارتقاء السّلّم السّياسيّ في حال كان والداه عاملين صناعيّين بدلا من كونهما مُزارعين أو موظّفين إداريّين. يتعقّبُ ظلّ العائلة هذا النّاس بلا هوادة، تماما مثلما يلاحقُ مفهوم الخطيئة الأصليّة حتّى أفضل الكاثوليكيّين.

امتلأتُ خوفا وتوجّسا. فرغم أنّني لا أستطيعُ تذكّر مهنة أبي، إلاّ أنّني أتذكّر وجود طبّاح وخادمة وممرّضة في البيت. ولا شكّ أنّهم سيُعتبرون ضحايا للاستغلال من قبل عائلتي. كما أنّني كنتُ أعرف أنّ أبي وأمّي لم يكونا عاملين. هل يعني ذلك أنّ جذوري الاجتماعيّة ستُعيقني في حياتي

الجديدة مع السّوفييت، تماما مثلما كان شعري الأسودُ ولونُ عينيّ حجّة ضدّي مع المزارعين؟

فيما يتعلّقُ بالسّلّم العسكريّ، يتحدّدُ موقع شخص مّا استنادا إلى رتبته ووظيفته في الفوج. فمثلا، يجبُ على عضو قديم بالحزب أن يطيع أوامر قائده حتّى لو لم يكن هذا القائدُ عضوا مثله. ولكن يُمكنه لاحقا في اجتماع حزبيّ أن ينقد أنشطة هذا القائد نفسه. وإذا تمّت مساندة اتّهاماته له من قبل الأعضاء الآخرين، فقد يتسبّب في نقله إلى منصب أدنى. وقد يحدثُ العكسُ أحيانا. يعاقبُ قائدٌ مّا ضابطا ينتمي إلى الحزب. فينزلهُ الحزبُ أكثر في درجته ومنصبه.

أحسستُ أنّني مشوّش في هذه المتاهة. في العالم الذي يستقدمني إليه غافريلا، تتشابكُ طموحاتُ النّاس وتوقّعاتهم بعضها في بعض كجذور الأشجار العملاقة وأغصانها في غابة كثيفة. تُقاومُ كلّ شجرة طلبا للمزيد من الرّطوبة في التّراب والمزيد من أشعّة الشّمس في السّماء.

كنتُ قلقا. ما الذي سيحدثُ لي عندما أكبر؟ كيف سأبدو، منظورا إليّ من عيون الحزب الكثيرة؟ ما هي نواتي الأعمق؟ هل هي نواة سليمة كتلك التي في تفّاحة طازجة أم فاسدة مثل تلك التي تخترقها الدّيدانُ في حبّة برقوق ذابلة؟

ما الذي سيحدث لي إذا قرّر الآخرون -أقصدُ الجماعة- أنّني أكثر ملاءمة للغوص في المياه العميقة مثلا؟ هل يهمّهم أنّني سأكون مرعوبا من الماء لأنّ كلّ غطس يذكّرني بغرقي الوشيك تحت الجليد؟ ربّما تعتقدُ الجماعةُ أنّها تجربة قيّمة تؤهّلني للتّدرّب على الغوص؟

وعوض أن أصبح مخترع متفجّرات سأضطرّ إلى قضاء بقيّة حياتي غوّاصا، كارها لمشد الماء تحديدا ومُصابا بنوبة ذعر قبل كلّ عمليّة غطس. ما الذي سيحدث في تلك الحالة؟ كيف لفرد مّا -كان غافريلا يتساءل- أن يقدّم حكمه على حكم الكثيرين؟

تشرّبتُ كلّ كلمة من غافريلا، وأنا أكتب الأسئلة التي أريد إجاباتها على اللاّئحة التي أعطاها لي. كنتُ أصغي إلى حوارات الجنود قبل الاجتماعات وبعدها. وأتجسّسُ عليهم أثناءها من خلال جدران قماش الخيمة.

لم تكن حياةُ هؤلاء البالغين السّوفييت سهلة جدّا. ولعلّها لا تقلّ صعوبة عن التّسكّع من قرية إلى أخرى، فيما ينظر إليك النّاس بوصفك غجريّا. يملكُ المرءُ مسالك عديدة ليختار فيما بينها... طرق عديدة وطرق أخرى سريعة عبر أرض الحياة، بعضها مسدود والبعض الآخر يُفضي إلى المستنقعات وإلى الفخاخ الخطيرة والكمائن. وفي عالم غافريلا، وحده الحزب يعرف المسلك والوجهة الصّحيحين.

حاولتُ أن أحفظ تعاليم غافريلا وألاّ أفلت كلمة واحدة منها. أكّد لي أنّه لكي يكون الواحدُ منّا سعيدا ونافعا، يجدر به أن ينضمّ إلى مسيرة العمّال، مُحافظا على خطوته مع الآخرين في المكان المحدّد له في الصّفّ. فالدّفعُ من أجل الاقتراب الشّديد من رأس القافلة لا يختلف عن التّخلّف في الوراء. قد يعني ذلك فقدان الاتّصال بالجماهير. فيؤدّي إلى الانحطاط والتّفسّخ. كلّ تعثّر من شأنه أن يبطئ الصّفّ كلّه. ومن يقع يجازف بأن يداس من قبل الآخرين...

17

آخر المساء، تأتي حشود المزارعين من القرى. فيجلبون معهم الثّمار والخضروات ليقايضوها بلحم الخنزير المعلّب الذي تمّ إرساله إلى الجيش الأحمر من أمريكا وبالأحذية وقطع من قماش الخيمة التي تصلح لصنع سروال أو سترة.

بينما يُوشكُ الجنودُ على الانتهاء من مهامّهم المسائيّة، يُسمع في الأنحاء صوت موسيقى الأكورديون ممتزجا بالغناء. يُصغي المزارعون بانتباه إلى الأغنيات التي يفهمون كلماتها بصعوبة. وينضمّ بعضهم بجرأة وصوت عال إلى الغناء، فيما يبدو التّوجّس على ملامح آخرين يُشاهدون بريبة وجوه جيرانهم الذين كشفوا فجأة عن مودّة غير متوقّعة للجيش الأحمر.

تأتي النّساءُ بأعداد متزايدة من القرى مُصطحبات أزواجهنّ. فتتغازل العديد منهنّ مع الجنود علَنا. ويحاولن إغواءهم في اتّجاه أزواجهنّ وإخوتهنّ الذين يقايضون سلعهم على مسافة خطوات قليلة. بشعورهنّ الرّماديّة وعيونهنّ الفاتحة يسحبن ستراتهنّ البالية إلى أسفل ويرفعن تنانيرهنّ المهترئة مُسترخيات. ويهتززن بأردافهنّ أثناء تجوّلهنّ في المكان. يقتربُ الجنودُ حينئذ. ويجلبون من خيامهم علب

لحم الخنزير والبقر الأمركيّ اللاّمعةَ وعلب التّبغ وورق لفّ السّجائر. ومتجاهلين حضور الرّجال هناك، يحدّقون عميقا في عيون النّساء، لامسين بشكل حادث أجسادهنّ الممتلئة، ومتنفّسين رائحة أجسادهنّ.

من حين إلى آخر، يتسلّلُ الجنودُ من المخيّم لزيارة القرى، حتّى يواصلو المُقايضة مع المزارعين ويلتقوا مع الفتيات. بذلت قيادةُ الفوج أقصى جهدها كي تمنع مثل هذه الاتّصالات السّرّيّة المخطّط لها مع السّكّان. وحذّر الضّبّاطُ السّياسيّون وقادة الكتائب وحتّى المناشير الدّاخليّة الجنودَ من عمليّات الفرار الفرديّة هذه. أعلنوا أنّ بعض المزارعين الأثرياء يخضعون لتأثير أعضاء الحزب القوميّ الذين يجوبون الغابات في محاولة منهم لإبطاء المسيرة المنتصرة للجيش السوفياتيّ ومنع النّجاح الوشيك لحكومة العمّال والفلاّحين. وأشاروا إلى أنّ رجالا من الأفواج الأخرى قد عادوا من مغامرات كهذه وقد تعرّضوا لضرب مبرّح فيما اختفى آخرون تماما.

ومع ذلك، تجاهل بعضُ الجنود ذات يوم خطر العقاب. وتمكّنوا من مغادرة المخيّم خلسة. وتظاهر الحرّاس بعدم ملاحظتهم لهم. كانت الحياةُ في المخيّم رتيبة. ولذلك يبحث الجنودُ المتلهّفون للرّحيل أو عمل شيء جديد، بكلّ حماستهم عن التّرفيه. علم ميتكا الوقواق بخروج أصدقائه. وربّما كان ليذهب معهم لو لم يكن مُقعدا. كان يردّد مرارا أنّه لا حاجة لتجنّب رفقة هؤلاء السّكّان المحلّيّين بما أنّ جنود الجيش الأحمر قد جازفوا بحيواتهم من أجل إنقاذهم من النّازيّين.

اعتنى ميتكا بي منذ أن دخلتُ مستشفى الفوج. وبفضل إطعامه لي كسبتُ المزيد من الوزن. كان يقتنصُ من المرجل الكبير أفضل قطع اللّحم

ويقشطُ الدّهون من الحساء من أجلي. يساعدني أيضا في تلقّي الحقن المؤلمة. ويستحثّني قبل الفحوصات الطّبّيّة. أصبتُ مرّة بعسر الهضم لكثرة الأكل. فمكث ميتكا معي طيلة يومين. يمسك برأسي حين أتقيّأ. ويمسح وجهي بقطعة قماش مبلّلة.

وفي حين علّمني غافريلا أشياء جدّيّة تتعلّق بمهمّة الحزب، عرّفني ميتكا على الشّعر وغنّى لي الأغاني وهو يعزفُ على قيثاره. لقد كان هو من اصطحبني إلى سينما الفوج. وشرح لي الأفلام بعناية فائقة. ذهبتُ معه أيضا لمشاهدة الميكانيكيّين وهم يصلحون محرّكات شاحنات الجيش القويّة. وهو أيضا من أخذني للتّفرّج على الرّماة أثناء تدريباتهم.

كان ميتكا من أكثر الرّجال المحبوبين والمُحترَمين في الفوج. وهو يملك سجلاّ عسكريّا مذهلا. يُمكنُ للمرء خلال الأيّام المميّزة والأعياد العسكريّة، أن يرى على زيّه النّظاميّ الباهت زخارف يحسدُه عليها قادة الفوج وحتّى قادة الفرق والفصائل أنفسهم. إنّه بطل من أبطال الاتّحاد السّوفياتيّ، الأمر الذي يعتبر أرقى تكريم عسكريّ. ولقد كان واحدا من أكثر الرّجال المرصّعة أزياؤهم في الكتيبة كلّها.

تسرد الصّحف والكتب مآثره في الرّماية والقنص للأطفال والبالغين. ولقد ظهر مرّات عديدة في التّقارير الإخباريّة التي شاهدها الملايينُ من المواطنين السّوفييت في المزارع والمصانع الجماعيّة. يفخر الفوج بشكل عظيم بميتكا. تُلتقط له الصّور من أجل المناشير الدّاخليّة. ويحاوره الصّحفيّون.

يروي الجنودُ باطّراد، وهم متحلّقون في المساء حول نار المخيّم، قصصا عن المهامّ الخطيرة التي تكفّل بآدائها قبل سنة فحسب. ويتناقشون إلى ما لا نهاية له عن أعماله البطوليّة في الخطوط الخلفيّة للعدوّ، إذ يحطّ بالمظلّة بمفرده. ثمّ يقوم بقنص ضبّاط الجيش الألمانيّ وسُعاتِه بذلك الشّكل المثاليّ وعن بعد مسافات طويلة. كانوا يتعجّبون لتلك الطّريقة التي يعود وفقها ميتكا من وراء الخطوط الخلفيّة ليُرسل مجدّدا إلى مهمّة خطيرة أخرى.

كنتُ أنتفخُ فخرا خلال محادثات كهذه. أجلسُ إلى جانب ميتكا مُستلقيا على ذراعه القويّة ومُستمعا بانتباه شديد إلى صوته، كأنّني أحاول ألاّ أغفل أيّ كلمة يقولها أو أيّ سؤال يلقيه عليه الآخرون. لو دامت الحربُ بما يكفي لأصبح جاهزا للخدمة، لأصبحتُ ربّما قنّاصا ماهرا وبطلا يتحدّث عنه العمّال أثناء وجبات طعامهم.

كانت بندقيّة ميتكا موضع إعجاب دائم. يُخرجها من غمدها مرّات عديدة استجابة لطلبات الآخرين. فيمسح بقعا من الغبار غير مرئيّة على المنظار ومخزن الرّصاص. ينحني الجنود الشّباب فوق البندقيّة مُرتجفين من الفضول، تتملّكهم رهبة كاهن عند المذبح. أمّا الجنود القدامى، فيلتقطون السّلاح ذا المخزن الصّقيل النّاعم بأياد كبيرة متصلّبة كما تلتقط الأمّ رضيعا من مهده. يحبسون أنفاسهم بينما يتفحّصون العدسات الصّافية ذات المرأى البعيد. إنّها العين التي يرى ميتكا من خلالها العدوّ. وهي تقرّب الأهداف له بشكل يسمح له برؤية وجوهها وحركاتها وابتساماتها. وتساعدهُ على أن يصوّب دون خطإ في البقعة التي توجد تحت المعدن، حيثُ ينبضُ القلب الألمانيّ.

يُظلمُ وجه ميتكا حين يتأمّل الجنود بندقيّته بإعجاب. ويلمسُ بشكل غريزيّ ذلك الجانب المتألّم والمتصلّب من جسده، حيثُ ما تزالُ شظيّة من رصاصة ألمانيّة مغروزة فيه. لقد أنهت تلك الرّصاصة مسيرة القنّاص قبل سنة. إنّها تُعذّبه بشكل يوميّ. وقد حوّلته من ميتكا الوقواق كما كان يُعرف سابقا إلى ميتكا السّيّد، كما يلقّب الآن في أغلب الأحيان.

إنّه ما يزالُ مدرّب الرّماة في الفوج. يدرّسُ فنّه للجنود اليافعين. ولكن لم يكن ذلك ما يشتهيه قلبه. أحيانا، أرى في اللّيل عينيه مفتوحتين على وُسعهما تحدّقان في السّقف المثلّث للخيمة. ربّما يسترجعُ تلك الأيّام واللّيالي التي كان ينتظر خلالها مختبئا بين الأغصان أو الأنقاض خلف خطوط العدوّ ليقتنص ضابطا أو ساعيا أو طيّارا أو سائق دبّابة. كم مرّة كان عليه أن ينظر إلى وجه العدوّ ويتتبّع حركاته ويقيس المسافة الفاصلة ويعدّل مرآهُ مجدّدا. بكلّ واحدة من رصاصاته المصوّبة بشكل مُتقن، يُعزّز ميتكا قوّة الاتّحاد السّوفياتيّ إذ يُزيل واحدا من ضبّاط العدوّ.

بحثت الفرق الألمانيّة المختصّة بكلابها المدرّبة عن مخابئه. وانتشرت مطارداتهم له على مساحات شاسعة. كم مرّة وجب عليه أن يحسب أنّه لن يعود أبدا. ومع ذلك، كنتُ أعرف أنّ هذه هي أسعدُ الأيّام في حياة ميتكا. لن يقايض هذه الأيّام التي كان فيها القاضي ومنفّذ حكمه في الآن نفسه بأيّ ثمن. وحيدا تقودهُ المشاهدُ التّلسكوبيّةُ في بندقيّته، يحرمُ العدوّ من خيرة رجاله. يتعرّف إليهم من خلال زخارفهم وشارات رتبهم ولون أزيائهم العسكريّة. وقبل أن

يسحب الزّناد، لا بدّ أنّه يسأل نفسه إن كان هذا الرّجل جديرا بالموت برصاصة من بندقيّة ميتكا الوقواق. ربّما ينبغي عليه انتظار ضحيّة متقاة بعناية أكبر: قائد بدلا من ملازم، أو رائد بدلا من قائد، أو طيّار بدلا من مدفعيّ أو ضابط أركان بدلا من قائد كتيبة. فكلّ واحدة من طلقاته بإمكانها ألاّ تجلب الموت للعدوّ فحسب، بل له أيضا. وتحرم بهذا الشّكل الجيش الأحمر من أحد أعظم جنوده.

كلّما فكّرت بكلّ هذا شعرتُ بأنّني معجب بشكل أكبر بميتكا. هنا، على بعد بضعة أقدام منّي يتمدّد على فراش رجلٌ عمل من أجل عالم أفضل وأكثر سلاما. وليس ذلك من خلال الصّلاة عند مذبح الكنيسة وإنّما من خلال التّميّز في إتقان هدفه. يبدو الضّابط الألمانيّ الآن في زيّه النّظاميّ الأسود الرّائع، ذلك الذي قضّى وقته يقتل السّجناء العاجزين أو يقرّر مصير براغيث سوداء صغيرة مثلي، سخيفا مثيرا للشّفقة مقارنة بميتكا.

أصبح ميتكا قلقا عندما لم يعد الجنودُ الذين تسلّلوا من المخيّم إلى القرية. فقد اقتربت ساعة المراقبة اللّيليّة. ويُمكنُ أن يُكتشف غيابهم في أيّ وقت. كنّا جالسين في الخيمة. يتمشّى ميتكا متوتّرا، وهو يفرك يديه ويتعرّقُ. لقد كانوا أصدقاءه المقرّبين: غريشا، وهو مغنّ جيّد اعتاد ميتكا أن يرافقه على الأكورديون، لونكا الذي جاء من نفس مدينته، آنتون وهو شاعر يمكنه أن يلقي أفضل من أيّ شخص آخر وفانكا الذي ادّعى ميتكا أنّه أنقذ حياته ذات مرّة.

كانت الشّمس قد غربت. وتمّ تغيير الحرّاس. ظلّ ميتكا يُحدّقُ في العقرب الفوسفوريّ لساعته التي غنمها من قبل في الحرب.

سُمعت ضجّة بين الحرّاس في الخارج. صرخ أحدهم طلبا للطّبيب، بينما اندفعت درّاجة ناريّة بأقصى سرعة عبر المخيّم مُتّجهة إلى المكتب الرّئيسيّ.

هرع ميتكا إلى الخارج. وسحبني معه. وجاء آخرون أيضا يركضون من خلفنا.

كان جنودٌ كثيرون قد تجمّعوا عند خطّ الحراسة. هناك الكثير منهم ملطّخون بالدّم. راكعين أو واقفين، يتحلّقون بأربعة أجسام ساكنة ممدّدة على الأرض. فهمنا من كلماتهم المشوّشة أنّهم حضروا وليمة في قرية مجاورة. فتعرّضوا لهجوم من قبل مزارعين ثملين أصابتهم الغيرة على نسائهم. كان هؤلاء يفوقونهم عددا. فتغلّبوا عليهم. وجرّدوهم من أسلحتهم. قُتل أربعة من الجنود بضربات الفؤوس. وأُصيب آخرون بجروح عميقة.

وصل نائبُ قائد الفوج يتبعه ضبّاط كبار آخرون. أفسح الجنود الطّريق لهم. ووقفوا منتبهين. حاول الجرحى عبثا أن ينهضوا. أصغى نائب القائد شاحبا، ولكن في هدوء وثبات أيضا، إلى تقرير أحد المُصابين. ثمّ أصدر أوامره. تمّ نقل المُصابين على الفور إلى المُستشفى. كان بعضهم قادرين على المشي ببطء مُستندين إلى رفاقهم، وهم يمسحون الدّماء بأكمامهم عن وجوههم وشعورهم.

جثا ميتكا عند أقدام القتلى، يتفحّصُ صامتا وجوههم الذّبيحة، فيما وقف آخرون إلى جانبه مُنزعجين بشكل واضح.

كان فانكا مُمدّدا على ظهره، ووجهه الأبيضُ مُتّجه إلى المتفرّجين المُتحلّقين. وفي ضوء الفانوس الشّاحب، يمكن للمرء أن يرى خطوطا من الدّم المتخثّر في صدره. أمّا وجهُ لونكا، فقد شُطر نصفين

بضربة فأس فظيعة. امتزجت شظايا من عظم جمجمته بأشرطة متدلّية من عضلات رقبته، فيما يصعُبُ التّعرّف على الوجهين الآخرين المسحوقيْن والمتفخين.

قدمت سيّارة إسعاف. ضغط ميتكا على ذراعي بغضب شديد بينما كانت الجثث تُحمل بعيدا.

تمّ الإعلانُ عن المأساة في تقارير المساء. وابتلع الرّجال ريقهم بصعوبة، وهم يستمعون إلى الأوامر الجديدة التي تحرّم أيّ اتّصال بالسّكّان المحلّيّين العدائيّين، وتحظر أيّ عمل بإمكانه أن يعقّد علاقاتهم بالجيش الأحمر.

ظلّ ميتكا خلال تلك اللّيلة يهمسُ ويتمتمُ لنفسه. ضرب رأسهُ بقبضته مرارا. ثمّ جلس في صمت كئيب.

مرّت أيّام عديدة. وأخذت حياة الفوج تعود إلى طبيعتها. تفادى الجنودُ ذكر أسماء القتلى. وشرعوا في الغناء مجدّدا. كما أنّهم أعدّوا أنفسهم لزيارة مسرح ميدانيّ. لكنّ ميتكا لم يكن بخير. وقد أخذ مكانه في مهامّ التّدريب شخصٌ آخر.

أيقظني ميتكا ذات ليلة قبل الفجر. طلب منّي أن أرتدي ملابسي بسرعة. ولم يضف شيئا آخر. وحين أصبحتُ جاهزا، ساعدتهُ على ربط قدميه ووضع جزمته. كان يئنّ من الألم. لكنّه تحرّك بسرعة. عندما ارتدى ملابسهُ، تثبّت من أنّ الرّجال الآخرين كانوا نائمين. ثمّ سحب بندقيّته من وراء السّرير. أخرج السّلاح من حقيبته البنّيّة. ووضعهُ على كتفه. بعد ذلك، أعاد الحقيبة الفارغة بعناية خلف السّرير. وأقفلها كي تبدو كما لو أنّ البندقيّة ما تزال بداخلها. ومن ثمّ، كشف التّلسكوب. ووضعه في

جيبه مع مرجل ثلاثيّ صغير. تفقّد حزام الخراطيش. وأخذ زوجي منظار ميدانيّ من الخطّاف. ولفّ الحزام حول عنقي.

انسللنا بصمت من الخيمة. وعبرنا المطبخ الميدانيّ. وعندما مرّ الحرّاس، ركضنا بسرعة نحو الشّجيرات. وعبرنا الميدان المُجاور. وسرعان ما خرجنا من المعسكر.

كان الأفقُ ما يزالُ مكسوّا بالضّباب اللّيليّ. وهناك شريطٌ أبيض لمسلك ريفيّ يلوحُ جاثما بين طبقات الضّباب الشّاحبة المعلّقة فوق الحقول.

مسح ميتكا العرق عن رقبته. ربط حزامه. وربّت على رأسي، بينما انطلقنا مُسرعين باتّجاه الغابة.

لم أكن أعرفُ وجهتنا ولا سبب ذهابنا إليها. لكنّني خمّنتُ أنّ ميتكا يعدّ للقيام بشيء بمفرده، شيء لم يكن من المفترض أن يقوم به. وقد يكلّفه منصبه العسكريّ ومكانته الشّعبيّة.

في المقابل، حين أدركتُ ذلك شعرتُ بالفخر الشّديد، لأنّه تمّ اختياري لمرافقة بطل الاتّحاد السّوفياتيّ ومساعدته في مهمّته الغامضة.

مشينا سريعا. وكان ميتكا متعبا بشكل واضح، وهو يعرجُ ويرفعُ بندقيّته التي ظلّت تنزلقُ عن كتفه. وكلّما تعثّر تمتم لعنات وشتائم كان من عادته أن يمنع الجنود من استعمالها. وحين أدرك أنّني قد سمعتها، أمرني أن أنساها على الفور. أومأتُ برأسي مُوافقا، رغم أنّني كنتُ لأمنح الكثير حتّى أسترجع قدرتي على الكلام. فأتمكّن من تكرار هذه الشّتائم الرّوسيّة الرّائعة والممتلئة بعصير لذيذ مثل حبّات خوخ ناضجة.

تجاوزنا بحذر شديد قرية نائمة. ليس هناك دخان في مداخنها. وكانت كلابها وديكتها صامتة. تيبّس وجهُ ميتكا. وجفّت شفتاه. فتح قارورة قهوة باردة. أخذ جرعة. وأعطاني الباقي. ثمّ أسرعنا من جديد.

عندما دخلنا الغابة كان ضوءُ النّهار مُشرقا. ولكنّ الأدغال ما تزال معتمة. وقفت الأشجار بثبات مثل رهبان قُساة في ملابس سوداء، تحرسُ الفجاج والفسحات بأكمام أغصانها الواسعة. عند نقطة واحدة، وجدت الشّمسُ فتحة صغيرة في قمم الأشجار. فأشرقت أشعّتها من خلال الأكفّ المفتوحة لأوراق الكستناء.

بعد قليل من التّفكير، اختار ميتكا شجرة عالية متينة قرب الحقول وعند حافّة الغابة. كان الجذعُ زَلِقا. ولكن هناك عقدٌ وفروع واسعة نمت منخفضة إلى حدّ مّا. ساعدني ميتكا في البداية على تسلّق إحدى الفروع. ثمّ مدّ لي البندقيّة الطّويلة والمنظار والتّلسكوب والمرجل الثّلاثيّ. فعلّقتها جميعا وبعناية على الأغصان. ثمّ حان دوري لأساعده على الصّعود. عندما أدرك ميتكا المتصبّبُ عرقا، والذي كان يئنُّ وينفخُ، الغصنَ الذي أقف عليه، انتقلتُ إلى آخر مجاور له. وبهذا الشّكل، ظللنا نساعد بعضنا البعض حتّى وصلنا تقريبا إلى أعلى الشّجرة ومعنا البندقيّة وجميع المعدّات.

بعد أن استراح للحظات، لوى ميتكا بحزم بعض الأغصان التي حجبت رؤيتنا إلى الوراء. قطع بعضها. وربط بعضها الآخر. أصبح لدينا بسرعة مقعد مريح إلى حدّ مّا ومخفيّ بشكل جيّد. كانت طيور غير مرئيّة ترفرف بين الأوراق.

ما أن اعتدتُ على الارتفاع حتّى تمكّنتُ من تمييز خطوط مباني القرية التي تقابلنا وحوافّها. بدأت أولى نفثات الدّخان في الارتفاع إلى السّماء.

أرفق ميتكا التّليسكوب إلى بندقيّته. وثبّت المرجل الثّلاثيّ بإحكام. ثمّ تراجع إلى الخلف. ووضع البندقيّة بحذر على دعامتها.

لقد قضّى وقتا طويلا وهو يفحصُ القرية من خلال المنظار. ثمّ سلّمه لي. وأخذ يُعدّل المشهد التّلسكوبيّ على البندقيّة. أمعنتُ النّظر في القرية عبر المنظار. كانت صورتها قد اتّسعت بشكل مدهش. وبدت المنازل كأنّها أمام أرض الغابة مباشرة. كانت الصّورة بيّنة وواضحة إلى درجة أنّني كدتُ أتمكّن من عدّ أعواد القشّ على السّطوح. تمكّنتُ من رؤية الدّجاجات وهي تنقر في الباحات والكلاب تتكاسل في أشعّة الشّمس الرّقيقة للصّباح الباكر.

طلب ميتكا أن أقدّم له المنظار. وقبل أن أعيده له، ألقيتُ نظرة أخرى سريعة على القرية. فرأيتُ رجلا طويل القامة يغادر منزلا. يمطّطُ ذراعيه. ويتثاءب، مُحدّقا في السّماء الصّافية. لاحظتُ أنّ قميصه ممزّقٌ من الأمام وأنّ هناك بقعا كبيرة على ركبتي سرواله.

أخذ ميتكا المنظار. ووضعُه بعيدا عن متناولي. ثمّ تفحّص المشهد بانتباه شديد من خلال التّليسكوب. أجهدتُ عينيّ لأرى ما يحدث. ولكن، من دون النّظّارات لم أر سوى أقزام المنازل تلوح بعيدا في الأسفل.

دوّى في المكان صوتُ طلقة رصاص. واهتزّت العصافير في الدّغل. رفع ميتكا وجهه الأحمر المتعرّق. وتمتم شيئا مّا. أدركتُ حينئذ المنظار. ولكنّه ابتسم لي على نحو مُعتذِر. وأرجع يدي إلى الخلف.

شعرتُ بالاستياء لرفض ميتكا. ولكنّني خمّنتُ ما كان قد حدث. في مُخيّلتي، رأيتُ المزارع يتداعى ويداه تعلوان رأسه، كما لو كان يبحث عن مساندة من يد غير مرئيّة، بينما يخمد على عتبة منزله.

شحن ميتكا البندقيّة من جديد، واضعا علبة الخرطوشة المستعملة في جيبه. وتفحّص القرية بهدوء عبر المنظار، وهو يُصفّر بلطف من خلال شفتين منحسرتين.

حاولتُ أن أتصوّر ما رآه هناك. امرأة عجوز مكسوّة بخرق بنّيّة تمشي خارج المنزل وتنظر إلى السّماء، راسمة علامة الصّليب. إذ تلمحُ في الآن نفسه جثّة الرّجل الممدّدة على الأرضيّة. ما أن اقتربت منها بخطوات ثقيلة مرتبكة وانحنت عليها لتدير وجهه، لاحظت الدّم. وفرّت صارخة نحو المنازل المجاورة.

مفجوعين من صرخاتها، ارتدى الرّجال سراويلهم بسرعة. وأخذت النّساء اللّواتي لم يستيقظن حقّا في العدو خارج البيوت. وسرعان ما اكتسح القرية حشدٌ من النّاس يهرعون جيئة وذهابا. انحنى الرّجال على الجثّة، وهم يختصّون بإيماءات عنيفة. وينظرون بيأس في جميع الاتّجاهات.

تحرّك ميتكا قليلا، وعينه مُثبّتة على المرأى في التّليسكوب، وهو يضغطُ عقب بندقيّته إزاء كتفه. لمعت قطرات العرق على جبينه. انزلقت واحدة منها. وتدحرجت إلى إحدى حاجبيه الكثيفين. برزت منه إلى قاعدة أنفه. ثمّ تقدّمت على امتداد نتوء خدّه المائل في طريقها إلى ذقنه. وقبل أن تصل إلى شفتيه، أطلق ميتكا ثلاث طلقات متتابعة بشكل سريع.

أغمضتُ عينيّ. ورأيتُ القرية مرّة أخرى، والأجسادُ الثّلاثة تنزلقُ ساقطة على الأرض. أمّا الفلاّحون الآخرون، فقد ظلّوا عاجزين عن

سماع صوت الطّلقات من تلك المسافة. وتبعثروا في حالة من الذّعر، وهم ينظرون من حولهم في حيرة متسائلين من أين تأتي تلك الطّلقات.

أطبق الخوفُ على القرية. انتحبت عائلات القتلى بعنف. وسحبت الجثث من أياديها وأرجلها باتّجاه المنازل والحظائر. تحرّك الأطفال والآخرون الأكبر سنّا بشكل عبثيّ غير مُدركين لما يحدث. وبعد لحظات قليلة، اختفى الجميع. وأُقفلت حتّى المصاريع.

عاد ميتكا يتفحّصُ القرية من جديد. ولا شكّ ألاّ أحد قد بقي في الخارج، لأنّ مراقبته استغرقت بعض الوقت. فجأة، وضع المنظار جانبا. وأمسك بالبندقيّة.

تساءلتُ: ربّما كان هناك شابّ يتسلّل بين المنازل، مُحاولا تفادي القنّاص والعودة بسرعة إلى كوخه. ولأنّه لم يعرف من أين تأتي الرّصاصاتُ، ظلّ يتوقّف من حين إلى آخر. ويحدّق من حوله. وما أن أدرك صفّ الورود البرّيّة حتّى أطلق ميتكا النّار مجدّدا.

توقّف الرّجل كأنّه دُقّ في الأرض بمسمار. ثنى ركبة. وحاول أن يثني الأخرى. ثمّ انقلب لحظتها ساقطا وسط الورود البرّيّة. واهتزّت الأغصانُ الشّائكةُ بقوّة.

اتّكأ ميتكا على بندقيّته. واستراح. كان كلّ المزارعين في منازلهم. ولا أحد منهم تجرّأ على الخروج.

كم كنتُ أحسدُ ميتكا. لقد فهمتُ فجأة قدرا كبيرا ممّا كان أحد الجنود قد قاله لي من قبلُ في نقاش معه. إنّ الإنسان -قال لي- اسمٌ فخورٌ. يحملُ الإنسانُ في داخله حربه الذّاتيّة الخاصّة. والتي ينبغي

عليه هو أن يشنّها، يربحها أو يخسرها. وفي داخله عدالتُه الخاصّة التي ينبغي عليه هو وحده أن يديرها. لقد ثأر ميتكا الوقواق للتوّ لمقتل أصدقائه، مُتجاهلا آراء الآخرين ومُجازفا بمنصبه في الفوج وبلقبه، بطل الاتّحاد السّوفياتيّ. إن لم يقدر على الثّأر لأصدقائه، فما نفع كلّ تلك الأيّام التي قضّاها في التّمرّن على فنّ القنص والتّحكّم المثاليّ بالعين واليد والنّفس؟ وما قيمةُ رتبة البطل المحترم والمُبجَّل من قبل عشرات ملايين المواطنين إذا لم يعد يستحقّها في نظره الخاصّ؟

هناك معنى آخر في ثأر ميتكا. يعيشُ المرءُ أساسا، مهما كان مشهورا ومحبوبا، مع نفسه. إذا لم يكن في سلام مع ذاته، وإذا كان يؤرّقهُ شيءٌ مّا لم يفعله وكان عليه القيام به للحفاظ على صورته أمام ذاته، فإنّه يكون مثل "الشّيطان التّعيس، روح المنفى المُحوّم فوق العالم الآثم".

فهمتُ كذلك شيئا آخر. هناك العديد من المسالك والمصاعد المُؤدّية إلى القمّة. ولكن يمكن للمرء أن يصل إليها بمفرده، وعلى أقصى تقدير بمساعدة صديق واحد، مثلما فعلتُ أنا وميتكا عندما تسلّقنا الشّجرة. كانت هذه قمّة مختلفة ومُنفردةً عن مسيرة الجماهير العاملة.

سلّمني ميتكا المنظار بابتسامة لطيفة. حدّقتُ بلهفة في القرية. فلم أر شيئا باستثناء المنازل المغلقة بإحكام. تتبختر في بعض المواضع دجاجةٌ أو ديك روميّ. أوشكتُ أن أعيد النّظّارات إليه عندما ظهر كلب كبير بين البيوت وهو يهزّ ذيله ويكشط أذنه بقائمته الخلفيّة. تذكّرتُ يهوذا. فقد كان ذلك ما يفعله بالضّبط حين يكشّر في وجهي وأنا معلّق في السّقف.

لمستُ ذراع ميتكا، مُشيرا برأسي إلى القرية. فظنّ أنّني أعلمه بوجود أناس يتحرّكون في الخارج. وركّز انتباهه على المشهد في التّليسكوب. لم ير

أحدا. نظر إليّ مُستفهما. أومأتُ إليه أنّني أريدهُ أن يقتل الكلب. كشفت ملامحه عن الاستغراب. ورفض. طلبتُ منه مرّة أخرى. ولكنّه رفض أيضا، مُحدّقا فيّ باستهجان.

جلسنا في صمت، نُصغي إلى حفيف الأوراق المُخيف. راقب ميتكا القرية مجدّدا. ثمّ طوى المرجل الثّلاثيّ. وأزال التّليسكوب. أخذنا ننزل ببطء. ظلّ ميتكا يتمتم من حين إلى آخر من شدّة الألم، وهو معلّق من ذراعيه يبحثُ عن موطئ قدم في الأسفل.

دفن الخراطيش الفارغة تحت الطّحالب. وأزال كلّ أثر لوجودنا هناك. ثمّ مشينا باتّجاه المُخيّم، حيث كان بإمكاننا أن نسمع المحرّكات وهي تُفحص من قبل الميكانيكيّين. لقد عدنا دون أن يلاحظنا أحد.

في المساء عندما كان الرّجال الآخرون في المعسكر، نظّف ميتكا البندقيّة والمنظار بسرعة. وأعادهما إلى غمديهما.

عاد في ذلك المساء لطيفا ومُبتهجا كما كان من قبلُ. غنّى بصوت عاطفيّ قصصا عن جمال الأوديسا وعن المدفعيّين الذين يثأرون للأمّهات اللاّئي فقدن أبناءهنّ في الحرب.

تشكّلت الجوقة من الجنود الجالسين إلى جانبه. ارتفعت أصواتهم عالية صافية. وجاء من القرية بصوت خافت ثابت قرعُ الأجراس الجنائزيّة.

18

احتجتُ إلى عدّة أيّام كي أتصالح مع فكرة تركي لغارفيلا، ميتكا وكلّ الأصدقاء الآخرين في الفوج. ولكنّ غارفيلا كان حازما جدّا، وهو يوضّح لي أنّ الحرب قد انتهت وأنّ بلادي قد تحرّرت كلّيّا من الألمان. ووفقا للقواعد، ينبغي على الأطفال المفقودين أن يُسلّموا إلى مراكز خاصّة حيث بإمكانهم البقاء إلى أن يتمّ التّثبّت من أنّ آباءهم ما يزالون أحياء.

حدّقتُ في وجهه، وهو يخبرني بكلّ هذه الأشياء. وحبستُ دموعي. شعر غارفيلا أيضا بالانزعاج. كنتُ أعرفُ أنّه قد تحدّث مع ميتكا فيما يخصّ مستقبلي. ولو كان هناك أيّ حلّ آخر، لكانا قد وجداه دون شكّ.

وعدني غافريلا أنّه في حال لم يتقدّم أيّ أقارب لتسلّمي في غضون ثلاثة أشهر بعد نهاية الحرب، فإنّه سيعتني بي بنفسه. ويرسلني إلى مدرسة، حيث سيعلّمونني التّكلّم من جديد. كما حثّني أن أكون شجاعا في انتظار أن يحدث ذلك، وأن أتذكّر كلّ ما علمّني إيّاه، وأن أقرأ أيضا برافْدا، الصّحيفة السّوفياتيّة، كلّ يوم.

قُدّمت لي حقيبة مليئة بهدايا الجنود والكتب من غافريلا وميتكا. ارتديتُ زيّا عسكريّا سوفياتيّا، كان قد خاطه لي خصّيصا خيّاط الفوج. وعثرتُ في جيبي على مسدّس خشبيّ صغير، عليه صورة ستالين في جانب ولينين في الجانب الآخر.

لقد حان وقت الوداع. كنتُ أبتعد عن المخيّم بصحبة الرّقيب يوري الذي كانت لديه أعمال عسكريّة في المدينة، حيث يوجد مركز للأطفال المفقودين. هذه المدينة الصّناعيّة أكبر المدن في البلاد. وهي نفسها التي كنتُ أعيشُ فيها قبل الحرب.

حرص غافريلا على أن تكون معي كلّ أشيائي، وأن يكون ملفّي الشّخصيّ مُعدّا بشكل جيّد. لقد جمّع فيه كلّ المعلومات التي قدّمتها له، والتي تتعلّق باسمي ومكان إقامتي السّابق والتّفاصيل التي تذكّرتها عن والديّ ومسقط رأسي وأقاربي وأصدقائي.

شغّل السّائقُ المحرّك. ربّت ميتكا على كتفي. وحثّني على أن أدافع عن شرف الجيش الأحمر. احتضنني غافريلا بحرارة. وصافحني الآخرون الواحد تلو الآخر، كأنّني شخص بالغ. أردتُ أن أبكي. ولكنّني حافظتُ على وجهي ثابتا ومشدودا كجزمة جنديّ.

ذهبنا باتّجاه المحطّة. كان القطار مكتظّا بالجنود والمدنيّين. توقّف مرارا عند إشارات معطّلة. ثمّ واصل طريقه. وتوقّف فيما بين المحطّات. مررنا بمدن مقصوفة وقرى خاوية وسيّارات مهجورة ودبّابات وأسلحة وطائرات مقطوعة أجنحتها وأذيالها. هناك في العديد من المحطّات أناس بأسمال وخرق يركضون على امتداد السّكك، وهم يتوسّلون بعض السّجائر والطّعام، بينما يحدّق أطفال شبه عراة بأفواه فاغرة في القطار. لقد استغرق وصولنا إلى وجهتنا يومين كاملين.

كانت كلّ المسالك قد استُخدمت من قبلُ لصالح النّقل العسكريّ، من حمولات الجيش الأحمر إلى العربات المفتوحة المليئة

بالمعدّات العسكريّة. تتدافع في كلّ مكان حشود من الجنود السّوفييت والمساجين السّابقين ذوي الأزياء النّظاميّة المختلفة والمعوقين العُرج والمدنيّين المتهالكين والمكفوفين الذين ينقرون الحجارة بعصيّهم. ومن حين إلى آخر، يمكن للمرء أن يرى ممرّضات يعتنين بأشخاص في ملابس مخطّطة. كان الجنود ينظرون إليهم بصمت مفاجئ. هؤلاء هم الأشخاص الذين تمّ إنقاذهم من المحارق والذين كانوا عائدين إلى الحياة من معسكرات الاعتقال.

أمسكتُ بيد يوري. وحدّقتُ في الوجوه الرّماديّة لهؤلاء النّاس وعيونهم المحترقة المحمومة واللاّمعة مثل شظايا زجاج مكسور في رماد نيران خامدة.

على مقربة منّا، كانت قاطرةٌ تسحبُ عربة لامعة إلى وسط المحطّة. ظهر وفدٌ عسكريّ أجنبيّ بأزياء نظاميّة ملوّنة وأوسمة. تشكّل حرسٌ شرفيّ بسرعة. وشرعت فرقة عسكريّة في الإنشاد. عبر الضّبّاطُ ذوو الأزياء المميّزة والرّجال المرتدون لملابس معسكرات الاعتقال المخطّطة جنبا إلى جنب في المنصّة الضّيّقة، دون أيّ كلمة.

ترفرفُ أعلامٌ جديدة فوق مبنى المحطّة الرّئيسيّة. وتنطلقُ من مكبّرات الصّوت موسيقى، تقطعها من حين إلى آخر الخطابات المتحمّسةُ والتّحايا. نظر يوري إلى ساعته. وسلكنا طريقنا إلى الخارج.

وافق أحد السّائقين العسكريّين على اصطحابنا إلى منزل الأيتام. كانت شوارع المدينة مليئة بالمواكب والجنود والأرصفةُ مكتظّة بالنّاس. تحتلُّ دار الأيتام عدّة منازل قديمة في شارع جانبيّ، حيث أطفالٌ لا حصر لهم يحدّقون من النّوافذ.

قضّينا ساعة في البهو، قرأ يوري خلالها جريدته فيما تظاهرتُ أنا بعدم المبالاة. أخيرا، جاءت المديرة. فحيّتنا. وأخذت الملفّ الذي يتضمّن وثائقي من عند يوري. وقّعت بعض الأوراق. سلّمتها إليه. ووضعت يدها على كتفي. دفعتُها بصرامة. فالكتفيّة على الزّيّ العسكريّ ليست منذورة ليدي امرأة.

حلّت لحظة الفراق من جديد. تظاهر يوري بالمرح. مازحني. وعدّل قبّعة العلف على رأسي. وشدّ الخيط الذي يلفّ الكتب مع كتابات ميتكا وغافريلا، والتي كنتُ أحملها تحت ذراعي. عانقنا بعضنا البعض مثل رجلين، فيما تقف المديرة جانبا.

أمسكتُ النّجمة الحمراء المثبّتة على الجيب الأيسر عند الصّدر. هديّة من غافريلا تحمل رسم لينين. أعتقدُ الآن أنّ هذه النّجمة، التي تقودُ ملايين العمّال في العالم نحو أهدافهم، يمكنها أيضا أن تجلب لي الحظّ السّعيد. اقتفيتُ خطوات المديرة.

ونحنُ نمشي عبر الأروقة المزدحمة، عبرنا أمام أبواب الفصول المفتوحة، حيثُ تتقدّمُ الدّروس. كان الأطفال في كلّ مكان يتعاركون ويصرخون. رأى بعضهم بدلتي العسكريّة. فأشاروا بأصابعهم إليّ. وضحكوا. أشحتُ بوجهي عنهم. رمى أحدهم نواة تفّاح. راوغتها. فأصابت المديرة.

لم أنعم بالسّلم خلال الأيّام القليلة الأولى. أرادت منّي المديرة أن أتخلّى عن بدلتي العسكريّة وأرتدي ملابس مدنيّة عاديّة، يُرسلها إلى الأطفال الصّليبُ الأحمر الدّوليّ. كدتُ أصيب ممرّضة في رأسها عندما حاولت نزع بدلتي. وكنتُ أنام وسترتي وسروالي مطويّان تحت فراشي، كي أحافظ عليهما.

بعد فترة من الوقت، بدأت ملابسي العسكريّة التي لم تُغسل منذ فترة طويلة تُطلق رائحة كريهة. ومع ذلك، ظللتُ أرفض أن أنفصل عنها ولو ليوم واحد. انزعجت المديرة لهذا التّمرّد. ودعت ممرّضتين. فطلبت منهما أن تأخذا البدلة منّي بالقوّة. وقد شهد المعركة حشدٌ مُهلّل من الأولاد.

انفلتُّ من المرأتين الغبيّتين. وركضت نحو الشّارع. هناك اقتربتُ بهدوء من جنود سوفييت يتجوّلون. وأشرتُ لهم بيديّ أنّني أبكم. أعطوني قطعة ورق، كتبتُ عليها أنّني ابن ضابط سوفياتيّ في الجبهة وأنّني أنتظر قدوم أبي إلى دار الأيتام. ثمّ أضفتُ بكلمات مختارة بعناية أنّ المديرة، وهي بنت لمالك للأراضي، تكره الجيش الأحمر. وهي تضربني يوميّا بمساعدة الممرّضات اللاّئي تستغلّهنّ بسبب بدلتي العسكريّة.

ومثلما توقّعتُ، أثارت رسالتي الجنود اليافعين. فلحقوا بي إلى الدّاخل. وبينما حطّم أحدهم تباعا أصص الأزهار في مكتب المُديرة المكسوّة أرضيّته بالسّجّاد، طارد الآخرون الممرّضات. فصفعوهنّ. وقرصوا مؤخّراتهنّ. وصاحت النّساء الخائفات. وصرخن بقوّة.

تركني طاقم الدّار بعد ذلك بسلام. وحتّى المدرّسون كانوا يتجاهلون رفضي لتعلّم القراءة والكتابة بلغتي الأمّ. كتبتُ بالطّبشور على السّبّورة أنّ الرّوسيّة هي لغتي، لغة أرض لا يستغلّ فيها القلّةُ الكثيرين ولا يظطهدُ فيها المدرّسون تلاميذهم.

هناك رُزنامة كبيرة تتدلّى فوق سريري. شطبتُ كلّ يوم بقلم أحمر. لم أكن أعرفُ عدد الأيّام المتبقيّة لنهاية الحرب التي ما زالت تُشنّ في ألمانيا. ولكنّني كنتُ واثقا أنّ الجيش الأحمر يفعل ما بوسعه كي يقرّب هذه النّهاية أكثر.

أتسلّلُ كلّ يوم من دار الأيتام. فأذهبُ لشراء نسخة من البرافدا بالمال الذي كان غافريلا قد أعطاه لي. أقرأ متلهّفا كلّ الأخبار عن آخر الانتصارات. وأتأمّل بانتباه صور ستالين الجديدة. أشعر حينئذ بالاطمئنان. يبدو ستالين يافعا وفي حالة جيّدة. كلّ شيء يحدث بشكل ممتاز. وستنتهي الحربُ قريبا.

دُعيتُ ذات يوم من أجل الفحص الطّبّيّ. رفضتُ أن أترك بدلتي العسكريّة خارج المكتب. فتمّ فحصي، وأنا أحملها تحت ذراعي. وبعد الفحص، أجريتُ مُقابلة مع إحدى اللّجان الاجتماعيّة. قام أحد أعضائها، وهو رجل كبير السّنّ، بقراءة كلّ وثائقي بعناية. اقترب منّي بطريقة ودّيّة. ذكر اسمي. وسألني إن كانت لديّ أدنى فكرة عن المكان الذي عزم والداي على الذّهاب إليه عندما تركاني. تظاهرتُ بأنّني لم أفهم. فترجم أحدهم السّؤال إلى الرّوسيّة، مُضيفا أنّه يُشبّهُ إليه أن قد عرف والداي قبل الحرب. كتبتُ على لائحة ودون مبالاة أنّ والديّ قد توفّيا. قتلا في انفجار قنبلة. نظر إليّ أعضاء اللّجنة بارتياب. حيّيتهم بثبات. وخرجتُ من الغرفة. لقد أزعجني الرّجل الفضوليّ.

كنّا خمس مائة طفل في دار الأيتام، مُقسّمين إلى مجموعات. نحضر دروسا في فصول دراسيّة صغيرة معتمة. كان العديدُ من الأولاد والبنات معاقين يتصرّفون بشكل غريب. تزدحمُ القاعات بنا. وتنقصنا المكاتب والسّبّورات. أجلسُ إلى جانب ولد في مثل سنّي تقريبا. يظلّ يتمتمُ دون توقّف: "أين بابا؟ أين بابا؟". كان ينظر من حوله، كما لو أنّه يتوقّع أن يظهر أباه من تحت المكتب. فيربّت على جبينه المتصبّب عرقا. خلفنا تماما، توجدُ فتاة فقدت كلّ أصابعها في انفجار. كانت تُحدّقُ في أصابع الأطفال الآخرين المتحرّكة بحيويّة

كالدّيدان. وما أن يلاحظ هؤلاء نظرتها حتّى يخفوا أياديهم كما لو أنّهم خائفون من عينيها. وأبعد منها، ثمّت صبيّ فقد جزءا من فكّه وذراعه. يُضطرّ في كلّ مرّة إلى أن يطعمه الآخرون. وتنبعث منه رائحة جرح متقيّح. وكان هناك العديد من الأطفال الآخرين المعاقين جزئيّا.

اعتدنا جميعا أن ننظر إلى بعضنا البعض باشمئزاز وخوف. لا أحد يعرفُ مُسبقا ما قد يفعله جاره. كان العديد من الأولاد في الصّفّ أكبر وأقوى منّي. وهم يعرفون جميعا أنّني لا أستطيع التّكلّم. ولهذا السّبب، حسبوني معتوها. لقّبوني بألقاب عديدة. وضربوني أحيانا. في الصّباح، عندما أذهبُ إلى الصّفّ، أشعر بأنّني واقع في فخّ وأكون خائفا وقلقا. يزدادُ تحسّبي لأيّ كارثة ممكنة. كنتُ مشدود الأعصاب مثل المطّاط في مقلاع. وأصغرُ حادثة بإمكانها أن تفقدني التّوازن. لم أكن خائفا من أن يُهاجمني الأولادُ الآخرون بقدر خوفي من إصابة أحدهم عند الدّفاع عن نفسي. فكما يقال لنا دائما في دار الأيتام، قد يعني ذلك الذّهاب إلى السّجن، الأمر الذي سينهي كلّ آمالي للعودة إلى غافريلا.

لم أكن قادرا على التّحكّم في حركاتي أثناء الشّجار. تكتسبُ يداي حياة تخصّهما. ولا يمكن حينئذ فكّهما من أيّ خصم. بالإضافة إلى ذلك، لا أتوصّل إلى الهدوء لفترة طويلة بعد العراك. أظلّ أفكّر مُسترجعا ما حدث. وتأخذني الحماسة من جديد.

أعجز كذلك عن الهرب. حين أرى مجموعة من الأولاد قادمين باتّجاهي، أتوقّف على الفور. أحاول أن أقنع نفسي أنّني أتفادى التّعرّض للهجوم من الخلف وأنّه من الأفضل لي أن أقيس قوّة العدوّ ونواياه. ولكنّ الحقيقة أنّني لا أستطيع الهروب، حتّى لو رغبتُ في ذلك. تُصبح ساقاي ثقيلتين بشكل غريب. ويتوزّع وزني على جسدي بطريقة غامضة.

يُصبح فخذاي وربلتيّ رصاصيّين، فيما تخفّ ركبتاي وترتخيان كوسائد ناعمة. تبدو ذكرى كلّ عمليّات الهروب النّاجحة التي قمت بها من قبل، غير مفيدة في تلك اللّحظة. تُقيّدني آليّة غامضة إلى الأرض. فأقف. وأكتفي بانتظار المهاجمين.

أفكّر طيلة الوقت بتعاليم ميتكا: على الرّجل ألاّ يسمح لأحد بأن يسيء معاملته أبدا، لأنّه سيفقد حينئذ احترامه لذاته. وتصبح كلّ حياته بلا معنى. الشّيء الوحيدُ الذي بإمكانه أن يحفظ له احترامه لذاته ويثبّت قيمته هو قدرته على الثّأر من أولئك الذين أساؤوا إليه.

على المرء أن يثأر لكلّ إساءة أو إهانة. ولكن، هناك الكثير من المظالم في العالم، أكثر ممّا يسمح للمرء بأن يزنها جميعا ويحاكمها. يجب على الرّجل أن ينظر في كلّ إساءة قاساها. ويقرّر الانتقام المناسب لها. وحدها القناعةُ بأنّ المرء يُظاهي عدوّه في القوّة وبإمكانه أن يردّ له ضعف إساءته ما يسمح لهُ بأن يبقى حيّا. هكذا قال ميتكا. وعلى الرّجل أيضا أن يثأر وفق طبيعته الخاصّة والوسائل المُتاحة له. الأمر بسيط جدّا: إذا كان شخص مّا وقحا معك وآلمك الأمر كما لو أنّه ضربة سوط، فعليك أن تعاقبه تماما كما لو أنّه جلدك بسوط. وإذا صفعك شخص وشعرت بذلك كأنّه ألف ضربة، فاقتصّ منه ثأر ألف ضربة. ينبغي على الانتقام أن يتناسب وكلّ الألم والمرارة والإهانة التي تشعر بها نتيجة لتصرّف خصمك. قد لا تكون صفعة في الوجه مؤلمة جدّا بالنّسبة إلى رجل بعينه. ولكن قد تدفع رجلا آخر إلى أن يستحضر المعاناة التي تحمّلها طيلة مئات الأيّام من الضّرب. قد ينساها الرّجل الأوّل في غضون ساعة. وقد يُعذّب الثّاني طيلة أسابيع بذكريات كابوسيّة.

وطبعا، يظلّ العكسُ صحيحا. إذا ضربك رجل بعصا وشعرت كما لو أنّها صفعة، فاقتصّ منه ثأر صفعة إذن.

كانت الحياة في دار الأيتام مليئة بالهجومات والمعارك غير المتوقّعة. تقريبا، يملك كلّ واحد منّا كنية تخصّه. هناك صبيّ في صفّي يُلقّب بالدّبّابة، لأنّه يلكم بقبضته كلّ من يقف في طريقه. وهناك آخر يُدعى المدفع، لأنّه يلقي أشياء ثقيلة على الآخرين بلا سبب. وكان هناك آخرون: السّيفُ، من يضرب عدوّه بحافّة ذراعه، الطّائرةُ، من يصرعك أرضا ويركلك في وجهك، القنّاص، من يلقي بالحجارة من بعيد وقاذفُ اللّهب وهو من يُشعل أعواد كبريتٍ تحترقُ ببطء، ويقذفها تحت الملابس وفي الحقائب.

للفتيات أيضا كنيات وألقاب. اعتادت القنبلة اليدويّة أن تمزّق وجوه أعدائها بمسمار مخفيّ في كفّها. هناك أيضا المتحزّبة، وهي صغيرة الحجم ومتحفّظة. تجثم على الأرض. وتعثّر المارّة بخطفة ساق متقنة، فيما تعانقُ حليفتها القذيفةُ الخصم السّاجد، كما لو أنّها تُحاول أن تمارس معه الحبّ. فتوجّه له ضربة ركبة احترافيّة في خصره.

لم يتمكّن المدرّسون والمرافقون من التّعامل مع هذه المجموعة. وقد كانوا في أغلب الأحيان يتجنّبون التّدخّل في المعارك، خوفا من الأولاد الأقوى. تقعُ أحيانا حوادث أكثر خطورة. فمثلا، ألقى المدفع مرّة جزمة ثقيلة على فتاة صغيرة رفضت فيما يبدو أن تقبّله. وماتت بعد ساعات قليلة. في مناسبة أخرى، أضرم قاذفُ اللّهبِ النّارَ في ملابس ثلاثة أولاد. وحبسهم في أحد الفصول. لقد حُمل اثنان منهما إلى المُستشفى مُصابين بحروق كبيرة.

يجلبُ كلّ قتال الدّماء. يتقاتل الأولاد والفتيات من أجل حيواتهم. ولا أحد بإمكانه أن يفكّهم من بعضهم. وفي اللّيل، تحدثُ أشياءُ أسوأ من

ذلك حتّى. يُهاجمُ الأولادُ الفتيات في الأروقة المظلمة. ذات ليلة اغتصب عدّة فتيان ممرّضة في الطّابق السّفليّ. احتفظوا بها هناك طيلة ساعات، وهم يدعون أولادا آخرين للانضمام إليهم ويستمرّون في إثارتها بطرق مدروسة كانوا قد تعلّموها في أماكن مختلفة أثناء الحرب. آلت في النّهاية إلى حالة من الهيجان المجنون. وظلّت تصرخُ وتصيح طيلة اللّيل إلى أن جاءت سيّارة الإسعاف وأخذتها.

تُحاول الفتيات الأخريات إثارة الانتباه. فهنّ يتعرّين من ملابسهنّ. ويطلبن من الأولاد أن يلمسهنّ. ويتحدّثن بشكل فاضح عن الطّلبات الجنسيّة التي فرضها عليهنّ العديدُ من الرّجال خلال الحرب. هناك من يقول إنّهنّ لا يستطعن الذّهاب إلى النّوم قبل الظّفر برجل. كنّ يهربن إلى المتنزّهات ليلا. ويلتقطن الجنود السّكارى.

كان العديدُ من الأولاد والفتيات سلبيّين ولامبالين. يقفون مُستندين إلى الجدران، صامتين في أغلب الأحيان. لا يبكون ولا يضحكون. بل يحدّقون في صورة مّا بإمكانهم وحدهم أن يروها. يُقال إنّ بعضهم قد عاش في الغيتو أو معسكرات الاعتقال. لولا نهاية الاحتلال، لكانوا قد ماتوا منذ زمن بعيد. يبدو أنّ آخرين قد مكثوا مع آباء بالتّبنّي شجعين ووحشيّين، استغلّوهم بلا رحمة وقاموا بضربهم لأصغر علامة عصيان ممكنة. هناك أيضا من لا يملك أيّ ماض مميّز، أولئك الذين وُضعوا في دار الأيتام من قبل الجيش أو الشّرطة. لا أحد يعرفُ أصولهم ولا أماكن آبائهم ولا أين قضّوا الحرب. وقد رفضوا بدورهم أن يقولوا أيّ شيء عن أنفسهم. يجيبون على جميع الأسئلة بجمل مراوغة وأنصاف ابتسامات تُحدث ازدراء لا حدود له لدى المُستجوِبين.

كنتُ أخشى أن أنام في اللّيل، لأنّ الأولاد كانوا معروفين بتبادل المقالب المؤلمة. أرقد ببدلتي العسكريّة، مُحبّذا سكّينا في جيب وقبضة حديديّة في الجيب الآخر.

كلّ صباح، أشطبُ يوما آخر في رزنامتي. برافدا تقول إنّ الجيش الأحمر قد وصل إلى عشّ الأفعى النّازيّة.

شيئا فشيئا، أصبحتُ صديقا لولد يُدعى الصّامت. كان يتصرّفُ كما لو أنّه أبكم. لا أحد قد سمع صوته منذ جاء إلى دار الأيتام. يُعرف عنه أنّه يستطيع الكلام. لكنّه عند نقطة مّا من الحرب، قرّر أنّه لا معنى لفعل ذلك. حاول الأولاد الآخرون أن يجبروه على الكلام. وقد ضربوه مرّة حتّى نزف الدّماء. لكنّهم لم يستخرجوا منه ولو مجرّد صوت واحد.

كان الصّامت أكبر منّي وأقوى. تفادينا بعضنا البعض في البداية. فقد حسبتُ أنّه من خلال رفضه للكلام يسخر من الأولاد الذين هم مثلي، عاجزون عن التّكلّم. وإذا قرّر الصّامتُ، وهو ليس أبكم، أن يمتنع عن الكلام، فقد يعتقدُ الآخرون أنّني أرفض بدوري التّكلّم فحسب، رغم قدرتي على ذلك إذا ما أردتُ. صداقتي معه لن تفعل شيئا سوى أن تعزّز هذا الانطباع.

في أحد الأيّام، جاء الصّامتُ بشكل غير متوقّع لإنقاذي. فصرع ولدا كان يضربني في الرّواق. وفي اليوم التّالي، شعرتُ أنّني مُجبر على القتال إلى جانبه في عراك نشب أثناء فترة الاستراحة.

جلسنا بعد ذلك في المكتب نفسه آخر القسم. كتبنا في البداية ملاحظات لبعضنا البعض. ثمّ تعلّمنا لاحقا التّواصل بالإشارات. رافقني الصّامتُ في رحلاتي الاستكشافيّة إلى محطّة القطار، حيثُ تصادقنا مع الجنود السّوفييت المغادرين. وسرقنا معا درّاجة ساعي بريد مخمور.

عبرنا حديقة المدينة العامّة التي ما تزالُ مزروعة بالألغام الأرضيّة ومغلقة. وتفرّجنا في الفتيات يتعرّين في المسابح الجماعيّة.

نتسلّلُ في المساء من المهجع. ونذهب للتّسكّع في السّاحات والباحات المجاورة. نُخيفُ العشّاق أثناء ممارستهم للحبّ. نرشق النّوافذ المفتوحة بالحجارة. ونهاجم المارّة المطمئنّين. وكان الصّامتُ، الأطولُ والأقوى، يتصرّفُ دائما باعتباره القوّة الضّاربة.

كلّ صباح، يوقظنا صفيرُ القطار، وهو يمرّ على مقربة، حيثُ المزارعون القادمون إلى المدينة ومعهم منتجاتهم من أجل السّوق. وفي المساء، يعود نفس القطار إلى القرى، مُتقدّما على امتداد مسلكه الوحيد. تتلألأ نوافذه المُضاءةُ بين الأشجار مثل صفّ من اليراعات.

في الأيّام المشمسة، أتمشّى مع الصّامت على امتداد المسلك، فوق العوارض الخشبيّة التي تُدفئها الشّمسُ والحصى النّاتئِ الذي يؤلم أقدامنا الحافية. أحيانا، حين يكون هناك ما يكفي من الأولاد والفتيات القادمين من المباني المجاورة، فإنّنا نقدّم لهم عرضا. أتمدّدُ قبل دقائق من قدوم القطار بين قضيبَيْ السّكّة. وجهي نحو الأرض. ذراعاي مثنيّتان فوق رأسي. وجسدي منبطح قدر الإمكان. يجمع الصّامتُ الجمهور، فيما أنتظر في صبر. وبينما يقتربُ القطار، أسمع هدير العجلات المكتوم من خلال القضبان والرّوابط. وأشرع في الاهتزاز معها. عندما تكادُ القاطرة أن تصبح فوقي، أنبطحُ أكثر من قبل حتّى. وأحاول ألاّ أفكّر في شيء. ينزلقُ نفَس الفرن السّاخنُ من فوقي. ويندفعُ المحرّك الضّخم فوق ظهري. ثمّ تصلصلُ العربات بشكل موقّع في خطّ طويل، بينما أنتظر أن تمرّ آخر واحدة منها. تذكّرتُ مرّة كنتُ قد لعبتُ فيها اللّعبة نفسها في القرى. وقد حدث في

تلك المرّة أن أطلق المهندسُ بعض الرّماد المُشتعل في اللّحظة التي عبر فيها القطارُ فوق جسد الولد تحديدا. عندما رحل القطار، وجدنا الفتى ميّتا. ظهره ورأسه محترقان مثل البطاطا المحمّصة أكثر ممّا ينبغي. زعم العديدُ من الأولاد الذين عاينوا المشهد يومها أنّ عامل الفرن قد أطلّ من نافذته. رأى الفتى. وأطلق الرّماد المشتعل عن قصد. تذكّرتُ مناسبة أخرى، عندما كان القضيبان الحديديّان المتدلّيان بحرّية في نهاية العربة الأخيرة أطول من المعتاد. لقد حطّما رأس الصّبيّ المتمدّد بين قضبان السّكّة. وتهشّمت جمجمته مثل يقطينة مسحوقة.

رغم هذه الذّكريات القاتمة، فإنّ شيئا ممّا مُغريا للغاية يكمن في التّمدّد بين قضيبَيْ السّكّة، والقطارُ يعدو من فوق. فخلال اللّحظات التي تفصل بين عبور القاطرة وآخرِ عربة، أشعر أنّ بداخلي حياة نقيّة مثل حليب يُنشر بعناية على قطعة قماش. وخلال الوقت الوجيز الذي تهدر فيه العربات فوق جسد المرء، لا شيء يبدو ذا قيمة باستثناء حقيقة بسيطة وهي أنّه حيّ. أنسى لحظتها كلّ شيء: دار الأيتام وبُكمي وغافريلا والصّامت. وجدتُ في قاع هذه التّجربة البهجةَ العظيمة لعدم التّعرّض للأذى.

بعد مرور القطار، أقفُ مُستندا إلى يدين مرتجفتين وساقين واهنتين. وأنظر من حولي برضا وارتياح أعظم من أيّ مرّة اقتنصتُ فيها انتقاما شرّيرا من أحد أعدائي.

حاولتُ أن أحتفظ بذلك الشّعور بالحياة لأستخدمه مُستقبلا. فقد أحتاجهُ في لحظات الخوف والألم. بدت كلّ المخاوف فاقدة لأيّ معنى مُقارنة بالخوف الذي ملأني وأنا أنتظر الوصول الوشيك للقطار.

مشيتُ على الجسر مُتظاهرا بعدم المبالاة والملل. كان الصّامتُ أوّل من اقترب منّي بتحفّظ ولكن بطابع عفويّ مُتقن أيضا. انتزع الحصى وشظايا

الخشب المغروزة في ملابسي. وشيئا فشيئا، تحكّمتُ أكثر بارتجاف يديّ وساقيّ وزوايا فمي الجافّ. أمّا الآخرون فقد تحلّقوا بنا. وظلّوا يتفرّجون بإعجاب.

عدتُ لاحقا مع الصّامت إلى دار الأيتام. شعرتُ بالفخر. وكنتُ أعرفُ أنّه فخور بي أيضا. فلا أحد من الأولاد الآخرين تجرّأ على القيام بما فعلته. لقد توقّفوا مع مرور الوقت عن مضايقتي. ولكنّني عرفتُ أنّ عليّ معاودة العرض كلّ بضعة أيّام، وإلاّ سيكون هناك بالتّأكيد بعض المُرتابين الذين سيكذّبون الأمر ويشكّكون علنا في شجاعتي. فأضغطُ حينئذ نجمتي الحمراء إزاء صدري. أسير نحو السّكّة الحديديّة. وأنتظر هدير القطار المقترب.

اعتدتُ والصّامت أن نقضّي فترة كبيرة من الوقت عند مسلك السّكّة الحديديّة. كنّا نشاهد القطارات، وهي تعبر أمامنا. وأحيانا، نقفزُ على درجات العربات الخلفيّة. ثمّ نهبط منها عندما يبطئ القطار في المفترق.

يبعدُ المفترقُ بضعة أميال عن المدينة. كانوا قد شرعوا منذ فترة طويلة، قبل الحرب على الأرجح، في بناء خطّ ثانويّ لم يكتمل أبدا. وظلّ الطّرفان الحديديّان الصّدئان مكسوّين بالطّحالب. إذ لم يتمّ استخدامهما أبدا. وينتهي هذا الخطّ الثّانويّ غير المكتمل بعد بضع مئات من الأمتار، عند حافّة منحدر صخريّ، كان من المخطّط أن يشيّد من فوقه جسر. تفحّصنا بعناية نقطة المفترق عدّة مرّات. وحاولنا أن نحرّك المقبض. لكنّ الجهاز المتآكل لم يتزحزح.

مرّةً، رأينا صانع أقفال في دار الأيتام وهو يفتحُ قفلا تالفا ببساطة من خلال نقعه بالزّيت. وفي اليوم التّالي، سرق الصّامتُ زجاجة زيت

من المطبخ. وسكبناها في المساء على محامل جهاز التّبديل في السّكّة. انتظرنا قليلا حتّى نمنح الزّيت فرصة التّغلغل. ثمّ تشّبثنا معا ملء قوّتنا بالمقبض. صرّ شيءٌ مّا في داخل الجهاز. وتحرّك المقبض مهتزّا، بينما تحوّل الطّرفان الحديديّان إلى المسلك الآخر، مُحدثيْن قعقعة قويّة. شعرنا بالخوف لنجاحنا الذي لم نتوقّعه. وسرعان ما أعدنا المقبض إلى مكانه.

بعد ذلك، صرتُ أتبادلُ والصّامتَ نظرات موحية، كلّما مررنا بشوكة المفترق. كان هذا سرّنا المشترك. وكلّما جلستُ إلى ظلال شجرة مُشاهدا القطار يلوح في الأفق، اجتاحني إحساس بقوّة هائلة. لقد كانت حياة ركّاب القطار بين يديّ. كلّ ما كان عليّ فعله هو أن أقفز وأبدّل طرفي المفترق، مُرسلا القطار برمّته من فوق المنحدر إلى التّيّار السّاكن في الأسفل. لا يحتاجُ الأمر إلاّ لدفعة واحدة للمقبض...

تذكّرتُ القطارات التي كانت تحمل النّاس إلى غرف الغاز والمحارق. كان الرّجال الذين أطلقوا الأوامر ونظّموا كلّ ذلك يستمتعون على الأرجح بشعور مماثل بسلطة مطلقة على ضحاياهم العاجزين عن فهم ما يحدث لهم. لقد تحكّم هؤلاء الرّجال بمصير الملايين من الأشخاص الذين يجهلون أسماءهم ووجوههم ووظائفهم. ومع ذلك، كان بإمكانهم السّماح لهم بالحياة أو تحويلهم إلى سخام دقيق يطير في الرّيح. كلّ ما كان عليهم فعله هو أن يصدروا الأوامر، لتبدأ فرق العساكر والشّرطة المدرّبين في مدن وقرى لا تحصى بإلقاء القبض على النّاس المتّجهين إلى الغيتو ومعسكرات الموت. كانت لديهم القوّة الكافية ليقرّروا إن كانت الأطراف الحديديّة لآلاف المفترقات ستتبدّل نحو المسالك المؤدّية إلى الحياة أو الموت.

إنّه إحساس رائعٌ أن تكون قادرا على تقرير مصير الكثير من النّاس الذين لا تعرفهم حتّى. ولم أكن مُتيقّنا إن كانت المتعةُ في ذلك تعتمدُ على معرفة السّلطة التي يملكها المرء أم على استخدامها.

ذهبتُ بعد بضعة أسابيع مع الصّامت إلى السّوق المحلّيّة، حيثُ يجلبُ الفلاّحون من القرى المجاورة مُنتجاتهم وأعمالهم الحرفيّة مرّة في الأسبوع. كنّا نتوصّل عادة إلى اقتناص تفّاحة أو اثنتين وبعض الجزرات أو حتّى كأسا من القشدة مقابل الابتسامات التي نهبها للفلاّحات البدينات.

كان السّوق مُحتشدا بالنّاس. يهتفُ المزارعون مدحا لسلعهم. وتجرّبُ النّساء تنانير وسترات ملوّنة، بينما تخور البقرات الصّغيرة الخائفة وتنخر الخنازير راكضة بين الأرجل.

كنتُ أحدّقُ في درّاجة جنديّ لامعة حين تعثّرتُ بطاولة كبيرة عليها منتجات ألبان. وقلبتُها. انسكبت دلاء الحليب والقشدة وأكواز اللّبن في كلّ مكان. وقبل أن أجد الوقت لأهرب، لكمني مزارعٌ، طويل القامة أرجوانيّ اللّون من شدّة الغضب، بقبضة قويّة في وجهي. سقطتُ على الأرض. وبصقتُ ثلاث أسنان مكسوّة بالدّم. رفعني الرّجل من رقبتي مثل أرنب. وظلّ يضربني إلى أن تناثرت الدّماء على قميصه. دفع جانبا حشد المتفرّجين المجتمع. وزجّ بي داخل برميل فارغ. ثمّ ركله فوق كومة القمامة.

لم أع للحظات ما كان يحدث لي. سمعتُ ضحك الفلاّحين. وكان رأسي يطوف بي من الضّرب والتّدحرج داخل البرميل. كنتُ أختنق بدمائي. وشعرت بوجهي متورّما.

فجأة، رأيتُ الصّامت. كان شاحبا، يرتجفُ ويحاولُ إخراجي من البرميل. والفلاّحون يضحكون على محاولاته وينادونني بالضّال

الغجريّ. وخوفا من هجوم آخر، أخذ يدحرج البرميل، فيما ما أزال بداخله، باتّجاه نافورة ماء. لحق به بعض الأولاد من القرية. وحاولوا أن يغافلوه. ويأخذوا البرميل بعيدا. ولكنّه صدّهم بهراوة إلى أن وصلنا أخيرا إلى النّافورة.

زحفتُ إلى خارج البرميل، مُعوَّما بالماء والدّم والشّظايا تلتصقُ بظهري ويديّ. أسندني الصّامتُ إلى كتفه، بينما كنتُ أعرجُ على امتداد الطّريق. ووصلنا إلى دار الأيتام بعد مسير مؤلم.

ضمّد الطّبيب فمي ووجنتي الممزّقيْن. ظلّ الصّامتُ ينتظرُ خارج الباب. وعندما غادر الطّبيب، مكث يتأمّل وجهي المشوّه لفترة طويلة.

بعد أسبوعين، أيقظني الصّامتُ فجرا. كان مغطّى بالغبار. وقميصُه ملتصق بجسده المتعرّق. فهمتُ أنّه قضّى طيلة اللّيل خارج الدّار. أشار لي كي أتبعه. لبستُ ثيابي متعجّلا. وسرعان ما كنّا بمفردنا في الخارج.

اصطحبني إلى كوخ مهجور لا يبعد كثيرا عن مفترق السّكك الحديديّة، حيث كنّا قد كسونا المقبض بالزّيت. تسلّقنا إلى السّقف. أشعل الصّامتُ سيجارة وجدها في الطّريق. وأومأ لي كي أنتظر. لم أفهم أيّ شيء ممّا يحدث. لكن لم يكن لديّ أيّ خيار آخر.

بدأت الشّمسُ تشرقُ. كان النّدى يتبخّر من سقف القطران. وديدانٌ بنّيّة أخذت تزحف من تحت مزاريب المطر.

سمعنا صفير القطار. تماسك الصّامتُ. وأشار بيده. شاهدتُ القطار يلوح في الضّباب البعيد ويقتربُ ببطء. كان يوم السّوق. والعديد من المزارعين يستقلّون قطار الصّباح الأوّل هذا. فهو يعبر بعض القرى قبل

الفجر. العربات مكتظّة. والسّلال عالقة خارج النّوافذ. وعناقيد من النّاس متشبّثة بالعتبات.

اقترب الصّامتُ منّي، متعرّقا ويداه رطبتان. كان يلعقُ شفتيه الرّقيقتين من حين إلى آخر. ويمسّح شعره إلى الخلف، مُحدّقا في القطار. وفجأة، بدا أكبر سنّا بكثير.

اقترب القطار من المفترق. وأطلّ المزارعون من النّوافذ، شعورهم الصّفراءُ تطير في الرّيح. ضغط الصّامتُ بقوّة شديدة على ذراعي، حتّى أنّي قفزتُ. وفي اللّحظة نفسها، انحرفت القاطرة جانبا، ملتوية بعنف كما لو أنّ قوّة لا مرئيّة تجرُّها.

تبعت العربتان الأماميّتان لوحدهما المحرّك بطواعية. أمّا العربات الأخرى، فقد تعثّرت وتسلّقت بعضها بعضا مثل خيول جامحة. وسقطت عن الجسر في الآن نفسه. سُمع صوتُ الارتطام مُحدثا قعقعة ودويّا هائلا. انطلقت سحابة من البخار نحو السّماء. وأظلمت كلّ شيء. ثمّ وصل من الأسفل صوت الصّراخ والنّحيب.

ذُهلتُ. وأخذتُ أرتجفُ مثل سلك هاتفيّ أصابه حجر. تراجع الصّامتُ. وأمسك لوهلة بركبتيه بشكل متقطّع، وهو يحدّقُ في الغبار مُستقرّا ببطء. ثمّ التفت. واندفع نحو السّلالم، وهو يجرّني من خلفه. عدنا سريعا إلى دار الأيتام، متجنّبين حشد النّاس المهرولين إلى مكان الحادث. كانت نواقيسُ سيّارات الإسعاف تضجُّ في الأنحاء.

كان الجميعُ ما يزالُ نائما في دار الأيتام. وقبل أن أذهب إلى المهجع، ألقيتُ نظرة مطوّلة على الصّامت. لا أثر للتّوتّر على وجهه. نظر إليّ من جهته، مُبتسما بلطف. ولو لم تكن الضّمّادات حول وجهي وفمي، لكنتُ ابتسمتُ له أيضا.

تحدّث الجميعُ في المدرسة خلال الأيّام القليلة التّالية عن كارثة السّكك الحديديّة. نشرت الصّحف ذات الحوافّ السّوداء قائمة الضّحايا. كانت الشّرطة تبحث عن مخرّبين سياسيّين يُشتبه في ارتكابهم لجرائم سابقة. وظلّت الرّافعات فوق السّكّة ترفع العربات التي تداخل بعضها في بعض وتشوّه شكلها.

في المرّة التّالية، استعجلني الصّامتُ لنذهب إلى مكان السّوق. شققنا طريقنا عبر الحشد. كان العديدُ من المناصب فارغا، فيما تعلمُ بطاقاتٌ ذاتُ صلبانٍ سود بموت أصحابها. نظر إليها الصّامت. وأبدى لي متعته بذلك. لقد كنّا مُتّجهين إلى منصب مُعذِّبي.

رفعتُ بصري إلى أعلى. فلمحتُ الشّكل المألوف بأكواز الحليب والقشدة وقوالب الزّبدة الملفوفة بالقماش وبعض الثّمار. ومن خلفها يطلّ رأس الرّجل الذي حطّم أسناني وزجّ بي في البرميل، كما لو أنّه جزء من عرض دمى.

نظرتُ إلى الصّامت منزعجا. كان يحدّقُ في الرّجل غير مصدّق لما يراهُ. وعندما انتبه لنظرتي، أمسك بيدي. وغادرنا السّوق بسرعة. وما أن وصلنا إلى الطّريق، سقط على العشب وبكى، كما لو أنّه يشعر بألم فظيع. تحرّكت كلماته مكتومة عند الأرض. وكانت تلك أوّل مرّة أسمع فيها صوته.

19

في الصّباح الباكر، نادى عليّ أحد المدرّسين. كنتُ مطلوبا إلى مكتب المديرة. خمّنتُ في البداية أنّ الأمر يتعلّق دون شكّ بأخبار جديدة من غافريلا. ولكنّني في الطّريق إلى المكتب بدأت أشكّ في ذلك.

كانت المديرةُ تنتظرني في مكتبها مصحوبة بعضو اللّجنة الاجتماعيّة الذي كان قد ظنّ أنّه التقى والديّ قبل الحرب. استقبلاني بلطف. وطلبا منّي أن أجلس. لاحظتُ أنّهما متوتّران، رغم حرصهما على إخفاء ذلك. نظرتُ من حولي قلقا. وسمعتُ أصواتا في مكتب مجاور.

ذهب رجل اللّجنة إلى الغرفة المجاورة. وتحدّث مع شخص مّا هناك. ثمّ فتح الباب على مصراعيه. كان رجلٌ وامرأةٌ يقفان في الدّاخل.

بدوَا لي بشكل مّا مألوفين. وأمكنني أن أسمع قلبي ينبضُ تحت نجمة بدلتي العسكريّة. تحاملتُ على نفسي لأظهر علامة عدم مبالاة. وتفحّصتُ وجهيهما. كان الشّبهُ واضحا جدّا. يمكنُ لهذين الاثنين أن يكونا والديّ. تمسّكتُ بمقعدي، بينما الأفكار تتسابقُ في رأسي مثل رصاصات مرتدّة. والداي... لم أعرف ماذا أفعل. هل أقرّ بأنّني تعرّفتُ عليهما أم أتظاهر بعكس ذلك؟

اقتربا منّي. وانحنت المرأة عليّ. فجأة، تغضّن وجهها بالدّموع. فسندها الرّجل بذراعه، وهو يعدّل في توتّر نظّارتيه على أنفه الرّطب. كان هو الآخر يرتجفُ متنهّدا. لكنّه تمالك سريعا. وتوجّه إليّ بالحديث. كلّمني بالرّوسيّة. فلاحظتُ أنّ كلامه كان مُنسابا وجميلا مثل كلام غافريلا. طلب منّي أن أفتح أزرار بدلتي. ينبغي أن تكون هناك على الجهة اليسرى من صدري علامة مميّزة.

كنتُ أعرفُ أنّني أحملُ تلك العلامة. تردّدتُ قليلا، ثُمّنا إن كان عليّ أن أظهرها. إذا فعلتُ ذلك، سيضيعُ كلّ شيء. لم يكن هناك أيّ شكّ أنّني ابنهما. فكّرتُ لبضع دقائق. لكنّني شعرتُ بالأسف على المرأة الباكية. فأخذتُ أفكّ أزرار بدلتي ببطء.

لم يكن هناك أيّ مخرج، مهما تأمّلت الوضع الذي كنتُ فيه. الآباء، كما قال غافريلا مرّة، يملكون الحقّ على أبنائهم. لم أصر بالغا بعدُ. فقد كنتُ في الثّانية عشرة فقط. ومن واجبهما أخذي معهما، حتّى لو لم يريدا ذلك.

نظرتُ إليهما مجدّدا. ابتسمت لي المرأة رغم المسحوق المختلط بالدّموع على وجهها. وفرك الرّجل يديه بحماس. لا يبدوان مثل شخصين بإمكانهما ضربي. على العكس من ذلك، كانا واهنين سقيمين.

صارت بدلتي الآن مفتوحة والعلامة المميّزة مرئيّة بوضوح. انكبّا عليّ باكيين، يحضناني ويقبّلانني. شعرتُ بالتّردّد مرّة أخرى. كنتُ أعلمُ أنّ بإمكاني أن أهرب في أيّ وقت. أقفز إلى إحدى القطارات المكتظّة. وأمضي فيها إلى حيث لا يمكن لأحد أن يلحق بي. لكنّني رغبتُ في أن يجدني غافريلا. ولذلك، كانت حكمةً منّي أنّني لم أهرب. كنتُ أعرفُ أيضا أنّ العودة إلى والديّ تعني نهاية كلّ أحلامي في أن أصبح مخترعا عظيما للمتفجّرات لتغيير ألوان النّاس وأن أعمل في أرض غافريلا وميتكا، حيثُ يوجدُ الغدُ سلفا.

بدأ عالمي يضيقُ على الفور مثل علّيّة في كوخ مزارع. لطالما كان المرء معرّضا للوقوع في فخاخ أولئك الذين يكرهونه ويريدون تعذيبه أو أحضان أولئك الذين يحبّونه ويريدون حمايته.

لم يكن في وسعي أن أقبل بسهولة فكرة أن أصبح فجأة ابنا حقيقيّا لشخص مّا، أن يُمسّح على شعري ويُعتنى بي وأن يكون عليّ طاعة شخصين، لا لأنّهما أقوى منّي وبإمكانهما إيذائي، وإنّما لكونهما والديّ ولديهما حقوق عليّ، ليس لأحد أن يفتكّها منهما.

طبعا، للوالدين منافعهما عندما يكون الطّفل صغيرا جدّا. لكنّ صبيّا في سنّي يجدر به أن يكون حرّا من أيّ قيد. ومن المفترض أن يختار بنفسه النّاس الذين يريد أن يتّبعهم ويتعلّم منهم. ومع ذلك، لم أستطع أن أهرب. نظرتُ إلى الوجه الباكي للمرأة التي كانت أمّي والرّجل المرتجف الذي كان أبي، وهو غير متيقّن إن كان عليه أن يمسّح شعري أم يربّت على كتفي. قيّدتني قوّة داخليّة. ومنعتني من الفرار. شعرتُ فجأة مثل طائر لاكْ الذي كانت تسحبهُ قوّةٌ مجهولة إلى بني جنسه.

مكثتُ أنا وأمّي بمفردنا في الغرفة. وخرج أبي ليهتمّ بالإجراءات. قالت إنّني سأكون سعيدا معها ومع أبي، بإمكاني أن أفعل أيّ شيء أريده، وسيصنعان لي زيّا عسكريّا جديدا يكونُ نسخة طبق ذاك الذي أرتديه.

بينما أصغي إلى كلّ هذا، تذكّرتُ الأرنب البرّيّ الذي أوقعهُ مكار ذات مرّة في فخّه. لقد كان حيوانا كبيرا وجميلا. ويمكن للمرء أن يستشعر بداخله نزوعا إلى الحرّيّة، إلى القفزات الكبيرة والسّقطات اللاّعبة والفرار السّريع. حُبس بعد ذلك في قفص. سخط. داس

بقدميه. ضرب بجسمه على الجدران. فقد مكار راحته. وشعر بعد أيّام قليلة بالغضب الشّديد. فألقى عليه قطعة ثقيلة من المشمّع. تقلّب الأرنب تحتها. وقاوم. لكنّه استسلم في النّهاية. أصبح مروّضا في الأخير. وكان يأكل من يدي. وذات يوم، ثمل مكار. فترك باب القفص مفتوحا. قفز الأرنب إلى الخارج. واندفع مسرعا نحو المروج. حسبتهُ سيغطسُ في العشب الطّويل بقفزة واحدة هائلة. ولن يراه أحدٌ مجدّدا. لكن بدا أنّه يتذوّق طعم حرّيته. واكتفى بالجلوس، منتصب الأذنين. ومن الحقول والغابات البعيدة جاءت أصوات لا أحد غيره بإمكانها أن يسمعها ويفهمها وروائح بإمكانه وحده أن يتذوّقها. كان كلّ ذلك ملكه. وقد خلّف القفص وراءه.

فجأة، تبدّل شيء مّا بداخله. تراخت الأذنان المتيقّظتان. انكمش على نحو مّا. وصغر حجمه. قفز مرّة واحدة. واستقامت سوالفه. لكنّه لم يهرب. صفّرتُ بقوّة آملا أن أعيده إلى حواسّه. فيكتشف أنّه كان حرّا. اكتفى بالالتفات ببطء، كما لو أنّه شاخ فجأة وتقلّص جسمهُ. ثمّ تحرّك باتّجاه القفص. توقّف في طريق عودته للحظة. وقف قليلا. ونظر إلى الخلف مجدّدا بأذنين منتصبتين. واجتاز الأرانب الأخرى المحدّقة فيه، قافزا داخل القفص. أغلقتُ الباب رغم عدم الحاجة إلى ذلك. لقد أصبح الآن يحملُ القفص في داخله. وهو يقيّدُ دماغهُ وقلبه. ويشلّ عضلاته. الحرّيّة التي كانت تميّزه من الأرانب الخاملة النّاعسة الأخرى تركتهُ الآن مثل رائحة تضوع من الهندباء المتقصّف الجافّ. فتذروها الرّياحُ.

عاد أبي. احتضنني هو وأمّي. ومكثا يتفحّصانني ويتبادلان بعض الملاحظات التي تخصّني. حان الوقتُ لمغادرة دار الأيتام. ذهبنا لنودّع الصّامت. نظر بريبة إلى والديّ، وهو يهزّ رأسه. ورفض تحيّتهما.

خرجنا معا إلى الشّارع. وساعدني أبي في حمل كتبي. كانت الفوضى تعمّ كلّ شيء. ثمّت أناس متّسخون وشاحبون بأسمال بالية وأكياس فوق

ظهورهم يعودون إلى بيوتهم، وهم يتخاصمون مع أولئك الذين احتلّوهم أثناء الحرب. مشيتُ بين والديّ، متحسّسا أيديهما على كتفيّ وشعري. وشعرت بالاختناق من حبّهما وحمايتهما لي.

اصطحباني إلى شقّتهما التي تمكّنا من استعارتها بصعوبة بعد أن علما أنّ فتى يستجيب لمواصفات ابنهما موجود في المركز المحلّيّ، ويمكن ترتيب لقاء معه. كانت تنتظرني مفاجأة في الشّقّة. لديهما طفل آخر يبلغ من العمر أربع سنوات. وقد شرحا لي أنّه يتيمٌ قُتل والداهُ وأخته الكبرى. أنقذته ممرّضته السّابقة. وسلّمته لأبي في مرحلة مّا من تسكّعهما خلال السّنة الثّالثة من الحرب. فتبنّياه. ويمكنني أن أرى أنّهما أحبّاه كثيرا.

لم يساهم هذا الأمر إلاّ في تقوية ريبتي. ألم يكن من الأفضل لي أن أمكث لوحدي في انتظار أن يأتي غافريلا في النّهاية ويتبنّاني؟ أفضّل أن أكون بمفردي، أتسكّع من قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة غير عارف أبدا لما قد يحدث. هنا كلّ شيء متوقّع سلفا.

كانت الشّقّة صغيرة، تضمّ غرفة واحدة ومطبخا. وهناك حمّام عند الدّرج. وهي مكتظّة إلى درجة أنّنا نسدّ الطّريق على بعضنا البعض. كان أبي يعاني من مرض في القلب. إذا أزعجه أيّ شيء فإنّه يصبحُ شاحبا. ويغطّي العرق وجهه. فيبتلع حينئذ بعض حبوب الأدوية. تذهبُ أمّي عند الفجر لتنتظر في طوابير الطّعام اللاّنهائيّة. وعندما تعود، تشرعُ في الطّبخ والتّنظيف.

كان الطّفل الصّغير مصدر إزعاج. فهو يصرّ على اللّعب كلّما قرأتُ الصّحف التي تنشر نجاحات الجيش الأحمر. يتمسّكُ بسروالي.

وينقر بيده على كتبي. وذات يوم أزعجني كثيرا إلى درجة أنّني أمسكتُ بذراعه. واعتصرتها بقوّة شديدة. طقطق شيء مّا بداخلها. وصرخ الطّفل بجنون. اتّصل أبي بطبيب. لقد كسر عظمها. في تلك اللّيلة، بينما كان الطّفل في سريرة والجبيرة في ذراعه، ظلّ يئنُّ بصوت خافت ويحدّق فيّ مرعوبا. نظر إليّ والداي دون أيّ كلمة.

كنتُ أغادرُ سرّا في كثير من الأحيان لألتقي بالصّامت. وفي أحد الأيّام، لم يحضر في الوقت المحدّد. أخبروني لاحقا في دار الأيتام أنّه قد نُقل إلى مدينة أخرى.

جاء الرّبيع. وفي يوم ممطر من شهر مايو، انتشر خبر انتهاء الحرب. رقص النّاسُ في الشّوارع، وهم يقبّلون بعضهم البعض ويتبادلون الأحضان. وفي المساء، سمعنا سيّارات الإسعاف في جميع أنحاء المدينة، وهي تلتقطُ كلّ أولئك الذين أصيبوا خلال المشاجرات التي نشبت في حفلات السّكر. خلال الأيّام التي تلت، زرتُ دار الأيتام بشكل متكرّر، راجيا أن أعثر على رسالة من غافريلا أو ميتكا. ولكن، لم يكن هناك أيّ شيء.

قرأتُ الصّحف بانتباه مُحاولا أن اكتشف ما كان يحدث في العالم. لم تكن كلّ الجيوش عائدة إلى أوطانها. وستظلّ ألمانيا محتلّة. وقد تمرّ سنوات قبل أن يعود غافريلا وميتكا.

أصبحت الحياةُ في المدينة أكثر صعوبة. كلّ يوم تحلّ جموع من النّاس من كافّة أنحاء البلاد، آملين أن يكون كسب العيش في مركز صناعيّ أسهل ممّا هو عليه في القرى، وأنّ بإمكانهم استعادة ما قد خسروه. وإذ لم يقدروا على العثور على عمل أو أماكن للعيش، كان هؤلاء يترنّحون ذاهلين في الشّوارع متعاركين من أجل مقاعد في التّرام والحافلات والمطاعم. لقد كانوا متوتّرين، حادّي المزاج وعدوانيّين. بدا أنّ الجميع

يحسبُ نفسه مُصطفى من قبل القدر لمجرّد أنّه نجا من الحرب، ويشعر لذلك بأنّه مخوّل لإذعان الآخرين.

ذات مساء، منحني والداي نقودا للذّهاب إلى السّينما. كان هناك فيلم سوفياتيّ عن رجل وفتاة لهما موعد في تمام السّاعة السّادسة، في اليوم الأوّل بعد الحرب.

كان هناك حشد في شبّاك التّذاكر. فانتظرت في الطّابور وبصبر عدّة ساعات. وعندما حان دوري، اكتشفتُ أنّني فقدتُ إحدى قطعي النّقديّة. وإذ رأى القابضُ أنّني أبكم، وضع تذكرتي جانبا لأستلمها عندما أحضر بقيّة النّقود. هرعتُ إلى المنزل. وفي غضون نصف ساعة، عدتُ بالمال مجدّدا. وحاولتُ أن أحصل على تذكرتي في شبّاك التّذاكر. طلب منّي أحد المرافقين هناك أن أنضمّ إلى الطّابور مجدّدا. لم اكن أحمل لوحتي معي. ولذلك حاولتُ أن أشرح له بالإشارات أنّني كنتُ قد انتظرتُ دوري من قبل وأنّ تذكرتي بانتظاري. لم يحاول أن يفهم. بل إنّه أمسكني من أذني لتسلية النّاس المنتظرين في الخارج. ودفعني بقوّة. انزلقتُ. وسقطتُ على الحصى. أخذ الدّم يقطر من أنفي على بدلتي العسكريّة. عدتُ إلى البيت سريعا. وضعتُ ضمّادة باردة على وجهي. وشرعتُ أخطّط للانتقام.

مساء، عندما كان والداي يستعدّان للذّهاب إلى النّوم، ارتديتُ ثيابي. سألاني عن وجهتي في قلق. فأشرتُ إليهما أنّني ذاهب ببساطة للتّنزّه. وحاولا إقناعي أنّه من الخطير الخروج في اللّيل.

ذهبتُ مباشرة إلى المسرح. لم يكن هناك الكثير من النّاس عند شبّاك التّذاكر. والمرافق الذي ألقى بي خارجا كان يتمشّى مُتراخيا في الفناء. التقطتُ حجرين كبيرين من الشّارع. وانسللتُ إلى درج مبنى مجاور لقاعة السّينما. أسقطتُ قارورة فارغة من الطّابق الثّالث. ومثلما توقّعت، جاء المرافق بسرعة إلى مكان سقوطها. وعندما انحنى عليها

ليتفحّصها، أسقطتُ الحجرين. وركضتُ عبد الدّرج مُسرعا إلى الشّارع.

بعد هذه الحادثة، صرتُ أخرج في اللّيل فقط. حاول والداي أن يعترضا على ذلك. لكنّني لم أصغ إليهما. أنام طيلة النّهار. وعند الغسق، أكون جاهزا لبداية تسكّعي اللّيليّ.

كلّ القطط تتساوى في الظّلام، يقول المثل. ولكنّه لا ينطبق دون شكّ على النّاس. فمعهم، ينعكسُ الأمر تماما. أثناء النّهار، يكون كلّهم سواسية، وهم يركضون في طرقهم المحدّدة سلفا وبشكل دقيق. أمّا في اللّيل، فيتغيّرون إلى ما لا يمكن التّعرّف عليه. يتبختر الرّجال في الشّوارع أو يقفزون كالجراد من ظلّ مصباح شارع إلى آخر، متجرّعين من الزّجاجات التي يحملونها معهم في جيوبهم. وفي المداخل المظلمة المتثائبة، كان هناك نساء بسترات مفتوحة وتنانير ضيّقة. يقتربُ منهنّ الرّجال بمشيات مترنّحة. وحينئذ، يختفون معا. من خلف أشجار المدينة الشّاحبة، يمكن للمرء أن يسمع تأوّهات أولئك الذين يمارسون الحبّ. وفي أنقاض منزل مقصوف، يغتصبُ عدّة أولاد فتاة متهوّرة إلى درجة أنّها خرجت في ذلك الوقت بمفردها. تنعطفُ سيّارة إسعاف في زاوية بعيدة مُحدثة صريرا قويّا بعجلاتها. يندلع قتال في حانة قريبة. ويُسمع صوت تحطّم الزّجاج المكسور.

اعتدتُ سريعا على ليل المدينة. عرفتُ أزقّة تلتمسُ فيها فتيات أصغر منّي سنّا رجالا أكبر من والدي. عثرتُ على أماكن حيثُ رجال يرتدون ملابس أنيقة وساعات ذهبيّة على معاصمهم يتقايضون أشياء تكفي حيازتُها لأن تجعلهم يقبعون سنوات طويلة في السّجن. وجدتُ كذلك منزلا مخفيّا يُخرِجُ منه رجال يافعون مناشير لتعليقها على بنايات حكوميّة.

كانت مُلصقاتٍ يمزّقُها أفرادُ الكتائب والجنودُ لاحقا في سخط. رأيتُ الميليشيات وهي تنظّم عمليّات المطاردة. ورأيتُ مدنيّين مُسلّحين يقتلون جنديّا. أثناء النّهار، كان العالم في سلام. ولكنّ الحرب استمرّت في اللّيل.

كلّ ليلة، كنتُ أزور حديقة عامّة قرب حديقة الحيوانات في ضواحي المدينة. يجتمع الرّجال والنّساء هناك للمتاجرة والسّكر ولعب الورق. كان هؤلاء النّاس طيّبين معي. يعطونني الشّوكولاطا، والتي يصعبُ الحصول عليها. علّموني رماية السّكاكين وكيف أفتكّ واحدة من يد رجل. ومقابل ذلك طلبوا منّي أن أوصل طرودا صغيرة إلى عناوين مختلفة، متجنّبا رجال المليشيات ورجال الشّرطة ذوي الأزياء المدنيّة. عندما أعود من هذه المهامّ، تجذبني النّساء إلى أجسادهنّ العطرة. ويشجّعنني على أن أتمدّد معهنّ وأداعبهنّ بتلك الطّرق التي تعلّمتها مع إوكا. شعرتُ بالرّاحة بين هؤلاء النّاس الذين كانت وجوههم مخفيّة في ظلام اللّيل. لم أضايق أحدا منهم. ولم أعترض طريق أحد. وقد كانوا ينظرون إلى بُكْمي بوصفه مزيّة تضمن تكتّمي أثناء آدائي لمهامّي.

ولكن انتهى كلّ شيء في ليلة مّا. ومضت أضواء الكشّافات المعمية من خلف الأشجار. ودوّت في الصّمت صفّارات الشّرطة. أحيطت الحديقة برجال المليشيات. وأخذنا جميعا إلى السّجن. وفي الطّريق، كدتُ أكسر إصبع ضابط الميليشيا الذي دفعني بقوّة، مُتجاهلا النّجمة الحمراء على صدري.

في صباح اليوم التّالي، جاء والداي ليأخذاني. حملتُ إلى الخارج متّسخا وبدلتي العسكريّة ممزّقة بعد ليلة بلا نوم. كنتُ متأسّفا لترك أصدقائي، جماعة اللّيل. نظر إليّ والداي في حيرة. ولكنّهما لم يقولا أيّ شيء.

20

نحيفا جدّا ومتوقّفا عن النّموّ. نصحني الأطبّاء بهواء الجبل والكثير من التّمارين. وقال المدرّسون إنّ المدينة ليست مكانا جيّدا بالنّسبة إليّ. في الخريف، تسلّم أبي عملا في التّلال، في الجهة الغربيّة من البلاد. وغادرنا المدينة. أرسلتُ إلى الجبال حين هبطت أولى الثّلوج. وافق مدرّب تزلّج سابق على الاعتناء بي. انضممتُ للعيش معه في كوخه الجبليّ. واكتفى والداي برؤيتي مرّة واحدة في الأسبوع.

نستيقظُ باكرا كلّ صباح. يركعُ المدرّب للصّلاة، بينما أظلّ أنظر إليه باستخفاف. ها هنا رجل بالغ، تلقّى تعليمه في المدينة. وهو يتصرّف مثل مزارع بسيط. وليس بإمكانه أن يتقبّل فكرة كونه بمفرده في العالم ولا حاجة أن يتوقّع مساعدة من أحد. يمكث كلّ منّا بمفرده. كلّما أدرك المرء بشكل أسرع أنّ الغافريلات والميتكاوات والصّامتين قابلون للنّفاد، كان ذلك أفضل له. ليس مهمّا حقّا أن يكون المرء أبكم. فالنّاس لا يفهمون بعضهم البعض على أيّة حال. إنّهم يلتقون ويتجاذبون. لكن كلّ واحد منهم يعرف نفسه فقط. تقْسِمه مشاعره وذاكرته وحواسّه من الآخرين، تماما كما يستصفي القصبُ الكثيفُ ماء التّيّار من الضّفّة الموحلة. نحن مثل قمم الجبال

من حولنا، ننظر إلى بعضنا. وتفصلنا الوديانُ، أعلى من أن نبقى دون أن نُلاحَظ وأدنى من أن نلمس السّماوات.

قضّيتُ أيّامي في التّزلّج عبر مسالك الجبال الطّويلة. كانت التّلال مهجورة. أُحرقت الفنادق. وأرسل أولئك الذين سكنوا الوديان من قبل بعيدا. وقد بدأ المستوطنون الجدد للتّوّ في الوصول.

كان المدرّب رجلا هادئا وصبورا. حاولتُ أن أطيعه. وشعرتُ بالسّعادة كلّما حصلتُ على شيء من ثنائه القليل.

حلّت العاصفة فجأة، وقد حجبت القمم والمرتفعات بدوّامات الثّلوج. لم أعد ألمح المدرّب. وأخذتُ أهبطُ بمفردي المنحدر الوعر، مُحاولا أن أصل إلى الكوخ في أسرع وقت ممكن. تقلقل مزلاجي فوق الثّلج المتجمّد المتصلّب. وقطعت السّرعة أنفاسي. وعندما لمحتُ فجأة خندقا عميقا، كان أوانُ القيام بأيّ انعطافة قد فات.

ملأت أشعّة شمس أبريل الغرفة. حرّكتُ رأسي قليلا. ولم يبدُ أنّه يؤلمني. نهضتُ مُستندا إلى يديّ. وكنتُ على وشك أن أستلقي عندما رنّ الجرس. كانت الممرّضةُ قد رحلت. لكنّ الهاتف رنّ بإصرار مرّة بعد أخرى.

سحبتُ نفسي خارج السّرير. ومشيتُ إلى الطّاولة. رفعتُ السّمّاعة. وسمعتُ صوت رجل.

حملتُ السّمّاعة إلى أذني، مُصغيا إلى كلماته المتعجّلة. وفي مكان مّا، من الجهة الأخرى، كان هناك شخص مّا يريد التّحدّث إليّ... شعرت برغبة ملحّة في الكلام.

فتحتُ فمي. وأجهدتُ نفسي. زحفت الأصوات مرتفعة إلى حنجرتي. وقد كانت مكثّفة ومركّزة. بدأتُ أنظّمها في شكل مقاطع

وكلمات. سمعتُها بوضوح تقفزُ خارجة منّي، الواحدة بعد الأخرى، كالبازلاء تنفرطُ من قرن منقسم. وضعتُ السّمّاعة جانبا. أكاد لا أصدّق ذلك. بدأت ألقي كلمات وجملا ومقاطع من أغنيات ميتكا. الصّوتُ الذي فقدتهُ في كنيسة قرية بعيدة عثر عليّ مجدّدا. وهو يملأ الغرفة كلّها. تكلّمتُ بصوت عال ودون توقّف مثل المزارعين، ومن ثَمّ كأهل المدينة، بأسرع ما يمكن، مُبتهجا بالأصوات التي كانت ثقيلة بالمعنى ثقل الثّلج بالماء، مُقنعا نفسي مرارا وتكرارا أنّ الكلام قد أصبح الآن ملكي. وهو لا ينوي الهروب عبر الباب الذي يفتح على الشّرفة.

جيرزي كوزنسكي

الطائر الملون

سواء كان هذا العملُ الأدبيّ سيرة ذاتيّة لكوزنسكي أم رواية مُتخيّلة، فإنّه لا ينقطع عن ربط صلاته العميقة بكلا الأمرين. وسواء كان من تأليفه بإطلاق أم مستوحى في بعض مقاطعه من قصص شعبيّة بولونيّة، فإنّه يظلّ رائعة أدبيّة فريدة في ذاتها، نجمت عن كوارث القرن العشرين التي ما تزالُ تمتدّ في تاريخيّة هذا القرن الذي نعيشهُ. الكلماتُ هنا تخرجُ من عين الكاميرا. يتوقّفُ الأسلوب عن كونه حذلقة وزخرفة ليضع القارئ في النّفَس الحيّ لتجارب إنسانيّة هائلة يعايشها طفل فتيّ، تمكّنه حياته الأولى بين مخالب الحرب العالميّة الثّانية من التّعرّض لصقيع الأيديولوجيّات القاتلة. ربّما ليس الألمُ الذي قاساهُ سوى أفكار باردة، تيبّست شيئا فشيئا. وتسنّنت أطرافها، لتتحوّل إلى السّكّين التي تذبحُ طائرا فقط لأنّ يدا لوّنتهُ من الخارج. وجعلتهُ يبدو مختلفا عن شقيقه الآخر، في عالم جعلهُ الإنسانُ المعاصر غير جدير بالنّظر إليه. ولهذا يطلق طفل الرّواية صرخته تلك: «لقد حيّرني الألمانُ. يا للخسارة. هل عالمٌ مفلسٌ وقاسٍ كهذا العالم، جدير بأن يحكَم؟»

المترجم

ISBN 978-603-91266-5-2

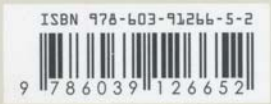

WWW.PAGE-7.COM